المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ميراث الترجمة

مارى إلين تشيس

حافة الظلام

ترجمة
مصطفى طه حبيب

1377

حافـة الظـــلام

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٣٧٧
- حافة الظلام
- ماري إلين تشيس
- مصطفى طه حبيب
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية :

The Edge of Darkness

by : Mary Ellen Chase

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

حافة
الظـــلام

تأليف : مارى إلين تشيس

ترجمة : مصطفى طه حبيب



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

تشيس ، مارى إلين .

حافة الظلام / تأليف : مارى إلين تشيس ،

ترجمة: مصطفى طه حبيب

القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩

٣١٦ ص ، ٢٠ سم

١ - القصص

(أ) حبيب ، مصطفى طه (مترجم)

(ب) العنوان ٨٠٨,٨٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٠٢١٤

الترقيم الدولى 978-977-479-228-9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتـــويات

الجزء الأول

الجزء الثانى

الجزء الثالث

لا تجرى أحداث هذه القصة فى مكان محدد بعينه ، وإنما قد يكون مكان هذه الأحداث أية قرية من قرى الصيد الصغيرة المنعزلة النائية عند ساحل ألفته منذ زمن طويل . أما الأسماء التى اخترتها لشخصياتها فهى أسماء شائعة لدى أهالى ساحل مين الذين درجوا على أن يجوبوا البحار طوال قرنين من الزمان . فإذا كان لأى منهم سمات الأشخاص الحقيقيين فمرد ذلك إلى المصادفة لا إلى العمد أو القصد .

نورثهامبتون – ماساتشوستس

أبريل سنة ١٩٥٧

ماري إلين تشيس

الجزء الأول

سارة هولت

- ١ -

وقفت لوسى نورتون إلى جوار نعش السيدة هولت العجوز وتطلعت إلى المرأة التى كانت جارتها طيلة ثلاثين عامًا . واضحًا أن هذه آخر زيادة تقوم بها لسارة هولت ... واستولى عليها شعور بالضيق، وحتى بالذنب، لأنها لم تستطع فيما يبدو أن تركز فكرها على الوجه الساكن الخيل، الراقد فوق الوسادة الحريرية البيضاء . وما إن لحظت كيف أن المرأة الميتة بأنفها البديع المستقيم، ويديها ذواتى الأصابع الطويلة، لا تفصح عن العمل الشاق الذى ظلت تؤديه زهاء نصف قرن، وكيف أنها بعد انقضاء تسعين عاماً من عمرها المديد لم يبد عليها ما يبدو على معظم الموتى من نحول وذبول، حتى شردت أفكارها وهواجسها بعيداً إلى ثاديوس هولت الذى كان يذرع الشاطئ المرتفع فى قلق ذهابًا وجيئة. وتملكها العجب مما كان يدور فى خلده وهو يسير رائحًا غاديًا، ومما إذا كان فى استطاعته بسبب وحدته وندمه أن يحقق أخر طلب غريب تقدمت به أمه إليه. وحينما استجمعت شوارد فكرها مرة أخرى وأبصرت - وبسمة تشيع فى كيانها - جمال وجدة الوشاح الأبيض القديم الطراز، وتباينه مع رداء سارة هولت الأسود، بدأت هذه

الأفكار تنطلق بعيداً مرة أخرى، لا إلى المرات الكثيرة التى رأت فيها الوشاح أو غسلته وكوته لسارة على مدى السنين، وإنما سرحت هذه الأفكار إلى حلة جويل الزرقاء المنشورة فوق الفراش فى المنزل ، وترى هلى أفلحت فى إزالة اللمعان منها بمحاولاتها المتكررة فى تنظيفها بالبخار ؟ وهل تذكر جويل الذى كان معرضًا للنسيان حتى فى الأيام العادية ؟ هل تذكر أن يحمل معه كمية وفيرة من "السجق" حين يرحل إلى المدينة عند الفجر ؟ فقد كان من المتوقع أن يزداد الطلب عليه فى محل بيعه بعد تشييع الجنازة، أو إن شئت فقل بعد يومين من الطهو القليل نتيجة لما واجههم من مشاغل استغرقتهم فى أحاديث طويلة . ثم جمع خيالها إلى المدّ الذى كان قد عاد لتوه وشرع يعدل وضع القوارب الراسية فى الخور، وإلى زوارق الصيد البعيدة وهى فى طريقها إلى العودة من رحلتها فى الصباح الباكر، ثم أخيراً إلى الوقت ذاته، فقد كان يقترب من الحادية عشرة حسبما استطاعت أن تستبينه من الساعة القديمة العالية، القائمة بين النافذتين الأماميتين خلف النعش تمامًا . وكان أمامها من العمل ما قد لا يتاح لها إنجازه قبل تشييع الجنازة فى الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم .

وأيقظتها الساعة بعقربيها الموحيتين بالوعيد، أيقظتها على حقيقة جديدة ومؤلمة معًا. فلم تكن زيارتها الأخيرة لسارة هولت بحال هى الزيارة التى رسمتها فى خيالها كما كانت ترغب أو تود لها أن تكون.

والآن، وعلى الرغم من أن الساعة كانت تنذرها بأن الوقت يمضى سراعًا، وبدلاً من أن يكون هذا النذير حافزًا لها على المضى فى القيام بما يلقى عليها الموقف من تبعات ملحة، فقد جعلها تعود بذاكرتها إلى يوم أن اشتراها الكابتن هولت فى لندن ليقدمها هدية لعروسه فى أول رحلة قامت بها معه فى تلك الأيام الخوالى التى كانت السفن فيها تجرى بالشراع. وعند العودة حملاها معهما وقد لفاها بالقماش ووضعاها على ظهرها الطويل فى قاع السفينة،آمنة مطمئنة لا خوف عليها من الهزات. وذات ليلة، وبينما كان البحارة ينقلون شحنة السفينة خلال عاصفة هوجاء وسط المحيط الأطلسى، بدأت الساعة تدق فجأة فى أحشاء السفينة المعتمة وقد طغى صوتها على صوت تحطم الأخشاب والترابيس والعدد المنذر بالنحس والذى أفعم قلوب الراكبين جميعًا بالخوف والرعب.

ومهما كان اسم الكابتن هولت طويلاً، فقد كان يكبر سارة بثلاثين عامًا، وقد اقترنت به وهى فتاة لا تزيد على الثامنة عشرة من العمر . وعادت لوسى فتذكرت الاسم : إنه توماس جيفرسون ألكسندر هاميلتون هولت . والواقع أنه وُلد حين كانت تلك الأسماء لاتزال تعنى الشىء الكثير فى التاريخ . ومات منذ نصف قرن بالتمام والكمال. لقد طاف بهذه الحجرات لأن البيت كان ملكًا لأهله، وكان من عادته أن يجلس فوق المقاعد ويتفرس فى الجو ثم يرثى لأرصفة الميناء وأحواض السفن

الآسنة المياه في مئات المرافئ الممتدة على ساحل المين، ويعلن استسلام السفن الشراعية وانهزامها أمام السفن البخارية الغازية. وقد ربى ابنه الوحيد ثاديوس على أن يحلم أحلامًا طويله لم يمكن لها الزمن والتغير من أن تتحقق أو ترى النور. وحين بلغ ثاديوس الستين من عمره سيطرت عليه أحلام من لون آخر. لقد كان في طوق لوسي أن تسمع وقع خطاه الثقيلة وهي تطحن حصى الشاطئ وسط ذلك السكون الغريب الذي خيم على المكان في ذلك اليوم الأخير من أيام سبتمبر . إنها تستطيع أن ترى أصابعه الطويلة الغليظة وهي تتقلص في عصبية خلف ظهره. وأحست بالشفقة نحوه وهي تتمزق كمداً عليه ودون إرادة منها، على الرغم من أن الازدراء والاحتقار وهو ما كان يحسه نحوه الكثير من الناس، وربما كانوا على حق في هذه المشاعر .

والآن فقد تذكر عقلها الجوال المكروب، بعد أن طاف بكل مكان – على الرغم من شعورها بالذنب والرغبة – تذكر شيئًا قرأته يومًا من قصة كانت قد استعارتها من سارة هولت . ولم تكن لوسي قد قرأت كتبًا كثيرة قبل أن تعرف سارة. وفي بادئ الأمر كانت تجد مشقة في استيعابها. وفي هذه القصة قالت إحدى الشخصيات في حوار طويل ومحير إلى حد ما : "إنه ليس في مقدور المرء أن يتمكن من الوقوف على جوهري أي شيء أو معناه الحقيقي على الإطلاق، وإنه بمجرد أن يدور بخلدك أنك وقفت على هذا الجوهر، فإنه يفلت من بين يديك ويدعك وحدك

تبحث عما يكون قد حدثك به عن الحياة وعن المعنى الحقيقى للأشياء" .
هذه كانت فكرة جديدة لم يسبق للوسى أن خبرتها، تفسر لها سر الحيرة التى كثيراً ما استولت عليها، وتعزيها بأن غيرها كان يحس بنفس ما خامرها من أحاسيس. وها هى ذى الفكرة تعود الآن فتحمل إليها اللوم وهى واقفة بجوار نعش سارة فى هذه الغرفة التى ظلت تمنحها العزاء والفهم والشجاعة طيلة ثلاثين عاماً.

ثم تذكرت قصة أخرى من كتاب آخر كأنما تقوى صدق الفكرة الأولى، وربما لكى تمنحها مغفرة عزت عليها كذلك. وكانت هذه القصة تتعلق بكاهن شاب يعذبه شعور بالإثم؛ لأنه لم يستطع أن يركز فكره وهو يكرس الخبز والنبيذ على هذا العمل المقدس . فقد ظل هذا الفكر يشرد منه هنا وهناك حتى عاد به إلى شهوات الصبا وإلى الرغبات الآثمة التى كانت مبعث الخزى فى حياته الكهنوتية القدسية . وكم تعذبت نفس لوسى من أجل هذا الشاب فى لحظات غريبة منذ أن قرأت عنه ... ها هى ذى الآن أكمل إدراكًا لسر عذابه، وهى تعانى الآن عذاباتها .

إنها لا تبغى فى هذه الساعة الأخيرة التى تقضيها قرب سارة الاكتفاء بمجرد تذكر الأشياء المحيطة بها، فأمامها فسحة من الوقت لكل هذا، لاسيما والخريف قد أشرف على نهايته وصار الشتاء على الأبواب، ومن ثم فسوف تكون لديها ساعات طوال تقضيها فى تذكر آلاف

الأشياء. أما وجويل غائب الآن يبحث عن المؤن والزاد، والبضاعة كاسدة في المحل، فقد كان في مقدورها أن تجلس خلف الحاجز وترقب مد البحر وجذره وتتذكر، حسبما يحلو لها أي عدد من الصور والرؤى الغريبة والأحاديث التي لا تنسى، وكيف رأت سارة هولت لأول مرة وهي تزرع الشاطئ وتتفرس في البحر، وكيف سمعت منها لأول مرة كيف كان هذا الشريط الساحلي أيام كانت سارة في عنفوان الشباب، وكيف تعلمت من سارة أن تتطلع إليه كما كان في هذا اليوم. كل هذه الأشياء كانت تستطيع أن تذكرها مع عدد آخر لا يحصى من النظائر الأليفة، المضحكة المتجانسة فيما بينها، ولكن ذلك لا يكفي. والذكريات ليست حقائق. والواحدة منها مختلفة عن الأخرى مثلما يختلف طريق النيزك السيار عن مجموعة الأنجم الثابتة، أو يختلف المد وهو يبدأ في الصعود عن لحظة اكتماله – صحيح أن الذكريات قد تكون مصدر السلوى أو المتعة أو الراحة أو حتى غذاء للأفئدة. ولكنها وحدها لا تستطيع أن تمنحنا القوة أو المنعة. قد يكون في إمكانها أن تدخل البهجة على القلوب، ولكنها لا تستطيع أن تمنحنا السند الذي نتكئ عليه. وراء الفكر الثاقب أو الإلهام وحده هو الذي يستطيع أن يأتي بهذه المعجزة .

إن ما كانت تريده لوسي نورتون، وما جاءت لأجله، وما توقعت في حماقة أن تجده هنا وحدها مع سارة – إلى أن هزمها عقلها – كان

الإدراك، ولو لبرهة واحدة فقط، لمعنى حياة سارة هولت الطويلة الشاقة المظفرة. لو أنها استطاعت أن تقف على هذا المعنى، وأن تفقه كنهه لجزء من لحظته، وأن تنسى نفسها واضطرابها فى خضم هذا الإدراك، فلن يكون ثمة ما يمكن أن تريده بعد ذلك أو تتمناه. عند ذلك تستطيع أن تجابه الشقاء بعد موسم ضنين بصيد السمك، وتحمل الرياح الشمالية الشرقية التى تهب فى أخريات الخريف، مقتلعة فى طريقها شباك الصيد وفخاخ جراد البحر، وتصبر على الديون المتأرجحة فى المحل ومشاغل جويل وما يقض مضجعة، وتبرم الرجال والنساء الأشحاء والأطفال العجاف .

وشرعت تحس على الفور بسكون لا قبل لها به، يخيم على الغرفة، سكون أشد وطأة وأكثر شمولاً من ذلك السكون الذى يجئ به الموت دائمًا إلى أى بيت. إنها تكاد تسمع وتبصر وتشم هذا السكون. وشعرت كما لو كانت جميع أفكار المرأة المسجاة قد عادت وتجمعت ثم راحت تتسلل بين المقاعد والأحذية والمناضد وفوق الصور المعلقة على الحيطان وحولها كالعبير الفوّاح أو كأطياف الغمام أو طنين النحل الخفيض - كل آمالها وأحزانها ومسراتها الصغيرة ووقائع حياتها الطويلة - وعرفت لوسى أن هذه كلها سوف تمضى مع الغد ثم تنتقل بعيداً، ولن يبقى غير تفاصيل البيت الرثة حينما تعود إليه بطبيعة الحال، لتعيد كل شىء إلى مكانه وتهذبه لثاديوس .

وما لبثت هذه المعرفة المفزعة وما صاحبها من صمت مطبق أن أسد ستارًا سميكًا على كل ما استولى على أفكارها من قلق ملح : حلة جويل، و"السجق"، والمد القادم، والزمن نفسه، وحتى انشغالها بكل ما قرأته في الكتب، وبكل ما أضافته هذه القراءة من وخز لضميرها. ولم تعد تسمح فرقعة الحصى على الشاطئ وثاديوس يخطو فوقه متثاقلاً، ولا عادت تبصر يديه القلقتين. والآن امتدت الدقائق القليلة الباقية حتى أصبحت تشمل ثلاثين عامًا بأكملها، ثم صارت كدائرة كبيرة، تبدأ من يوم أن حطت مع جويل في هذه البقعة المواجهة للأطلس الشاسع وتنتهي بوفاة سارة هولت. ووقفت في قلب هذه الدائرة الوضاءة كما لو كانت محفوفة بالنور فوق البساط المفروش على أرضية غرفة الاستقبال. ثم ظلت وحيدة طيلة هذه اللحظات القصار التي امتدت في الزمن حتى أصبحت من طول نصف عمرها. لم تكن امرأة على الإطلاق، لم تكن لوسي نورتون، المتدثرة بردائها ذي المربعات السوداء والبيضاء، ولوسي ذات النظارات المعوجة المثبتة فوق ناظريها القصيرين، لوسي التي تدير المحل مع زوجها في قرية الصيد. لا، لقد فقدت كل ما يميز شخصيتها وكل وعيها بذاتها وأصبحت لا شيء، لا وجود لها، ضائعة فيما بدا كأنه أمواج متلاحقة من الفهم، موجات غامرة بين الدهشة والعجب والشفقة والأمل والإيمان، ثم موجه طاغية أخيرة من الشكر والعرفان .

ثم حسبت أن أصداء دقات الساعة وهى تعلن الحادية عشرة قد أعادتها إلى حيث كانت فى الواقع، فوق البساط الممتد بجوار النعش. لقد ولت دائرة الضوء. ومرة أخرى ألفت نفسها في ردائها ذى المربعات البيضاء والسوداء. أما يداها وقدماها التى كانت قد فقدت الإحساس بها، فها هى ذى تحس بوجودها مرة أخرى، متأهبة لأداء ما ينتظرها من أعمال. ولم تعد تحس بالاضطراب أو شرود الفكر. فقد نالت أخيراً ما كانت قد جاءت لأجله .

- ٢ -

وقبل أن تغادر بيت هولت الذى كان يقع فى حقل يطل على البحر ويبعد بمقدار ربع ميل عن الطريق الوحيد المؤدى إلى القرية، جاست خلال الغرف لتضع اللمسات الأخيرة استعداداً للجنازة، وبدأت بالمطبخ الذى كان يقع خلف غرفة الاستقبال. إن الأطفال سوف يجلسون هنا، فوق المقاعد الصغيرة التى صنعها ثاديوس لهم. والحق أن ثاديوس، بما كان يتمتع به من مهارة يدوية، قد صاغ بوحى من أمه، فى فترات صحوه من نوبات شرب الخمر، ستة أو ثمانية منها لأطفال أكثر من جيل لكى يجلسوا عليها حين يقبلون إلى المنزل لزيارتها، والاستماع إلى حكاياتها وأكل كعكها، والتنافس أمامها على إبداء براعتهم فى القراءة. وطلى المقاعد بألوان زاهية من الأصفر والأزرق والأحمر، وأحبها

الأطفال وأغرموا بها. إنهم سوف يقبلون لحضور الجنازة كغيرهم من أهل القرية فيما عدا دانيل ثيرستون الذى عاوده المرض وآل راندال الذين قد لا يجرءون على المجئ وربما دروزيللا ويست التى لم يكن أحد على بينة من أمر حضورها. إنهم سوف يتخذون مجلسهم فى المطبخ، وكلهم فى أحسن هندامهم يتملكهم الاستيحاء وحب الاستطلاع والذعر إلى حد ما. إن فكرة كونهم مذعورين هى التى جعلت لوسى نورتون ترتب الكراسى والمقاعد على شكل دائرة صغيرة وسط أرضية المطبخ النظيفة. فإذا استطاعوا أن يجلسوا هناك جنبًا لجنب، كما كان من عادتهم أن يجلسوا، فربما بدوا أكثر شعوراً بالطمأنينة والارتياح كما لو كانوا وسط أهليهم وعشيرتهم .

وكانت لوسى تحب دائمًا أن تعنى بهذه المقاعد الصغيرة. وكان بينها واحد أحمر اللون، يجعلها دائمًا ترغب بطريقة غريبة فى الابتسام والصراخ. فقد جعل ثاديوس عوارضه أطول من عوارض المقاعد الأخرى وتجشم المشقة وأولج فيها قطعًا مستديرة مستدقة من الحديد ربطت العوارض إلى مسند المقعد، بل لقد ذهب إلى حد أن صنع له مسندين صغيرين مستديرين. وتعجبت لوسى وهى تتطلع إليه كيف أن معظم الناس حين يعملون شيئًا فإنهم يعملونه، بغض النظر عن الأثر الذى يتركه هذا العمل. ثم كيف يأتى شخص آخر فيصنع مقعداً، أو مصيدة لصيد جراد البحر، أو زورقًا صغيراً يتخذ لنفسه سمتًا

ووجوداً، قادراً على إثارة اللذة أو الألم أو حتى نوع من الحكمة على نحو لا يمكن تعريفه أو الإفصاح عنه وإن كان لا يمكن أن يعزب عن البال .

ثم تركت المطبخ ومضت إلى غرفة الجلوس المواجهة لغرفة الاستقبال عبر الردهة الممتدة وراء الدرج. ولم تكن سارة هولت تميل إلى غرفة جلوسها وقلما جلست فيها. لكن لما كان من المتوقع حتماً أن يفد كثير من الناس من القرى والمدن عبر الطريق الرئيسى فضلاً عن أهالى منطقة الخور، فقد كان لابد لها من أن تأخذ هذه الغرفة فى الحسبان مثل غرفة النوم الواقعة خلفها. وهكذا شرعت لوسى ترتب غرفة الجلوس وتعدل من وضع الكراسي التى كان ثاديوس الذى يسره أن يعاون بشيء ما، قد حملها إلى الطابق الأرضى، أو حملها على عربته من منازل الجيران، واستوثقت من أن جميع ستائر النوافذ فى وضع متسق .

ولابد أن الجيران بطبيعة الحال سيجلسون مع ثاديوس فى غرفة الاستقبال لأن أحداً من أفراد الأسرة لن يكون فيها. واسترجعت أسماءهم فى صمت وأخذت تعدهم الواحد بعد الآخر على أصابع يدها على الرغم من أنها لم تكن فى حاجة إلى ذلك. فكلهم لن يزيدوا على أحد عشر شخصاً أو اثنى عشر إذا عددنا الطبيب الذى سيأتى حتماً بعد رحلته مسافة خمسين ميلاً، دون أن يكترث بأمر زائريه من المرضى

فى فترة ما بعد الظهيرة. ولم تدرج فى حسابها آل راندال فيما عدا فتاتهم الصغيرة التى قد يسمح لها بالمجئ مع الأطفال الآخرين إذا ألحت فى ذلك وألحفت فى السؤال، أو التى ربما جاءت على أية حال إذا تركت وحدها كما كانت تترك كثيراً . وكانت غرفة الاستقبال أكبر من غرفة الجلوس، وقد وضعت الكراسى الاثنى عشر بعناية فى مؤخرة الغرفة ليجلس عليها الجميع عندما يقبلون .

- ٣ -

وبطبيعة الحال كان ثمة احتمال ضئيل فى مجيء فان هولت زوجة ثاديوس. ذلك أن أحداً لم يكن بوسعه أن يعرف شيئًا عنها على وجه التحقيق. فقد كان ذلك الإحساس الممض بأن عليها واجبًا لإنهاء ما بدأته منذ خمسة وعشرين عامًا - حين أقدمت دون روية على الزواج من ثاديوس - لا يزال متمكنًا منها . وقد ظلت سارة هولت تقاوم فيها هذا الإحساس طيلة خمسة عشر عامًا حتى أضعفت من شوكته وأقنعت فان بأن ترحل وتعود إلى مهنة التدريس، وأن تسلك سبيلها الذى تريد. لكن حتى سارة لم تكن قد حطمته تمامًا. وظل هذا الإحساس قويًا، قلقًا، يغريها ويثير فيها شعوراً بالإثم، والأدهى من ذلك أنه كان يقترن بآلام حبها لثاديوس. والواقع أنها كانت لا تزال تحبه رغم ما قد يبدو من أن ذلك عسير على التصديق .

فقد ظلت تكتب له طيلة السنوات العشر التى هجرته فيها، تحدثه عن أخبار ابنها الوحيد "جيف" الذى تخلص وهو فى سن السابعة عشرة من كل ما اتسم به صباه من شقوة وتعاسة، وكيف أصبح الآن يعمل على خير ما يرام فى حقول القمح فى كانساس. على أنها لم ترفق قط مع خطابها لثاديوس أيًا من خطابات جيف التى كانت ترد إليها من غير انتظام، ربما لأنها كانت تعلم أن رؤيته لخط يد ابنه قد يثير فيه شعوراً بالندم ووخز الضمير، أو لأن جيف فى الغالب لم يكن قد أصبح قادراً بعد على كبح غله القديم. إنه لا يزال يستهجن الجيران المتطفلين الوقحاء والمناظر المهينة التى كانت تجرى فى المنزل، والسكوت المفاجئ الذى كان يواجه به حين يقبل على الصيادين وهم يعدون شباكهم وفخاخهم فى المصايد أيام الشقاء، والبكور الباردة التى كان يقضيها فى قارب والده، أو تلك الليالى المطيرة التى لا تقل برودة حين كانا يلقيان الشباك ويثبتانها فى الماء على ضوء المصباح، أو حتى رائحة طعم "الرنجة" الكريهة. وكان يكتب لأمه، معربًا لها فى قسوة، عن أمله فى ألا يعود إلى رؤية هذه المناظر البغيضة إلى نفسه، أمه التى كانت تعرف وهى تبكى فى أثناء قراءتها لرسائله - أن القسوة - فى أية صورة من صورها - تولد القسوة فى صورة أخرى. وكتب لها يقول : إنه حين استيقظ ذات مرة فى كانساس وشهد الشمس كزهرة تشرق فوق الحقول الشاسعة والتربة الخصبة وطواحين الهواء وهى تدور فى رفق ومهل، وقطعان الماشية وهى تتهادى وسط الأحراج المزهرة، غمرت

قلبه سعادة لم يحسها من قبل. إنه يود أن يرى جدته مرة أخرى، وربما سام بيتر وآل نورتون، لكن تكاليف الانتقال أكثر مما يطيق. أما عن والدته - فيقول لها إنها لا شك تعلم عن وجود مدارس فى كانساس، بل إنها أفضل من تلك الموجودة فى المين حيث تقيم .

وكانت فان هولت إذا ما تجمع لديها ست أو ثمان، من هذه الرسائل - وكان هذا يحدث مرة كل عام أو يزيد - واختارت بعناية ما يصلح منها، لأن تبعث به لثاديوس، وضعتها كلها فى مظروف طويل ودونت عليه اسم "السيدة توماس ج. هولت" بعناية كذلك، وبعثت به إلى عنوانها ولم تكن تخشى شيئًا وهى تقدم على ذلك الأمر. وحتى لو شعر ثاديوس بوصول هذه الرسائل - وهو احتمال ضعيف - فإنه لن يسأل أمه (السيدة هولت) عنها، لا لأنه يخشاها ويجلها وإنما لأنه كان لا يزال، حتى فى أحلك ساعات حياته، ينطوى على رحابة صدر وكرم فى الطبع ولما كانت سارة هولت هى القوة المحركة وراء عتق جيف كذلك، فإنه من العدل، بل من الصواب أن تعطى كل ما يتعلق بحفيدها من أخبار .

وكانت دائمًا تشرك لوسى نورتون معها فى خطابات جيف. وبعد وصول حزمة منها، تقرأها بصوت عال خلال ساعة أو ساعتين فى وقت متأخر من الأصيل حين تجلسان معًا فى المطبخ أو غرفة الاستقبال وهما تغزلان أكياس الطعم أو حاملات الفخاخ، من خيط القنب المتين. وكانت كانساس تبدو لهما وكأنها مكان بعيد، موغل فى البعد. ولم يكن

بوسعهما أن يتصورا مثل هذه المساحات الشاسعة من الأرض، التى كان جيف يتحدث عنها فى خطاباته. وكانت سارة هولت كثيراً ما تحدث نفسها قائلة: :"لست أدرى لم لا أستطيع أن أدرك حقيقة هذه الأرض بخيالى، وقد اعتدت أن أدرك معظم الأشياء بعين خيالى؛ وعلم الله لقد شهدت فى حياتى كثيراً من الأماكن. ولكن هذه الأرض بالذات يحيرنى أمرها. إن كل الكتب التى قرأتها عن الغرب، وجميع الصور التى شهدتها عنه، لم تزدنى معرفة بها. وحين أعمل الفكر فى الأمر أعود فأقول: لعل مرد ذلك أن ميناء من تلك الموانئ التى شيدناها لم يكن ليحيط به مثل هذا الفضاء الشاسع من الأرض. وفى هذا يربض سر تعسر خيالى عن أن يحيط بها. فالموانئ التى عهدتها كانت تقع عادة خلفها الجبال كما هى الحال بالنسبة لميناء سان فرنسيسكو، وريو، ومرسيليا، أو حقول الرز الموحلة مثل موانئ الشرق الأقصى، أو الجزر المرتفعة المحيطة بها مثل موانئ البحر المتوسط. إننى لا أستطيع أن أتصور بحال يا لوسى ماذا يكون شعورنا حين نرى الأفق يمتد أميالاً وأميالاً فوق مجرد أرض يابسة .

وقالت لوسى، وهى تهب لتضع قطعة من الخشب فى الموقد وتهيئ الغلاية لكى تشربا الشاى : ولا أنا . فأردفت سارة قائلة : إن أقرب شيء إلى تصورى هو البحر فى سكونه، عند خط الاستواء، لا تحرك صفحته نسمة، ولا تمخر عبابه سفينة، وحيث يجمد التفكير وكأنما

الإنسان من طول الجمود يستنبع الماء من الصخر حين يعاود التفكير بعد أن يجاوز هذه المنطقة الراكدة. لكن ربما لا تؤثر فينا السهول المنبسطة على هذا النحو. فإذا لم يكن جيف يميل إلى البحر مثل بقية الأسرة، أو حتى أن يسكن إلى جواره، فأنا سعيدة لأنه يحب كل هذه السهول المنبسطة السكانة" .

قالت لوسى : إن كانساس مليئة بالريح. وكثيراً ما قرأت عن الزوابع والأعاصير التى تجتاحها .

وقالت سارة هولت : الزوابع والأعاصير موجودة فى كل مكان على نحو ما أو سواه .

وإذا كانت لوسى ترهب نظرات المرأة المسنة، فقد رحبت بصوت نشيش الماء وهو يغلى فى قدر الشاى .

وقالت سارة هولت : أذكر الآن أن جد جيف كان يعلم بوجود مساحات شاسعة من الأرض وأنه كان مولعًا بأن يروى لى كيف درج على زيارة مراعى الأغنام فى سهول الأرجنتين بعد فراغه من نقل شحنة من جلود الحيوان فى بوينس إيريس فى أربعينات القرن الماضى. وكان يقول إنهم كانوا يمتطون صهوات الجياد طيلة النهار ويقطعون المسافات دون أن يروا شيئًا غير العشب والسماء والأغنام. وأذكر أنه قال إن العشب هناك أرجوانى اللون، جميل المنظر، يتمايل مع الريح.

لابد أن أكتب لجيف ذات يوم عن هذه المراعى، فلست أريده أن ينسى ذكرى جده .

أخرجت لوسى من جيب "تنورتها" ذات المربعات السوداء والبيضاء الطلاسة التى درجت على حملها معها ومسحت بها ذرات حقيقية من التراب، أو ما تخيلت أنه كذلك من فوق مناضد غرفة الجلوس ورف الموقد، والموقد طراز فرانكلين القائم تحته، ثم راحت تنسق الأزهار فى أوعيتها. وكان القلق ما زال يساورها بشأن فان هولت. ولم تكن تخشى كثيراً من مجيئها لحضور جنازة حماتها بقدر ما كانت تخشى الهرج والمرج اللذين سوف تثيرهما، والقيل والقال اللذين لا مفر من وقوعهما، واضطرارها لمواجهته بمفردها دون معين. والحق أن لوسى واجهت مثل هذا الموقف مئات المرات منذ عشر سنوات. لكنها لم تكن وحيدة، فقد كانت سارة هولت تقف إلى جوارها دائمًا تشد من أزرها كالجلمود الصخرى الذى لا يتزحزح .

وحينما مضت إلى غرفة النوم لتتأكد من عدم وجود غبار فوق خزانة الملابس وقوائم السرير الكبير القديم وعوارضه، راحت تستعيد ذلك الدور الذى لعبته من أجل سارة يوم افترقت فان عن زوجها ثاديوس فراقًا لا رجعة فيه، بعد محاولات عديدة سابقة لم يطاوعها قلبها فيها على الإقدام على قرار نهائى .

وكانت سارة تقول :

قولى لهم يا لوسى إنهم لم يجرؤوا على التفوه بكلمة لى. قولى لهم ذلك بالأسلوب الذى يروق لك. فأنت ممثلة موهوبة، وفى استطاعتك على الأقل أن تجبريهم على الإنصات. قولى لهم إننى أبعدت فان عن ثاديوس. هذا هو الحق الصراح . قولى لهم إننى لا أريدها أن تبقى هنا ولن أسمح لها بذلك. إن ثاديوس لا يستحق حبًا من نوع حبها. ربما كان يستحق ذلك يومًا ولكنه لم يعد يستأهله. وإذا كانت النساء هن كل من يريد، فإنه يستطيع العثور عليهن فى شتى الأماكن على هذا الساحل المهجور، ولو أنك لست بحاجة إلى أن تقولى لهم هذا الكلام. إنها من معدن طيب لا ينسجم مع ما يسود هذا البيت من عنف وهياج. وحتى جيف أحسن حالاً معى، وعلى أية حال فلن يطول به المقام هنا. انقلى لهم ما قلت بالحرف الواحد .

واستعادت لوسى هذا الكلام بينها وبين نفسها، وقد استبانت وهى تفعل ذلك أنها سوف تضطر إلى إدخال إضافات على بعض الكلمات، وأنها سوف تعطى أهمية خاصة للبعض الآخر بالنظر إلى هذه الظروف المتغيرة. وعندما غادرت غرفة النوم ومرت من المطبخ لتلقى نظرة أخيرة على غرفة الاستقبال، حملت مقعدًا آخر معها لتضيفه إلى الاثنى عشر مقعدًا الموجودة هناك .

- ٤ -

لم تكن لوسى مهيأة تمامًا لتقبل ما طرأ من تغيير على غرفة الاستقبال. وربما بدا لها أنها دخلت غرفة أخرى مختلفة تمامًا عن تلك التى كانت قد غادرتها منذ عشر دقائق، وعندما وضعت الكرسى الزائد بجوار الكراسى الأخرى، تحركت إلى وسط السجادة المضفورة ثم وقفت هناك فى حيرة لا تدرى أين يكمن الفرق. إنما كانت واثقة من أن الأشياء لم تكن كما كانت من قبل، وألفت نفسها، ودون أن تدرى، وقد خلعت نظارتها وتنفست فى زجاجها، وراحت تجلوها بمنديلها ثم تعود فتضعها فوق عينيها. وكان من عادتها أن تقدم على هذه الحركة الحمقاء منذ سنوات عديدة كلما أحست باضطراب ذهنها أو عدم وثوقها بما يواجهها من أمور، كما لو كانت عدسات النظارة تساعدها على جلائها .

وكانت موقنة بأن هواء الغرفة قد فقد ثقله وأنه أصبح أكثر خفة وشفافية، وجال بذهنها خاطر أنها ربما لم تعد مشغولة البال أو زال عنها الاضطراب، على أن هذا التفسير لم يرضها. وكانت الغرفة ساكنة، لكنها لم تعد صامتة وإنما هادئة مستكنة. لقد كانت أشبه بذلك الضوء الصافى الشفاف الذى نراه عند مغيب الشمس وقد أعتمه الضباب وكساه بالسواد، والذى إذا ما انقشع متجهًا إلى البحر كشف عن الخطوط الواضحة، المألوفة، المميزة للشاطئ والجزر.

كـانت غـرفـة الاسـتـقـبـال آنئـذ فى نصـاعـة مـثـل هذا النـهار الدانى من نهايته .

وابتـسـمت لوسى هناك فى وسط السـجـادة المجـدولة، لأنهـا خـالت أنها تـعرف السـبب فى هذا التـغـيـر الطارئ . فلم تـعد هناك أفكار قلقة تملأ أركـان الغرفـة وحيطانها، ولا أحـزان ولا قرارات مسـتيئسـة، مفعمة بالألم، ولا آمـال ولا ندم أو ذكريات. لقد ولت روح سـارة هولت أو نفسـها أو ذلك الشـىء الذى كـان يمنحـها الحياة مـهمـا يكن. لقد أخـذت روحـها معها دون انتظار لجزيرة "شاج" حيث كان مقدراً لجثمانها أن ينقل فى أصيل ذلك اليوم، وأخذته معها إلى وجود جديد لم يكشف أمره بعد؛ فى زمـان ومكان لا نعـرف من أمـرهـمـا شـيـئًـا. ربمـا كـانت روحـهـا لاتزال تحـوم حـول البيت القديم، لا تريـد أن تترك الأشـيـاء التى كانت تعرفـهـا دائمًـا، وربمـا كـانت تتـبـاطأ هناك انتظاراً لأحـد يفـهـم مـعنى إقـامـتـهـا القـصـيـرة فى هذه البـقـعـة بالذات من الأرض. وكـانت هذه الفكرة التى طافت بذهنهـا تحـمل من المواسـاة بقـدر مـا تحـمل من الإثـارة. وعـادت لوسى تبتسم للمرة الثانية .

إن فكرة غـريبة تسـتولى عليـها الآن وتلح عليـها بأن تصلى من أجل روح سـارة هولت التى تحلق فى طــريقـهـا بعـيـداً وراء ذلك الأفـق حـيث يتـلاقى البـحـر مع السمـاء. ومهمـا بدا هذا الخـاطر سـقيمـا، وعلى الرغم من أنهـا ربمـا احـتـفـظت به وحرصت عليه قريبًـا من ذاتهـا، فـقـد أرادت أن

تركع هنا فى هذه الغرفة الأنيسة الآن وتقول أى شىء، ثم تذكرت بضع كلمات كانت قد سمعتها فى مكان ما منذ بضع سنوات أو ربما قرأتها، وكانت دائمًا تترك صدى بهيجًا فى نفسها : "لتستقر أرواح الصديقين بسلام فى مثواها الأخير برحمة الله ورضوانه" .

ورأت أن فى هذه الكلمات ما يكفى. ثم احمرت وجنتاها حين ذكرت المرات العديدة التى تلتها فيما بينها وبين نفسها فى أثناء الجنائز التى كانت تقام على الساحل أو فى الجرز فى المدافن العائلية المتواضعة، بينما الريح تعبث بملابس قلة من الناس وقفوا حول الجثمان ووحدة مخيفة تزيد فى فرقة الواحد منهم عن الآخر .

والآن راحت تتمتم بهذه الكلمات على روح سارة هولت. لكنها لم تقو على الركوع فوق السجادة ولو أنها كانت تواقة أن تفعل ذلك. ولو ركعت لكان ذلك تحديًا لنشأتها والتقاليد التى ربيت عليها. بل ولكان فيه إحساس بعدم الصدق والأمانة مع نفسها، مثل ذلك الإحساس الذى خامرها منذ ليلتين حين أوصلها الطبيب إلى المحل بعد نوبة سهرهما مع سارة هولت فى مخدعها.

وكانت قد ذهبت إلى المحل قبل انتصاف الليل بقليل لتجد جميع الصيادين هناك، كما توقعت، جالسين فى صمت ينضح بالقلق، يدخنون الطباق مع جويل، انتظارًا لأنباء سارة هولت الراقدة على فراش الموت. وأجابت عن أسئلتهم المرتسمة على وجوهم بالكلمات التى أسرها الطبيب

إليها . وشعرت بالأمان وهى تنسب كلماته إلى نفسها . فقد تحامل الطبيب على نفسه ثم مضى يترنح فى وسط الضباب الغامر لكى يعود دانيل ثيرستون الشيخ الذى يقيم على مبعدة ميل فوق التل .

قالت لوسى للجماعة الصغيرة من الرجال المتعبين :

- لقد زفرت أنفاسها منذ قليل إنها تمثل نهاية حقبة فى هذا الساحل. ولو أن الصيادين تأثروا لدى سماعم هذا النبأ، إلا أنهم لم يكشفوا عن مشاعرهم، بل أخذوا ينفضون غلايينهم فوق الموقد، ومضوا إلى بيوتهم طلبًا للنوم يضع ساعات قبل أن يخرجوا مع طلوع الفجر، يتعثرون فى طريقهم إلى قوارب الصيد ... ولم يلق بتحية المساء عند الخروج سوى سام باركر.

وعندما أخذ جويل ولوسى يتأهبان للنوم فى سكنهما الكائن أعلى المحل، حملق فيها بإعجاب ودهشة ملؤها الحيرة ثم قال:

- إن أحدًا سواك لم يكن فى طوقه أن يلقى النبأ على نحو ما فعلت. أنت تعرفين دائمًا كيف تنتقين ما يناسب الموقف من كلمات. إنها حقًا نهاية حقبة فى هذا الساحل. لكن منذ الذى كان سيطرأ على فكره أن يقول هذه الكلمة: "حقبة"؟ وفيما يتعلق بى أقول لك إننى ما أعرتها انتباهًا حتى سمعتك تنطقين بها .

وحينما ضمهما الفراش، رقدت لوسى على مقربة من ظهر جويل العريض، تذرف الدمع فى أحشاء الظلام الرطيب الذى زحف إلى الغرفة من خلال النافذة. أما جويل فما لبث أن راح فى سبات عميق على الفور. وصممت لوسى على أن تقول له ذات يوم : إنها كذلك ما كان ليطوف ببالها هذه الكلمة "خقبة" حتى قالها الطبيب .

- ٥ -

لم يصل الطبيب إلى بيت هولت إلا بعد الساعة العاشرة من ليلة وفاة سارة هولت. وحينما ولج الباب الخلفى وتوقف برهة فى الردهة لينفض معطفه قبل أن يعلقه فوق المشجب، قال للوسى التى كانت جالسة بجوار فراش سارة : إن الضباب كان أسوأ ما شهد فى حياته. وقد اقتضاه أن يقطع مسافة خمسين ميلاً فيما يقرب من ثلاث ساعات، ثم قال :

- وفضلاً عن ذلك فإن كشافات السيارة لا تكاد تزيد فى قوتها عن عودين من الثقاب. أما الحاجز الواقى من الريح فليس خيرًا من قطعة من الأسفنج. والطريق الرئيسى المؤدى إلى هنا على قدر كاف من السوء. وحينما يستدير المرء متجهًا إلى هذا الخور الذى تعيشون فيه، فلن يلقى غير الجحيم وايم الله .

ثم مضى إلى المطبخ لكى يغسل يديه حيث كان ثاديوس مستلقيًا عبر المائدة وقد اعتمد برأسه ذى الشعر الأبيض الكثيف فوق ذراعيه. وكانه يرتدى قميصًا صوفيًا رمادى اللون وكان يبدو حليق الذقن نظيفًا. وفوق المائدة كانت توجد زجاجة فارغة وكوب، نقلها الطبيب إلى الرف وراء البالوعة. وسأل لوسى من خلال باب غرفة النوم المفتوح .

– كم استغرقت نوبته هذه المرة؟

قالت لوسى :

– طيلة اليوم فيما أظن. لقد ظل يجول الشاطئ بمنأى عن البيت، ولم يسطع الرجال أن يفعلوا معًا شيئًا حينما أقبلوا إلى هنا. لقد عوقهم الضباب فجاءوا فى وقت متأخر. ثم أعددت له طعام العشاء ولكنه أبى أن يتناوله. ولم ينطق بكلمة واحدة منذ الثانية مساء. وحين قلت له إنه من العار أن ينهار على هذا النحو فى وقت مثل هذا الوقت. قال إنه لا ينوى أن يقرب الشراب طيلة اليومين القادمين. لكن من يدرى أنه سيفعل .

قال الطبيب :

– ياللشيطان المسكين !

ثم أغلق باب المطبخ قبل أن يدخل غرفة النوم .

وجلست لوسى بجوار الفراش أسفل المصباح الموضوع فوق المنضدة، وقد وضعت سلة الحياكة الخاصة بسارة هولت على حجرها، وأخذت تحول بعض الجوارب وتلقى نظرة ما بين الحين والحين إلى المرأة الراقدة فى هدوء فوق الوسائد النظيفة. ولم يكن فى الحجرة صوت غير رفيف الطربوش الأزرق المحيط بالمصباح أو الأنفاس السريعة المتلاحقة التى تتصاعد من بين شفتى سارة هولت والتى كانت تضيع وسط هدير الموج الذى كان يترامى إلى الغرفة من الشاطئ .

ولم يكن المد قد بلغ أكثر من نصف ذروته حين هبت ريح شديدة من الجنوب الغربى، فراح يلاطم الشاطئ فى أمواج متلاحقة. وفى كل مرة يعود فيجلب معه أثقالاً من الحصى والحصباء. وكانوا يسمعون خلال اللحظات القصيرة التى تمضى بين تدافع طوفان الموج والمد صفعات الماء الغاضب وهو يصفع قوارب الصيد، وقرقعة أدوات الصيد غير المثبتة، والعائمات، وشباك الصيد المكومة بجوار المظلة والمخزن، وقعقعة المجاديف وهى تضرب فى مجاريها، وصلصلة سلاسل المراسى، ويترامى إلى أسماعهم وقع الماء وهو يتساقط من فوق شجيرات الليلك المغلفة بالضباب وشجرة الشربين .

وقبل أن يتخذ الطبيب مجلسه فوق الكرسى الذى قدمته له لوسى، راح يحل طوق قميص نوم سارة هولت ويسمع من خلال سماعته دقات

قلبها. ثم أمسك بيده معصمها النحيل الأزرق المنبسط فوق ملاءة السرير. وقال:

– لقد اقتربت النهاية .

قالت لوسى :

– هل أحاول إيقاظ ثاديوس ؟

– لست أرى لذلك سببًا. وعلى أية حال يكون فى استطاعتك إيقاظه. وإذا حدث وأفاقت من غشيتها – وهو الأمر الذى أشك فى حدوثه – فلن تتوهم أنها رأته على هذه الحال . دعيه أمنًا حيث هو. وهو لن يفيق من هذه السكرة حتى الصباح .

وزادت الضوضاء الآتية من الخارج كلما علا المد. وبدا للوسى كما لو كانت قوقعة هشة صغيرة قد ضمت الجمع بداخلها، لا يكف البحر عن اللهو بها ومضايقتها، وسألته :

– هل هى هادئة كما يبدو عليها ؟

– نعم . ولو كانت غير واثق من هذا لفعلت شيئًا. ولا سبيل إلى عمل شىء الآن سوى الانتظار .

وتطلع الطبيب إلى لوسى. لقد وضعت سلة الحياكة فوق المائدة وراء المصباح. وكانت قد خلعت نظارتها وأخذت تزفر على زجاجها

لتجلوها كعادتها إذا ما استبد بها قلق واضطراب، مستعينة على ذلك بمنديلها ثم أعادتها إلى مكانهم فوق عينيها .

وسألها :

- كم مرة كان عليك أن تواجهى مثل هذا الموقف ؟

- مرات عديدة .

ثم انقطع حبل الحديث، وقالت لوسى أنهما لم يتكلما وقتًا طويلاً ولكنها لم تكن تستشعر ضيقًا ولا جهداً. لقد كانت تأمل طيلة الوقت أن ينتهى الموقف على هذه الصورة دون أن يشاركها فيه أحد غير الطبيب. ونسيت حفيظتها ضد ثاديوس. وشعرت بالبهجة لأنه لم يكن موجوداً .

وجاء من الخارج صوت خشب يتناثر حطامه خلال وقفة قصيرة بين تكسر الموج عند الشاطئ. وفكرت لوسى أنها ربما كانت أوتاد شباك الصيد، وأنه كان عليه أن ينقلها إلى الداخل فى مثل هذا النوء الهائج .

- واستأنف الطبيب الحديث من حيث انتهى فاستطرد يقول :

لكن ليس مثل هذه المرة. فلا أنت ولا أنا سوف تتاح لنا الفرصة أن نرى مشهداً كهذا قط. لقد راودتنى هذه الفكرة وأنا فى طريقى إلى

هنا، وكانت تلح على كلما توقفت عن لعنة هذا الطريق البشع، أو ألفيت نفسى وقد زلقت قدمى فى حفرة. لقد ظللت أفكر كيف أن وفاة السيدة هولت تضع حداً ونهاية لحقبة من الحقب التى تعاقبت على هذا الساحل، وتذكرت أنها قالت لى : إنها بلغت التسعين من عمرها فى الشهر الماضى، وهذا معناه أنها ولدت فى بداية عصر السفن الشراعية ، وكانت ببقائها على قيد الحياة تثير حولنا شيئًا من جو الماضى، وقد ولى هذا الجو بذهابها .

قالت لوسى :

– لقد أبحرت إلى كل مكان مع زوجها حين كانت فى شرخ شبابها طيلة عشرين عاماً حتى حل البخار مكان الشراع. ولكنك تعرف عن كل هذا مثلما أعرف .

قال الطبيب :

– فى تلك الأيام التى شهدت مولدها كان هذا الساحل أقرب إلى الهند والصين منه إلى الولايات الوسطى القريبة، وظلت على هذه الحال مدة ثلاثين عامًا، حتى المدينة البائسة التى أعيش فيها كانت تبنى السفن، عشراً أو عشرين سفينة كل عام، ويخرج الرجال بها يطوفون بالعالم كله. فى تلك الأزمان كان الناس يفكرون فى أشياء أخرى غير مجرد تعبئة "الرنجة" وتعليب ثمار "الفراولة" .

وأضافت لوسى :

– حتى هنا فى هذه البلدة كانوا يبنون السفن. وكانت تقوم الأحواض الكبيرة لبناء السفن عند نهر تيدال. وإنك لتستطيع أن ترى هناك آثار الممرات التى كانت تدفع فيها هذه السفن إلى البحر عند "تدشينها" . بل إن فى مقدورك أن تراها هنا فوق البرزخ الكائن وراء محلة دان بيرستون حيث المياه عميقة وآمنة، وما زالت "الأرصفة" والأخشاب المتآكلة قائمة فى جزيرة شاج كذلك حيث ولدت سارة هولت وحيث تريد أن تدفن. لقد ظلت جزيرة شاج خلال عشرين عامًا لا يعمرها سوى الصيادين فى شهر نوفمبر من كل عام. وحينما أقبلنا لأول مرة كان فيها عدد قليل من الصيادين، ولكنهم ما لبثوا أن غادروها إلى الساحل. ومن الغريب حقًا أن نفكر أن هذه الجزيرة مختلفة الآن عما كانت عليه من قبل .

قال الطبيب :

– ومع ذلك فقد كان كل شىء مختلفًا، يستوى فى ذلك الناس والأماكن. ولم يكن من المستطاع أن يخرج أهلها إلى بحار الدنيا ثم يظلوا فى عزلة عقلية. وحتى إذا لم نخرج إلى عرض البحر فإننا كنا نعرف من خرجوا وعرفوا الموانئ والأقطار الغريبة وألفوا طرائق أهلها وأساليبهم فى الحياة. على أنها لم تحدثنى أبدًا عن حياتها فى البحر

خلال السنوات الخمس الأخيرة التى درجت فيها على عيادتها ما بين حين وآخر، ولكننى أحسبها حدثتك عن هذه الحياة .

قالت لوسى :

– لو تحدثنى عن ذلك كثيراً فى الأيام الأخيرة. ولكنك كنت ترى دائمًا هذه الأيام عالقة بأفكارها وخيالها. لقد عانت الكثير من المتاعب هنا، وأعتقد أن ذكرى تلك الأيام التى قضتها فى البحر مع زوجها كانت تؤسى جراح قلبها ... إن للبحر تأثيراً فى الذين يمخرون عبابه فهو يبث فيهم صلابة يستطيعون بها أن يواجهوا الحياة بالطريقة التى كانت تواجهها بها سارة ويصمدون لها ولا ينهارون تحت ثقل وطأتها، وبينما كانت تتحدث شهدت أصابع الطبيب وهى تتحرك فوق معصم سارة هولت وتضغط عليه هنا وهناك، ولاحظت أن عينيه لم تنحرفا عن وجهها حتى فى أثناء حديثه حين قال :

– لقد أتيت لها معى ببعض الورد منذ قليل. وأذكر أنها حدثتنى عندئذ عن الأزهار التى شهدتها فى مختلف أنحاء العالم، وذكرت أسماء بلاد كثيرة مثل فرنسا والأزور وإنجلترا. وقالت : لى إنها رغم ذلك كله لم تر أزهاراً أجمل من ورودى .

وسألته لوسى فى كياسة :

– وكيف حال ورودك الآن ؟

– جميلة بل إنها لتزداد جمالاً فى كل عام. ولا يزال بعضها مزهراً حتى فى هذا الوقت المتأخر من السنة. ويبدو أن الطين الجاف والحصباء والقواقع المطحونة تلائمها. أقسم أنه لولا هذه الورود لنزحت من هذا الساحل منذ وقت طويل .

قالت لوسى :

– كم عجبت لسبب مقامك هنا. بل إننى كثيراً ما ساءلت نفسى المرة تلو المرة : لم يبقَ هنا أى فرد منا أصلاً ؟

وأخرج الطبيب قطعة من "الشاش" من حقيبته وضعها عند نهاية السرير، ثم بللها فى وعاء ماء كان موضوعًا فوق المنضدة ومسح بها شفتى سارة هولت ثم قال :

– حينما تجدين جوابًا لسؤالك أرجو أن توافينى به، فقد يكون هو جوابى نفسه. ومن ثم توفرين على وقتًا كنت سأمضيه فى التفكير .

وتململت لوسى فى مقعدها كما لو كانت على وشك أن تغادره، ثم سألته :

– أرجو ألا تظنها حماقة منى إذا ما أوقدت الشموع الموضوعة فوق المدفأة. لقد اشترى لها جويل بعض الشموع الجديدة منذ يومين فقط. كانت تولع بها دائمًا وهى مضاءة هناك، أما هذان الشمعدانان

الفضيان القديمان فقد جاءوا بهما من لندن مع ساعة الحائط الموجودة في غرفة الاستقبال في وقت واحد. وقد جلوتهما لها هذا الصباح وأعتقد أنهما استلفتا أنظارها ببريقهما .

قال الطبيب :

– أعتقد أنه من الصواب تماماً أن توقديهما .

عبرت لوسى الغرفة وأشعلت الشموع الست فى الشمعدانين الفضيين الموضوعين على جانبى رف المدفأة. ثم عادت إلى مقعدها بجوار السرير ثم استأنفت الحديث :

– أمس وقبل مجيئك إلى هنا عند الظهر، راحت فى سبحة من سبحات الخيال، وأخذت تتحدث عن مضايق صندا. وأذكر أنه كان من عادتها أن تتحدث عنها كثيراً خلال الأعوام الأخيرة، ولكن يبدو أننى لا أستطيع أن أتذكر الآن أين تقع هذه المضايق .

قال الطبيب :

– إنها فى مكان ما من المحيط الهندى بالقرب من جزيرة جاوة .

ويبدو أن أحداً يغير دائماً من أسماء الأماكن القديمة، ولكن هذا هو موقعها على أية حال. لقد قرأت عن هذه المضايق. وكانت مياهها

خطرة، مليئة بالمناطق الضحلة والصخور والتيارات البحرية الغادرة وتهب عليها رياح مفاجئة ... وكان على المار بها أن يسير مع الريح قبل الإبحار إلى الساحل الصينى .

– وهل تعلم شيئًا عن الكير جويلين أيضًا ؟

– لا . لا أستطيع القول إننى سمعت شيئًا عنها .

قالت لوسى – وهى لا تخفى الشعور بالزهد القليل الذى استولى عليها فى هذه الفرقة الغارقة فى الظلام، والتى كانت تعج بأصداء المد حينما يعلو ويفيض على الساحل وتعلو الريح فى الخارج :

– إنها جرز، وإن شئت الدقة فقل : إنها صخور ضخمة، ناتئة من قلب مياه آسنة تجتاحها العواصف . فإذا ما درت حول رأس الرجاء الصالح وأنت فى طريقك إلى استراليا، وبمجرد أن تطالعك تلك الجزر الصخرية، فاعلم أنك بالغ ميناء سيدنى بعد ذلك بأسبوعين إذا ما صادفتك ريح مواتية .

وبعد هذا الحديث شملهما الصمت بضع دقائق. وحينما هدأ ضجيج الموج فى الخارج بضع ثوان، كانت لوسى تستطيع أن تسمع دقات الساعة، وهى تحسب مرور هذه الثوانى وحركة الخطار "البندول" الثقيل وهو يتأرجح يمينًا ويسارًا . وخفقت الشموع وترنحت ذؤاباتها تحت وطأة عصفة الريح التى هزت نوافذ الغرفة

وعصفت بحيطانها واندفعت من خلال المدخنة أحيانًا . وسأل الشمع المذاب على جوانبها. متلفًا اتساقها ولكنها وجدت راحة وعزاء فى استمرار ضيائها .

وهبّ الطبيب من مقعده وانحنى فوق الفراش ثم قال :

- إنها على وشك أن تزفر آخر أنفاسها .

فقامت لوسى ووقفت إلى جواره، ووضع الطبيب يده فوق كتفيها، وهمست لوسى وقد ندت الدموع نظارتها :

- إنها تبتسم .

ثم خلعت النظارة وقالت :

- انظر إليها وهى تبتسم. لعلها ترى الآن شيئًا درجت على حبه؛ ما أكثر ما حدثتنى عن أقواس قزح التى كثيرًا ما شهدتها مع زوجها فى أثناء أسفارهما بحرًا، بما لها من ألوان ناصعة وهى تميل منحدرة فى الأفق فى قلب الماء. ليس ثمة ما هو أبهى من هذه الأقواس ولا مثيل لمنظرها الرائع فوق اليابسة كما كانت تقول. ربما يمر بخيالها الآن طيف من أطيافها .

قال الطبيب :

- ربما .

- ٦ -

وقبل أن تغادر لوسى غرفة الاستقبال فى الساعة الحادية عشرة والربع جذبت فى خفة الوشاح الأبيض الذى كان يكسو رداء سارة هولت الأسود حتى لا يبدو تباينهما شديداً . لقد كانت سارة هولت، حتى فى شيخوختها، تعنى برشاقة هندامها . وكانت لوسى تريد أن يذكرها جيرانها كما عرفوها وهى على قيد الحياة، متأنقة، ذات مزاج صاف. وبعد أن أحصت الكراسى مرة أخرى وعدلت وضع ستائر ذهبت إلى المطبخ لتحضر سلة الطعام التى كانت قد أعدتها لثاديوس. وكانت أزهار الچيرانيوم الحمراء متفتحة فوق حافات النوافذ الواسعة البيضاء. وقطعت زهرة منها ثم رشقتها فى غطاء سلة الطعام .

وكان ثاديوس لا يزال يذرع الشاطئ الذى كان مد البحر آخذاً فى إغراقه وئيداً . وكان مرتدياً حلته السوداء التى ارتداها فى وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. وكان قميصه نظيفًا ورباط العنق جديداً ومربوطًا فى عناية. كان طويل القامة، متين البنيان، وسيما كأبيه، كما كانت أمه تقول دائمًا . لكن يديه الكبيرتين وأصابعه كانت طويلة مثلها . وكان لا يزال مشبكًا يديه فى عصبية خلف ظهره فى أثناء سيره. لكنه حين أبصر لوسى قادمة عبر العشب دسهما فى جيوبه .

وقالت لوسى وهى تقدم له سلة الطعام :

– إن أمك تبدو غاية فى الوداعة. وإنه ليوم صحو جميل من كل هذا الضباب والريح .

قال :

– نعم، شكراً لك يا لوسى على كل ما قمت به .

– سوف يأتى جويل وسام وغيرهما من الرجال مبكرين ليعاونوك فى القارب. لقد أعدوا كل شىء يا ثاديوس، فلا تشغل بالك بأدنى شىء. والدلاء كلها مملوءة بالماء عند حوض الأزهار الخلفى المخصص للأطفال .

ومرة أخرى قال لها .... شكراً .

– لابد أن أمضى الآن، بالقوارب تدنو من الشاطئ ولابد أن حنة تريد أن تعد طعام العشاء لـ"بن" . لديك قنينة من القهوة الساخنة وبيض مسلوق وشطائر من اللحم فى سلتك. حاول أن تأكلها كلها. هلا فعلت ؟

– نعم سآكلها .

واستدارت لتعبر المنحدر المعشب فوق الشاطئ نحو الممر المكسو بالحصى الذى يمتد وسط الحقول والمراعى الوعرة ويؤدى إلى طريق القرية .

وقال ثاديوس :

- أشكرك كذلك على هذه الزهرة يا لوسى .

- ٧ -

اقتربت القوارب الآن من الشاطئ، وما إن عبرت الممر ولحظت وهى تسير كيف أن الأزهار البرية ما زالت قائمة زاهية على الجانبين، وكيف تبدو حمرة التوت البرى وسط الأحراج، حتى توقفت عند بوابات المراعى المفتوحة القائمة فوق طريق القرية لترقب الصيادين وهم يدخلون الخور ويلقون بالمراسى فى الماء ويحملون قواربهم بصيد الصباح. واليوم وقد اقترب موعد الجناز فإنهم لن يأخذوا هذه القوارب، مصعدين فى نهر تيدال إلى السمك هناك، وإنما سيتركونها فى عرباتهم. وفكرت وهى تراهم يضربون فى المياه الهادئة التى لم تكن تحركها هبة من ريح كيف أنها شهدتهم على هذه الحال آلاف المرات أو شهدت غيرهم فى قوارب مثلها وهى تتهادى نحو الخليج طوال كل هذه الأعوام. أشكال معتمة تنفذ من خلال الضباب فى فصل الصيف أو تذروها إحدى عواصف شهر نوفمبر المفاجئة فتبدو وكأنها قد صارت كتلة متماسكة من الثلج أو واضحة المعالم، متميزة القسمات حين تهب عليها ريح شمالية غربية، رخية . على أنها مهما كانت حالة الطقس

فـهى تمـضى دائمًـا وقـد أحـاطت بهـا سـحـائب من طيـور النورس المتربصة .

وكـان من عـادة هؤلاء الصيـادين أن يسـيروا بقـواربهم فـى الخليج على نحو يكاد يكون رتيبًا، فكان سـام وجـويل دائمًا فى المقدمـة. وكـان سـام يصـيد على مبـعـدة من الطوار "الإفـريز" عند الجانب البـعـيـد من جـزيرة شـاج، فـتـعكس شـمندوراته الحـمـراء الزاهـيـة لونهـا على الكتل الخشـبـيـة السـوداء المتـراصـة عند الشـاطئ. ولو أراد الصـيـاد كـارلتـون صـوير الشـاب لاسـتطاع اللحـاق بسـام، على الرغم من أن المناطق التى كـان يصـيد فـيهـا والتى تقع على بعد سـبعة أميال من منطقة سـام، أكثـر خطورة ولا تبـعد كثيرًا عن الفنار الكبير حيث تتكاثر الصـخور السـوداء والدوامـات المهلكة وتتسـابق التـيـارات المائيـة فوق مـد عـال جـارف. وكـان قـارب كـارلتـون الجـديد "مـارى بلودجـيت" يثـير الغـيـرة فى قلوب صـيـادى الخليج بل وجـزء كـبـيـر مـن السـاحل، بمقـدمـتـه الحـادة الرشـيـقـة ولونه الأبيض الناصـع. والحق أنه قـد كلفـه ثمنًا غـاليًـا ولو أن أحـدًا لم يكن يدرى كيف كـان كـارلتون يدبر أمـور أسرة تتألف من زوجـة وطفلين وكيف اسـتطاع أن يمضـى فى حياته رغم تعـاقب فـصلين أجـدب الصـيد فـيـهمـا، فيمـا عدا لوسـى التى كـان قلبـها ينبض بالزهور والبـهجة كلمـا رأت طفلى صـوير. لكن كـان ثمـة عـرف قـوى بين الصـيـادين، له فـاعليـتـه واحـترامـه على الأقل فـيـمـا يتـعلق بأسـبـقـيـة الدخـول إلى الخليج، وكـثـيـرًا مـا أبطأ

كارلتون من سرعة مكنة قاربه أو أوقفها تماماً حين يكتشف أنه يوشك أن يتقدم سام .

أما بنجامين ستيفنز فكان قد دار لتوه حول رأس هرنج؛ لأنه كان يصيد غرباً في ذلك المجرى المائي الضحل نسبيًا الذى كان ينثال من عند الرأس إلى قلب خليج مكاريل، فيشق طريقه إلى الساحل وسط عدد من الأخوار والخلجان. وأقبل قارب بن الذى كان يغوص قليلاً فى الماء فى أحسن طقس، أقبل مع الظلال السوداء التى كانت أجزاؤه العليا الثقيلة تلقى بها على صفحة الماء، وقد بدت واضحة جلية وسط ضياء هذه الظهيرة الصافية غير العادية فى ذلك اليوم من أيام سبتمبر؛ فقد طلاها بحيث تتمشى مع لون "شمندوراته" المخططة باللونين الأسود والأبيض فى وقت كان قد غير فيه اسمها من "كورمورانت" إلى ريفرجوردان (نهر الأردن)، هذا التغير الذى جاء فى أعقاب اعتناقه لمذهب جماعة دينية صغيرة تتخذ لنفسها مركزاً عند رأس نهر تيدال وعماده فى المياه المرة هناك - كان مثار تندر جيرانه ومزاحهم البرىء، فإذا لم يكن حاضراً بينهم، أوسعوا طريقته الجديدة فى الحياة وعقيدته الجديدة نقداً أقل رأفة وشفقة ولو أنهم أجمعوا على أن الفضل فى إعادة تسمية قاربه يرجع إلى زوجه أكثر منه .

وكان دانيل ثيرستون مريضاً فى بيته الأحمر الصغير. وكان هذا البيت المقلقل يقوم على جزء من الطوار "الإفريز" فى قطعة أرض جرداء

تقع فى منتصف رأس هرنج الذى لا يزيد طوله على ميلين. ومن ثم لم يكن فى وسعه أن يرسى بقوارب صيده الصغيرة كما اعتاد أن يفعل. وكان دائمًا يقف بمقامته المديدة، وقد انحنى عند مؤخرة قاربه الذى لم يكن يزيد حجمه كثيراً عن زورق التجديف، وكان يقف دائمًا ليجدف فى زورقه ويدفعه نحو الشاطئ بضربات طويلة من مجدافيه .

ومنذ أن استولى الدائنون الضجرون فى شركة التصدير – التى تتخذ لها مقراً ناحية الشرق – على قاربه الأكبر ومن قبل على شباك صيده فقد أخذ الآن يلقى بشباكه الصغيرة ذات العائمات البرتقالية على مسافة أكثر قربًا من الشاطئ، خلافًا لما كان يفعل أقرانه من الصيادين. وقلما غامر بقاربه خارج منطقة الصخور القائمة عند رأس هرنج. لقد افتقدت لوسى شكله المألوف وهو يقف فى مكانه العتاد، وقد انحنى بهيكله فوق قاربه، لا يكاد تبين من قسماته شىء، يكدح فى مهنة الصيد غير المجزية وإلى جواره كلبه روفر مقعياً عند مقدمة القارب. ومن ثم لم يكن بد من أن نذهب فى عصر ذلك اليوم، وبعد أن ينتهى كل شىء، فى رفقة جويل لعيادته والاطمئنان عليه .

وقد أخذت نورا وسيث بلودجيت مكانه، مقبلين من نهر تيدال الذى ينحدر فى عمق وقوة بين جزيرة شاج والخليج. وكانا قد توغلا فى البحر مسافة بعيدة قبل أن يعدوا قاربهما فى مواجهة المد القادم، خلف القوارب الأخرى. وأمسكت فوراً بالسكان عند المؤخرة وقد كبست قبعة

سيت القديمة المصنوعة من اللباد فوق رأسها. وذكرت لوسى أن سيث لابد جاثم فوق محرك القارب كما اعتاد أن يفعل منذ زمن بعيد. أما آل بلودجيت فلابد أنهم قد خرجوا الآن إلى النهر للصيد بعد أن حزمت نورا أمرها فى نهاية المطاف، على أن تخبر سيث بأنه إذا كان له أن يأخذ برأيها فلن يجد مكانًا للصيد أفضل من النهر. إلا أنهم كانوا أسعد حظا مع جراد البحر، فقد كانت طرحات شباكهم تأتى بكميات لا بأس بها منه، حتى فى المياه القريبة من الخليج رغم أنه لا يمكن الرجم بمكانها. وإذا ما أصبحوا على مقربة من حلقة الأسماك، ألقوا فيها بما صادوا من سمك وهم فى طريق العودة إلى المنزل عبر النهر .

والآن كان فى طوق لوسى أن تسمع أصوات أعمال وجهود هؤلاء الصيادين - الذين يحرثون البحر فى صبر ودأب وإصرار منذ القدم - تتردد أصداؤها الأليفة عبر الهواء الشفيف الصامت، وكان فى طوقها أن تسمع حفيف أعقاب أحذيتهم المصنوعة من المطاط، وصليل الآلات فى عنابر المراكب وفوق أسطحها الضيقة، وحركة الخطاطيف الكبيرة والسلال والبراميل وفخاخ صيد الأسماك وقد جلبوها لإصلاحها، وصليل المراسى وسلاسلها، وتلاطم الزوارق وقوارب الصيد مع الماء وهم يجرونها جنبًا لجنب، ثم انفلات الأحبال واصطكاك المجاديف فى خياتها وضربات المجاديف الرتيبة الماهرة .

لم تكف لوسى عن تأمل روعـة الطقس فى ذلك اليـوم فى عـجب ودهشـة، وهى تسـير الآن بسرعـة فى الطريق المنحدر غـيـر المستـوى، ماضية فى اتجاه المنازل القليلة المتناثرة هنا وهناك نحو المحل. فها هو ذا – خلافًا لكل نبوءة، وخلافًا لمعظم تجارب الناس فى الحياة، وبعد أسبوع من الضباب العالق فى الجو، وقبل الاعتدال الشمسى الذى لا لبس فى مجيئه – يقبل مثل درة نادرة اكتشفت على حين غرة فى قلب منجم حالك السواد. وتفرست فى الأفق الجنوبى بعيداً إلى ما وراء صخور الدوامات والفنار الكبير بحثًا عن جسر منخفض، أبيض مألوف مغلف بالضباب البعيد، لكنها لم تجد شيئًا هناك. فقد التقت السماء بالماء فى خط شفيف الضياء. حتى إن الغراب إذا ما طار وراءه نحو الشرق – على حد قول، سام وباركى – فإن أقرب يابسة يلقاها هى الساحل الإسبانى. وإذا انتقلت ببصرها شمالاً إلى ما خلف الميناء رأت السفح الناتئ الحاد يلتقى بسماء ساكنة كذلك. لا سحب فيها، وكذلك كان الشأن بالنسبة للمرتفعات المليئة بالأحراج عند رأس الخليج غربًا وشرقًا فيما وراء الفتحة الكبيرة المؤدية إلى نهر تيدال وشواطئ جزيرة شاج الطويلة، العزلاء العالية. وامتلأ الجو بطنين الجراد وصفير صراصير الليل التى حلت محل زقزقة العصافير التى سكنت أصواتها منذ شهر أو يزيد .

ولكن لوسى ما لبثت أن ابتهجت حين رأت بعض الطيور المهاجرة وهى تهرول فى دغل من أشجار البندق البرى قبل وصولها إلى طلائع المنازل القائمة عند الخليج .

وكانت هذه المنازل الصغيرة لا نمط لها، فإحداها كان مبنى مدرسة وقت أن كانت المنطقة آهلة بالسكان إلى الحد الذى يجعلها تتكفل بإقامة مدرسة. وقال بعض الناس إن منزلاً آخر كان يأوى إليه أحد وقادى السفن. ومنزلاً ثالثًا قالت الشائعات إنه كان كنيسة. وفيما يتعلق بهذا المنزل كان فى الإمكان أن يحل الاعتقاد مكان الشائعات مادامت قاعدة برج جرس من أجراس الكنائس كانت تقوم فوق قمة السقف فى وضوح وجلاء. أما المنازل الثلاثة أو الأربعة الأخرى التى لم تكن واضحة المعالم، فكانت لا تختلف اختلافًا كبيرًا إلا من حيث الحجم عن أكواخ الصيد. التى كانت تقوم عبر الطريق والتى كان الصيادون يضعون فيها شباكهم خلال شهور الشتاء. ولم يجدد بناء أى منها أو يبن على أساس بناء له شكله وأبعاده المميزة على الإطلاق. وإنما كان كل واحد من هذه المنازل مجرد مأوى يلوذ به الصيادون المكدودون بعد عودتهم من الصيد ولزوجاتهم اللائى كن يقبلن للسهر على راحتهم وقضاء حوائجهم. لكنها كانت نظيفة إلى أقصى حدود النظافة سواء من الداخل أو من الخارج. وكانت ذات حدائق مسورة بأحجار من ذلك النوع الذى يوجد عند الشاطئ، ومزدانة بالأزهار النضرة الحولية التى

كانت تضفى على سقوفها وجوانبها الخشبية الحائلة أو الخضراء القاتمة، ومداخنها الضيقة، وأسطحها غير المتناسقة، شيئًا من البهجة الناضرة .

وقد تناثرت هنا وهناك أعلى هذه المستعمرة الفقيرة، وفى مساحات ضيقة على المنحدر الشمالي من التل، ستة مساكن أصغر حجمًا . وأشبه شيء بالأكواخ، مغطاة بأكوام من قرميد الاسبستوس، أو الورق المكسو بطبقات ثقيلة من القار، أو بقطع من ألواح الصفيح لا تآلف فيما بينها . وقد شيدها أصحابها من الصيادين فى سويعات فراغهم قبل خروج قواربهم إلى مياه الميناء فى الربيع حينما يكونون قد فرغوا من صنع شباكهم الجديدة، وكان ثمة وقت لمثل هذه الشواغل. وكانت هذه المساكن تشغل خلال أشهر الصيف بين الحين والحين بالقادمين لقضاء يومى السبت والأحد جريًا وراء صيد سمك "البولوك" – وهو نوع من السمك يشق على الصيد بالنظر إلى خفته فى الحركة ولو أنه لا يصلح إلا مجففًا، ومع ذلك فهو ليس مرغوبًا فيه. وعلى أية حال فكلا الرجال وسمك البولوك لهما منافعهما، وعلى الأخص فى تلك الفصول التى يندر فيها جراد البحر والرنجة. وذلك أن الصياد الذى يمتلك قاربًا طيب الإعداد يستطيع أن يحقق ربحًا نظير الخروج بقاربه مع هؤلاء الرجال إلى عرض البحر يقدر بعشرين دولارًا فى اليوم. وفى بعض الأحيان حينما يغشى سمك الرنجة الشباك ويكثر صيده ويغص الخليج بالقوارب

الكبيرة التى تأتى لشراء السمك أو وزنه، فقد كان ثمة احتمال بأن يوجد بعض الأغراب وسط بحارتها على استعداد لأن يدفعوا لصيادى الناحية أجرًا مجزيًا نظير السماح لهم بأن يريحوا أجسادهم المتعبة بضع ساعات فوق أسرة نظيفة، فرارًا من قمراتهم القذرة التى تزكم رائحتها الأنوف .

وفى أسفل هذه الأكواخ مباشرة وعبر الطريق الضيق الممتد من مساكن القرية يقع الشاطئ الذى يصطف وراءه عدد من مخازن السمك وأكوام الفخاخ المنصوبة لاصطياد جراد البحر وفيما بينهما عدد من العائمات. واندفع المد العالى القوى من عرض البحر الذى اندفعت أمواجه تسحق الصخور المدببة المنتشرة عند رأس الخليج وتلاطم الجانب البعيد من جزيرة شاج. وكانت هذه الأمواج قد أكلت شاطئ الخليج وأحالته إلى حوض عميق مقعر يبلغ اتساعه قرابة نصف الميل. وهنا، وقبل أن يبدأ الحصى والحصباء، بزغت من روابىَ التربة الصلبة الممتدة أمام مخازن السمك حشائش وأعشاب وأزهار بحرية، بعضها ذو لون قرمزى، وبعضها هش باهت. ثم تتدرج طبقات الحصى والحصباء فى حدة نحو الأحجار الصغيرة المتناثرة على الشواطئ والمكسوة بالأعشاب الطحلبية المتحللة الكثيفة، ثم تنخسف هذه الأحجار فى منبسطات الرمال والطين التى إذا ما انحسر المد عنها خلف فيها ما يشبه البرك ذات المياه الضحلة انقضت طيور النورس على قواقع

"أم الخلول" أو الأحجام الصغيرة من "أبو جلمبو" ووقفت فيها طيور البلشون وانعكست عليها ظلال طيور البحر وهى تخطر فى حركة رفرافة على شكل أنصاف دوائر. وكان الشاطئ مكانًا ينقصه الاتساق، فقد تخلى عنه أهله وانصرفوا للكد والكدح، تشهد على ذلك القوارب وزوارق الصيد من مختلف الأنواع العائمة الآن فى حرية وانطلاق رغم أنها تطمر أو تغرس مرتين فى كل أربع وعشرين ساعة فى الطين والنشع، ومع ذلك فقد كان له سحره، وعلى الأخص فى مثل هذا اليوم المعجز .

ولقد بدت منازل الخليج فى عينى لوسى نورتون وهى تمشى بجوار بيت آل ستيفينسن الذى خلا من أصحابه منذ كانت حنة ستيفنسن ترعى المحل لها وتشرف عليه، وكان بنجامين فى هذه اللحظة يمشى متثاقلا فوق الشاطئ وقد ناء بحمله من العدد وبجوار منزل آل بلودجيت المهجور أيضًا – بدت لها هذه المنازل لا هى بالكريهة ولا هى بالقبيحة. ولم يكن لديها من التجارب شىء يمنحها أية أسس للمقارنة فيما يتعلق بالخط أو الشكل أو اللون. كانت مجرد منازل يعيش فيها القوم الذين عرفتهم معظم سنى حياتها والذين كانت تخشاهم فى بعض الأوقات وتشفق عليهم حينًا وتعجب بهم أو يصيبها القلق من أجلهم حينًا آخر، ولكنها كانت دائمًا أبدًا تحبهم. وبدلاً من ذلك كانت تفكر فى الصورة البهيجة التى بدت عليها الأزهار فى أحواضها وجمال الفكرة التى جعلت

كارلتون صوير يعيد طلاء العائمات "الشمندورات" بذلك اللون الأزرق الزاهي. وهى طلاء منزل آل ستيفنسن باللونين الأسود والأبيض ومنزل آل بلودجيت باللون الأخضر الداكن، وتلاطم الموج الأزرق مع مخزن أسماكه، يضفى حياة على الأشياء، تماماً مثلما أضفى عليها منزل سام باركر الأحمر اللون .

واستمر بها العجب وامتلأ قلبها دهشة من ذلك اليوم وهى تحاول أن تكتشف فى عقلها كيف أعادت تلك الساعات المشمسة الساكنة الريح، الخليج إلى أهله مرة ثانية، أهله الذين ينتزعون رزقهم منه ومن مياهه الخارجية. وفى أخريات الخريف، وفى الشتاء، وفى وقفة قلب من وقفات الربيع، كانت تأتى أيام، بل وأسابيع، كان يبدو فيها الخليج وكأنه انتزع انتزاعاً من الناس ودنياهم، أو كأنه لا ينتمى إلى أى كائن حى، وإنما للرياح والبرد والضباب والمد والجزر. لقد استردته هذه القوى الجبارة لنفسها وهى تسخر هازئة من السويعات التي يغتنمها الإنسان، ويقترض فيها الخليج منها. وهكذا فأنت كلما حاولت – خلال فصول الضياع الطويلة هذه – أن تسترده، ربما استطعت ذلك من خلال رؤية الظلال السوداء الدقيقة للعصافير العائدة إلى أعشاشها مخترقة الضباب الأبيض، أو من ملاحظة حلقات الدخان الأزرق وهى تتصاعد ذات صبح صاف من خيمة سمك على نهر تيدال المتجمد. وإنك لستطيع حتى فى هذه الآونة أن تسعد بلحظة عابرة تتحقق لك فيها

الملكية وسط جو قاتم تسيطر عليه فكرة وحيدة، هي أنك لا تملك شيئًا على الإطلاق، وأنك مجرد هباء في خضم خليج من العدم .

- ٩ -

كانت ماري صوير واقفة عبر الطريق الممتد من أمام بيتها وسط عائمات شباك صيد جراد البحر. كانت تطليها في عجلة، وحينما كانت تفرغ من طلاء واحدة، فإنها كانت تسندها إما على مصراع الباب الغائر لمخزن السمك، وإما على بعض قشور السمك، وإما على بعض الصخور المناسبة. وكانت فتاة طويلة القامة في أواخر الحلقة الثانية من العمر وذات عينين واسعتين زرقاوين وفم كبير. وكانت ترتدي ثوبًا من القطن الباهت اللون ومعطفًا قصيرًا أحمر قديمًا كان يستعمله زوجها . وكلاهما مرقش ببقع الطلاء .

قالت ماري :

- لقد أوقعت نفسي في ورطة كبيرة يا لوسي. ولكنه نوع من اللهو في يوم كهذا على أية حال .

قالت لوسي :

- إنها جميلة. وأنا نفسي كنت أوثر دائمًا هذا اللون الأزرق. ومن كثرة ما كان ببالي من مشاغل الأمس لم ألحظها قط .

– لم تكن هنا أمس. فلم أبدأ طلاءها إلا صباح اليوم. لقد أعددتها مفاجأة لكارلتون. ولابد أنه سيتميز غيظًا، ولكننى سئمت هذه الأشياء القديمة الصفراء الكالحة .

ثم وضعت الفرشاة ووعاء الطلاء فوق حافة صارية غير مستوية، ودفعت شعرها الأشقر القصير بحركة سريعة من داخل ذراعها وتساءلت :

– كيف تبدو السيدة هولت العجوز يا لوسى ؟

قالت لوسى :

– رائعة. إنها تبدو فى أوج بهائها .

– وماذا ترتدى ؟

– حلتها السوداء، وذلك الخمار الأبيض، وقد لف حول عنقها. لقد غسلته لها بالأمس حتى صار ناصع البياض .

إنها تبدو غاية فى البهاء والجدة .

قالت مارى :

– ما أشد سرورى بهذا وبالطقس اليوم أيضًا. لقد ظل كارلتون طيلة العشاء أمس يقول إنه لا يدرى كيف يدبر الأمور على النحو الذى

أرادته فى مثل هذا الضباب الكثيف. وحينما استيقظنا هذا الصباح لم يستطيع أن يصدق عينيه، ولا أن يصدق النشرة الجوية المذاعة من الراديو .

قالت لوسى :

– إن رجال الأرصاد الجوية لا يدرون شيئًا من أحوالنا هنا فى هذا المكان. أتعرفين أين ذهب الأطفال ؟ كان يجب أن يعودوا الآن ومعهم أزهارهم .

– لقد خرجوا إلى رأس الخليج منذ ساعتين. وقالت ابنة راندال الصغيرة: إنه توجد بعض أزهار السوسن الحمراء فى مستنقع يقع وراء مبنى دان ثيرستون. ولم أكن أعرف أن أزهار السوسن تزهر فى مثل هذا الوقت المتأخر ولكنها قالت إنها رأتها وإنها عازمة على الحصول عليها. إنها مولعة بالتجوال بمفردها. والواقع أننى لم أكن أروم أن يمضى طفلاى معها إلى مثل هذا المكان البعيد، ولكننى لم أستطع أن أقول لا ، والحال كما وصفت، والأطفال بهم رغبة جامحة للخروج . لست أعتقد أن ابنة ويست كان لديها ما تعترض به على ذهاب ابنتها الصغيرة، ولكن حنة كانت مضطربة للغاية، فهى لم تكن تريد لأحفادها أن يذهبوا إلى هناك أصلاً .

قالت لوسى :

– إن خروجهم لن يصيبهم بأدنى أذى. ولقد قلت لثاديوس : إننى وضعت بعض قطع الفخار والدلاء "الجرادل" عند العتبة الخلفية للمنزل من أجل الأزهار .

– وهل ثاديوس على ما يرام ؟

– أجل إنه فى أسعد حالاته .

قالت مارى صوير:

– حسنًا .

– لابد أن أمضى الآن. لقد كنت أفكر منذ ساعة فى أننى لن أتمكن من الانتهاء من شواغل البيت فى حينها . ولكن هذا اليوم الصحو يبدو أنه هدأ من روعى ولم أعد أشعر بالحيرة أو الارتباك .

– أدرك ما تقولين. ولهذا فقد طليت العائمات "الشمندورات" ومن دأبى أن أدع الأمور تجرى فى أعنتها فى المنزل، ثم أخرج فى وقت مبكر للاستمتاع بدفء الشمس. فليس لدينا أمل فى أن يستمر هذا الصحو بضعة أيام أخر .

قالت لوسى :

- إن الطقس فى شهر أكتوبر رائع دائمًا .

ثم مدت مارى صوير يدها إلى فرشاة الألوان وقالت فى هدوء :

- لكن شهر أكتوبر يغدو بشعًا كلما اقترب الشتاء .

- ١٠ -

حينما بلغت لوسى المحل الذى كان يقوم عند نهاية صف من المنازل وبضعة قضبان وراء آخرها، وجدت حنة ستيفنز تنتظر مقدمها عند عتبة البيت الأمامية. وكانت حنة امرأة نحيلة واهنة يبدو عليها الهزال وسوء التغذية. وكان جويل نورتون يقول فى بعض الأحيان فى شطحة من شطحات الخيال الغريبة عليه إنه كثيراً ما تملكه العجب من أمر حنة حتى ليتصور أن حنة قد ضاقت الأرض عن أن توفر لها مكانًا، فضمرت لتضمن لنفسها شبراً تعيش فيه .

وعجبت لوسى هى الأخرى من نفس الشىء، فقد كان من الواضح أن حنة تعانى اضطرابًا. فعشاء زوجها ربما تأخر عن الموعد الذى يود أن يقدم إليه فيه. ومن ناحية أخرى كان يساورها القلق بسبب تغيب أحفادها خارج المنزل فى جهة لا تعلمها، وكانوا يقضون معها أسبوعين

أمضتهما فى جو من القلق. ومع ذلك فقد نحت فى إرادة وتصميم هذه الشواغل جانبًا مع غيرها مما هو أكثر تكديرًا، وقامت بتصفية التزاماتها وإخلاء ذمتها تجاه لوسى .

قالت حنة :

– لم تجر حركة بيع تذكر فى الحانوت اليوم. وكل ما هنالك أن بعضًا من صيادى المحار الذاهبين إلى خليج مكاريل اشتروا ثلاث زجاجات من الفراولة بالصودا مقابل ثلاثين سنتيما، واشترت ابنة ويست رغيفًا من الخبز وعلبتين من السجائر بتسعة وأربعين سنتيما قيدت عليها . وقد تركت لك حصيلة البيع فوق الطاولة مع ورقة دونت عليها بيانًا به . آه . نسيت أن أذكر لك أن الطفلة راندال. اشترت بعض مصاصات العرقسوس بعشرة سنتيمات لها، وللأطفال قبل أن يشرعوا فى التجوال فى أنحاء رأس الخليج. والحق يقال لقد نقدتنى الفتاة ثمن ما اشترت وما اشترى الأطفال .

– أرجو أن تكونى قد أعطيتها اثنتى عشرة مصاصة لقاء السنتيمات العشرة التى دفعتها . فنحن ندفع دائمًا ما قيمته ستة سنتيمات لكل خمسة سنتيمات. وهم ستة أطفال كما تعلمين .

– لا لم أفعل ذلك. بل أعطيتها عشر عصى مقابل عشرة سنتيمات .

قالت لوسى :

- أسفة إنها صبية طيبة .

وبدا الامتعاض على حنة وقالت :

- حسنًا إننا بلاد الحرية، أو هكذا يقولون على الأقل. ولكل شخص الحق فى الإعراب عن آرائه. ولكن أحفادى قد أحسنت تربيتهم. وأنا جد حريصة على ألا تسوء أخلاقهم حينما يأتون للمقام عندى. ولولا الجنازة لذهبت توًا إلى بيتى وأخلدت إلى الراحة .

قالت لوسى :

- لن يخلد أحد إلى الراحة اليوم. فالجنازة جنازة الجميع، حتى الأطفال .

وسكتت حنة عن الكلام لحظة، تذكرت لوسى خلالها مصباحًا "فانوسًا" سحريًا شاهدته ذات مرة وهى طفلة، وكيف بدا يلقى مربعًا أسود اللون فوق ستارة بيضاء، وكيف امتلأ المربع فجأة بصورة زاهية بعد أن وضع الرجل الذى يديره لوحة وراءه .

قالت حنة :

- صنعت كعكة صباح اليوم لكى تكون جاهزة، إذ ربما احتجت إلى شىء إضافى تقدمينه للرجال عند عودتهم من جزيرة شاج .

صنعتها لأنى كنت على علم بأنك لن تجدى فسحة من الوقت لتخبزى شيئًا .

قالت لوسى :

– شكرًا لك على اهتمامك يا حنة، فهذا تفكير طيب منك .

ثم ارتقت الدرجات الثلاث المؤدية إلى عتبة الباب. وغاصت الصورة البراقة من فوق الستارة وعاد المربع الأسود مرة أخرى إلى مخيلتها .

– وكيف حال ثاديوس ؟

– فى خير حال . وهو أحسن الآن بكثير مما كان منذ يومين مضيًا .

قالت حنة :

أرجو ذلك .

ثم حملت سلتها ذات الكرات المجدولة من القنب السميك والتى تستعمل عادة ليوضع فيها شص السمك، بما فيها من أدوات الرتق والتطرين، وشرعت تهبط الدرجات المفضية إلى الباب .

– هل تعتقدين أن ڤان هولت سوف يكون لديها الشجاعة للمجىء وهى اليوم فى عطلة من المدرسة ؟

قالت لوسى :

- لست أدرى شيئًا عن هذا .

ومضت إلى الحانوت خلف المنضدة "الطاولة" القائمة عند اليسار، متجهة إلى مقعدها المألوف ذى الظهر المستقيم. بقوة العادة وضعت الأربعين السنتيم وربع الدولار والقطعة الفضية ذات السنتيمات العشرة والقطعة ذات السنتيمات الخمسة التى تركتها حنة فوق المنضدة - فى صندوق النقدية، ثم أغلقته، ثم أخفت المفتاح خلف بعض علب الصابون الموضوعة على الرف .

وجلست فى مقعدها . ومن خلال النافذة الأمامية الكبيرة كانت تستطيع أن ترى المد وهو يزحف فوق الرمال، مكتسحًا الحصى والحصباء المتناثرة فوق الشاطئ. أما زوارق الصيد فكانت مربوطة فى مراسيها تتأرجح فوق الأمواج .

أما القوارب الأخرى فكانت راسية بالقرب من الشاطئ وبدت الدعائم السوداء التى تدلت منها شباك الصيد السمراء واضحة المعالم. وعند سفح التل القائم عند رأس الخليج العظيم رأت الأطفال مقبلين ومعهم ورودهم واستبانت من بعض بقع ذات لون أحمر كانت تخضب الباقات التى حملوها معهم أنهم عثروا بالفعل على أزهار السوسن فى المستنقع فى هذا الوقت المتأخر من السنة .

ومن فوق الرف العالى الواقع خلف المخزن كانت الساعة التى ظلت موضوعة فى مطبخ أمها أيام الطفولة – تعلن لها أن الوقت قد تجاوز الظهر بكثير. وكان عليها أن تقوم بأعمال كثيرة، ولم يكن الوقت الباقى حتى يحين موعد خروجها إلى جنازة سارة هولت بكاف لأن تؤديها كلها، ولكنها فى تلك اللحظة وهى جالسة حيث هى، لم يكن فى طوقها أن تتذكر وحتى لو ظلت تقدح ذهنها إلى آخر الدهر ما الذى عليها أن تبدأ بعمله .

الجزء الثانى

الجـــيران

صامويل باركر

- ١ -

استيقظ صامويل باركر مبكرًا على غير العادة يوم جنازة سارة هولت. وكان فى حاجة إلى التبكير بالخروج قبل أن يبدأ المد المتراجع إلى الاندفاع بأقصى قوته فى مصب نهر تيدال، فيشقليه اختراق، الضباب حينما ينحدر الرأس الجنوبى للجزيرة، وكان يتوغل فى البحر مسافة ثلاثة أميال من أجل ذلك؛ لأن شباكه كانت أقرب إلى حافاتها الخارجية هناك. أما اليوم - ولديه من الأمور ما يحتاج إلى تصريف وتدبير غير مجرد طرح هذه الشباك والصيد والطريق الطويل الذى كان عليه أن يسلكه - فقد كان من الحكمة أن يسرع بإنجازها كسبًا للوقت .

وحينما فتح الباب الأمامى لمنزله الذى كان يقع بين منزل دروزيللا ويست إلى اليسار والدكان إلى اليمين، ثم خرج ليرقب الطقس كما اعتاد أن يفعل، حسب أنه انتقل إلى كوكب آخر فى أثناء نومه. وتوقع

أن يلقى نفس الضباب الكثيف الذى ظل يثير أعصابهم طوال أسبوع، ويؤخر عودتهم إلى بيوتهم ثلاث ساعات، مستخدمين البوصلات البحرية للاستدلال على الطريق . وتوقع نفس الريح الجنوبية الغربية وهى تشتد طوال النهار، مغيرة اتجاهها فجأة لتكتسح الناحية بأسرها. لكنه لم يلق ريحًا. فقد سكنت فى مكان ما من الساحل فى أثناء الليل. بل ولم يكن ثمة بادرة لضباب. فالجو صاف وجاف، والأنجم تتلألأ فى كبد السماء. وعرف وهو يحملق فى ظلمة الليل أنه ما إن ينبلج الفجر، حتى يهدأ البحر حتى الأفق البعيد، وحين ينتهى من تثبيت شباكه فى قوائمها يكون الفنار الشامخ القائم وراء الصخرة على مسافة قريبة منه فيما يبدو، حتى ليكاد يلمسه بيديه. وراح يحدث نفسه وهو يعود إلى الداخل لكى يشعل موقد النفط ويسخن الماء لحلاقة ذقنه وإعداد قهوته – لن تكف العجائب عن الحدوث فى هذا الساحل .

كان رجلاً رزينًا حذرًا، ولم تزده الأيام إلا حيطة وتدبيرًا ونظامًا. وفى كلمة : إنه رجل يقدر لرجله قبل الخطو موضعها. وكانت حجرات بيته الثلاث نظيفة ومرتبة.: غرفة نوم صغيرة على يمين الباب الأمامى، وغرفة الجلوس فى مواجهتها وبها موقد محكم وصندوق نظيف لخشب الوقود، ثم بعض كتب قليلة ومنضدة كان يجلس إليها ليتسلى فى بعض الأمسيات يلعب لعبة الكلمات المتقاطعة حينما يكون وحيداً. أما مطبخه فكان يقع فى خلف المنزل. وقد قسمه فى خياله على الأقل إلى قسمين

متمايزين : أحدهما حيث يطهى طعامه ويتناول وجباته ويغسل صحافه، والآخر جعل منه شبه ورشة صغيرة وضع فى وسطها منضدة "طاولة" وبعض علب الطلاء فوق بعض الرفوف، وقد تدلت العدد فوق جدرانها . هنا فى الشتاء عندما يرفع قاربه ويطوى شراعه ويأخذ فى إعداد شباكه للصيد، كان يهذب قطع الخشب ويصنع منها "شمندورات" لجراد البحر ثم يطليها بألوان زاهية، بل إنه كان يعنى بتخطيطها وثقبها وصنع ثقوب دقيقة فيها، ويصنع شباكًا صغيرة وسلالا لصيد المحار وقوارب وزوارق صغيرة. وكان بعض الأحيان يصنع نماذج للسفن، كاملة الأشرعة والعتاد. ولقد وجد سوقًا رائجة لهذه المبتكرات لدى الزوار العابرين الذين كانوا يرتادون الناحية بحثًا عن مكان للنزهة وفى محلين أو ثلاثة من تلك المحال التى تعمر بها المدن الساحلية، والتى كان يذهب إليها بمصنوعاته محمولة على عربة جويل نورتون فى فترات متقطعة خلال فصل الشتاء. وكان آل نورتون يعرضونها له فى حانوتهم. ولم يكن فى الواقع يسمح قط أن تؤثر أدوات الصيد الخاصة به فى حسن نظام ورشته أو مطبخه، فقد بنى لها حظيرة خلف المنزل، وضع فيها أحذيته الطويلة ومعاطفه وستراته وملابسه المصنوعة من القماش الذى لا ينفذ منه الماء، ومصابيحه ومختلف معدات الصيد الأخرى وحبال الأشرعة .

وكان من عادته أن يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ، وهو يجول بالمنزل، أو حين يكون بمفرده فى قارب. ولما كانت هذه النزوة لا تضايق

أحداً، وكانت تمنحه الشعور بالألفة واللذة، فلم يجد سبباً يدعوه إلى تركها. وإذ اعتاد أن يسمع صوت نفسه، فإنه كثيراً ما كان يلجأ إلى القراءة وحده بصوت عالٍ، ويطرب لموسيقى الكلمات والجمل. وليس ثمة شك فى أن هذه التسليات ولعبة الكلمات التى كان مولعًا بها، هما اللتان جعلتا لسانه فصيحًا ونطقه سليماً، الأمر الذى لم يكن متوافراً لرجال من ذوى مهنته ونشأته .

وها هو ذا الآن يناجى نفسه، وهو يضع بيضتين فى آنية فوق النار فيقول : "لو كنت ممن يؤمنون بالخرافات، لكنت أميل إلى الظن بأن هذا اليوم ما خلق إلا للسيدة هولت العجوز" .

وفى بطء راح يتناول طعام فطوره الذى كان يتألف من بيضتين مسلوقتين وبعض البسكويت الساخن، الذى صنعته له لوسى نورتون ليتعشى به فى الليلة السابقة حينما عاد مع رفاقه متأخرين بسبب الضباب ثم بعض القهوة الساخنة المحلاة بالحليب الدسم. وغسل صحافه قبل أن يخرج لإشعال مصباحه على الرغم من أن الفجر كان قد أوشك أن يطلع، ثم ارتدى ملابس الصيد واتجه إلى الشاطئ وكان قاربه يتأرجح عند مرساه فوق الماء. وفى بضع دقائق كان قد اعتلاه وأرخى السلاسل التى كانت تشده إلى الشاطئ. وفى هوادة ودون جلبة اتجه به شرقًا من خلال قناة نهر تيدال إلى الأفاريز الصخرية التى كانت تميز جزيرة شاج ... وما إن ابتعد عن هذه الصخور وأصبح فى عرض

البحر عند الجانب البعيد من الجزيرة، حتى علق مصباحه فى قمرته المهندمة وأشعل غليونه واتخذ مكانه وراء عجلة القيادة .

وكان البحر ساكنًا سكونًا غريبًا. وكان فى العادة إذا ما ظلت الريح تعصف يومين أو ثلاث أيام ألا تسكن مياه البحر فجأة، بل تظل هائجة بضع ساعات أخرى، وعلى الأخص فى هذه المياه العميقة التى تقترب به من المحيط .

وراح يناجى نفسه والغليون فى فمه، ومكنة القارب تهدر، والأشجار الدائمة الخضرة تبدو سامقة وسط الجزيرة التى احتواها الظلام .

"مرة أخرى، وكما قلت من قبل، لو كنت ممن يؤمنون بالخرافات".

وكانت شواطئ جزيرة شاج الشرقية تمتلئ حتى نصفها البالغ ثلاثة أميال بالمرتفعات والغابات الكثيفة. ومهما يكن من أمر المراعى والحقول التى كانت تعج بها يومًا، مثل تلك التى ما زالت ترى عند منحدراتها القريبة، فقد طغت عليها الأشجار فى غير هوادة وحلت محلها. فمن وسط الجزيرة زحفت الأشجار فى عناد وإصرار حتى بلغت أطرافها وأخفتها عن الأنظار، متجهة إلى الصخور والأحجار القائمة عند حافة الماء، وحتى فى هذه الصخور وجدت لها مكانًا فنمت وترعرعت، وصنعت ما يشبه الحائط أو سور القلعة الذى يحجب ما وراءها عن الأنظار. ومن بين هذه الأحراج الكثيفة يحدث أن تذوى

واحدة من هذه الأشجار وتموت بسبب افتقادها للضوء أو لفرجة تبزغ منها، وعند ذاك ينجسر هذا اللون الأخضر الداكن ويتحول إلى لون الصدأ أو اللون الرمادى الفضى الذى تتميز به هياكل الطحالب المعلقة .

وكان القارب "لوسى آند جويل" يخوض الماء فى تكاسل على مبعدة من الشاطئ. أما وقد تجاوز حركة المد فلم يعد فى حاجة إلى الإسراع. ولم تكن الشمس قد طلعت بعد، ولكن علائم الشروق كانت قد بدأت تلوح فى الأفق وأخذت شعاعاتها الأولى تبعث بأنوارها الصفراء الصافية عبر البحر، وتجعل سارية القارب تلقى بظلالها بعيداً عند الشاطئ وتشع فوق حبات الندى المعلقة فى أشجار الشربين فتجعلها تتلألأ كما تتلألأ البللورات المنشورية وتتوهج فى سناها "شمندورات" شباك صيد الجراد بلونها الأحمر الزاهى وهى تطفو فوق سطح الماء على مبعدة نصف ميل .

- ٢ -

وقبل أن يستوطن سام باركر هذه البقعة من الخليج منذ قرابة عشرين عاماً، كان يتكسب عيشه بعديد من الوسائل التى لم تكن تلائمه أى منها. فقد عمل فى أحواض السفن بالمين واشتغل فى صنع مراكب

لشركات أجنبية وشركات وطنية للملاحة. كما عاون فى تزويد إحدى سفن الصيد الذاهبة إلى بانكس بالرجال وتعلم الأساليب الماكرة فى تعبئة الرنجة فى أحد مصانع باساما كودى. وكان فى وقت من الأوقات يدفع عربة يد وينقل عليها منتجات مصانع شركة ايسترن للسفن البخارية التى كانت فى مطلع شبابه لا تزال تسير سفينتيها "بلفاست، وكامدن" ما بين مينائى بينوبسكوت ومرفأ الأطلسى فى بوسطن. وظل على هذه الحال ينتقل من عمل إلى عمل دون أن يعرف سببًا لعدم استقراره وقلقه، ولكنه كان أميل إلى الشك فى أن ذلك ربما كان راجعًا إلى شدة التصاقه بالناس .

وقد التحق، شأنه فى ذلك شأن غيره من آلاف شباب الساحل والجزر، بالأسطول فى عام ١٩١٧ الذى بعث به إلى منطقة "البحيرات الكبرى" حيث تحس حتى طيور النورس بالضياع، وحيث ماء الجزيرة ليس له من رائحة سوى رائحة القار والزيت. وحتى سترته العسكرية بدت غريبة ولا مكان لها تحت سماواتها اللماعة المترامية الأطراف وبين كثبانها الرملية وشطئانها الخاوية الجرداء. وبعد انتشار وباء الأنفلونزا فى خريف عام ١٩١٨، حين شهد بعينه عدداً كبيراً من الشبان وقد استبد بهم حنين العودة إلى أوطانهم يموتون بعد ساعات قلائل من إصابتهم بالحمى والزُّحار "الدوسنطاريا" ، نبذها طواعية وإلى الأبد، على الرغم من منافاة هذا القرار لأحلامه الباكرة .

وحينما عاود التفكير فيه، كما كان دأبه أن يفعل فى البكور الهادئة التى كانت تساعد فكره على الانطلاق فى بهجة ولطف، أدرك أنه قد اختار أن يرهن مصيره فى هذه البقعة من الأرض ذات الطقس المتقلب بسبب لوسى وجويل نورتون أساسًا. وكانوا كلهم فى شرخ الشباب يعيشون معًا فى جزيرة فى أقصى الطرف الغربى من الخليج، على الرغم من أن لوسى ڤينال - كما كانت تدعى فى ذلك الحين - وجويل، كانا يكبرانه بخمسة أعوام. وكصبى خجول غريب الأطوار أحب لوسى. وقد دام هذا الحب ولكنه فى صورة غير مقلقة ولا مثيرة. وحينما توفى والداه ورحلت أخته الوحيدة إلى كاليفورنيا، وصار وحيداً ولا أقارب له، قرر بعد استطلاع مختلف بيئات الصيد أن يستقر فى هذا الخليج النائى حيث كانت طبيعة الرياح والمد تتطلب كل ما لدى الإنسان من فطنة وذكاء، وحيث مشكلة ازدحام الخليج بالسكان لا وجود لها .

ولم يكن يتصور قط فى تلك الليالى التى كان يقضيها بعيداً عن الشواطئ وقد انحشر فى زمرة غيره من الرجال المنهوكين، المدنسين بالأقذار. لم يكن يتصور وهو يحاول النوم أو يقف فى نوبة حراسة يرقب الأضواء المعتمة الصادرة من قوارب الصيد الأخرى. أو كتل الجليد العائمة، أو عابرات المحيط الضخمة، أنه قد يعرف فى يوم من الأيام الأمن والراحة فى بيت خاص به. وخال نفسه أسعد الناس

وأكثرهم رضا وقناعة. وقد استطاع أن يعيش عيشة مستورة ومحترمة من الصيد، ووجد فى هواية التجارة ما قد يعوضه عن فصل من فصول الصيد المجدبة. ولم يتزوج قط، لا لأنه كان يعيش على ذكرى الحب الأول والوحيد، لكن لأنه كان دائم التردد إزاء صورة حياته مع أى من النساء الخاليات من الموانع اللائى التقى بهن. وإنصافًا للرجال، لابد من القول بأنه كان أكثر ترددًا حين يفكر فى العيش معهن وهو العنيد الذى يؤثر حياة العزلة. وعندما كانت تتشبث به تلك النوازع والرغبات المألوفة للناس جميعًا، فقد كان فى أى من تلك الأحداث التى تتعاقب فى غير هوادة فى هذا البحر الغادر ما يمكن أن يشغله عن حرماته ويعيد إليه هدوءه ويسكن عواطفه .

- ٣ -

كانت الشمس قد لاحت فى الأفق حين بلغ أولى "شمندوراته" الحمراء وشرع يعد شباكه للصيد، فعل ذلك بحركة إيقاعية بطيئة وثابتة، بأسلوب الصياد الماهر المدرب. فقد راح يعدل كلا منها عند مؤخر القارب، ثم يعود فيفرغ من حمولتها من الأسماك وهى تقفز بداخلها، ثم يعود فيلقى بتلك الشباك التى فشلت فى الاستجابة لمقتضيات قضيب القياس القائم عند الجانب العلوى من القارب ثم يضع فيها الشص من جديد ويدفع بها إلى الماء فى يسر ودون أن تحدث صوتًا . وكان صيد

الصباح فوق المعتاد كما لو كان جراد البحر قد ضايقته التيارات التحتية العميقة فتجمع في حشود قلقة تتلوى من الألم بالقرب من حوافى الجزيرة. وما إن انتهى من طرح شباكه حتى أخذ يجمع صيده فى حقيبة، ويلقى بها فى قعر القارب، ثم أخذ يريح جسده المكدود يدفع كتفيه وظهره الواهن إلى الوراء فى حركة التوائية وعاد فأشعل غليونه واستلقى فوق سطح القارب الأمامى وقد سطعت عنده شعاعات الصبح الباكرة، وأخذ يرقب فى اهتمام شاطئ الجزيرة .

وهنا كانت أشجار الشربين أقل كثافة وقوة شكيمة منها فى النصف الشمالى من الجزيرة. وكان فى وسعه أن يرى الضياء وهو يتخللها وأن يلحظ عبر هذا المنبسط من الأرض أجزاء من البحر هنا وهناك عند الطرف الآخر من الجزيرة. وطافت بخياله ذكريات نزهة عابرة خرج فيها لصيد الغزال فى أحد أيام شهر نوفمبر، وتذكر أن مستنقعًا يمتد وراء هذه الأشجار وأن دربًا غير ممهد يتجه منها إلى الشاطئ الغربى حيث كانت تقوم منذ سنوات متعددة مستعمرة تدب فى أوصالها الحركة والنشاط وتعمر بالترسانات وأحواض السفن التى تنحدر نحو المياه العميقة فى خور خارجي. لقد كان يعرف ذلك المكان جيداً، وعلى الأخص منذ أصيل الأمس حين عبر الخليج هو وجويل نورتون وكارلتون صوير، وقد حملوا فئوسهم لكى يحفروا قبر السيدة هولت العجوز فى مدفن الأسرة المهجور منذ زمن طويل هناك. وكانوا

قد قاموا بعملهم هذا وسط ضباب كثيف وانتهوا منه على ضياء مصابيح خابية مسندة، أو موضوعة فوق شواهد القبور القليلة، ثم قفلوا راجعين إلى دورهم وقد بللتهم الرطوبة حتى كادت تهرأ أبدانهم، واستولى عليهم الحزن. وأخذ الآن يدرس جغرافية الجزيرة، لا لشيء سوى أنه بسبب تسلله إلى مصائده من ناحية الشمال بدلاً من الجنوب كان يتحتم عليه أن تكون سبيله إلى المكان مغايرة بالضرورة .

وأخذ يناجي بعض الرياح الشاردة الرخية بقوله :

– ومع ذلك فأنا على ثقة من وجود ذلك المستنقع. وإذا لم أكن مخطئًا فإن الدرب يدنو من نهايته بعد مسيرة نصف ميل في مواجهة تلك الجحور القديمة تماماً .

وعندما انتهى من تدخين "ملوتين" من الطباق، هبط إلى أسفل القارب وخلع خذاءه ثم انتعل بدلاً منه خفًا قديماً، ومن مخزن القارب أخرج فأسه وأخذ يختبر نصلها، ثم جذب المرساة وأدار المحرك، وإذ كان على بينة من أمر المد المتراجع نحو الشاطئ فقد اتجه إلى داخل البحر حيث المياه أكثر عمقًا. وبعد بضع دقائق كان قد نزل إلى قاربه، ثم راح يجدف نحو الأفاريز الحمراء التي تكشفت عند قاعدتها عن شريط من الشاطئ يلوذ به .

لقـد صـدق حـدسـه فـيـمـا يتـعلق بالمسـتنقع.ولو أنه كان غـاصـًا بأشـجـار الحـور وآكـام السـرخس وأوراق "الأيريس" المتـشـابكة، إلا أنه لم يخـرج عن كـونه مـسـتنقـعًـا . وحين توغـل فـيـه بحـثًـا عن مـواطئ أفـضل لقـدمـيه صـاحت طيـور النورس فـوق رأسـه وقد أثارهـا اقتـحـامـه لعزلتـهـا، وفـجـأة اندفـع من عـشـه غـيـر المهـندم طائر من آكل السـمك وانطلق فى الهواء فـوق قـمـة شجـرة ضـخـمـة مـيـتـة عـتـيقـة. وغـاص إلى ركـبـتـيه فى الطحـالب السـوداء حتى عثر آخر الأمور على درب مكسو بالخضـرة يدور مـصـعـداً خلال أحـراج من أشجـار الحـور وأشـجـار التـوت البـرى وغيـرهـا. وقبل أن يظهر فوقه ألقى نظرة إلى المستنقع وقال :

– لابد أن نـبـات الأيريس يبـدو جـمـيـل المنظر فـى الربيع. يجب أن أصطحب لوسى يومًا إلى هذا المكان لتراه .

وتطلع إلى الشـمس فعرف أن السـاعة قد اقتربت من الثـامنة، حين أخذ يغادر الطريق المعتم المعوج وبلغ الكهوف التى أنقذتها الريح العاتية القـادمـة من اليم والتى تلاطم أمـواجـه ذروة الجـزيرة وتهـز الأشـجـار السـامـقـة هزًا عنيفًـا – أنقذتـهـا من الاندثار الشـامل الذى لحق بما كـان يقوم فوقها من منازل .

وعلى مـسـافـة مـا يقرب من مـائة ياردة تحـتـه كـان يقـوم وسط ركم الأشـجـار الكثـيف سـور يحـيط بأرض المـدافن ويكـاد يخـتـفى وسطهـا. وكان فى وسـعه أن يرى عندمـا ازداد قربًا منها علائم العمل الذى تم فى

الليلة السابقة وكومة التراب الصخرى الأسمر المتخلف عن حفر المقبرة والمعاول وهى مشرعة من داخلها. لقد أرسوا قواربهم عند بعض الأعمدة السوداء، وهى الآثار الباقية من "الأرصفة". وما إن بلغوا الشاطئ حتى شقوا طريقهم مصعدين عبر الأخشاب الزلقة المنحدرة، المغطاة بالنشع والطين، والمطمورة فى الحصى والحصباء. وكان من العسير الاعتقاد بأن السفن الضخمة قد انزلقت فوقها يوماً إلى البحر، فى حين وقف أهالى جزيرة شاج يرفعونها فى بهجة وانشراح. وراح يسائل نفسه فى دهشة : هل دوت طلقة مدفع كإشارة تنبيه وإنذار عندما أطيح بجذور الأشجار، وبدأت سفينة تنحدر مسرعة وسط سحابة من الغبار وشظايا الشجر فى طريقها إلى البحر تجوب أطراف الأرض .

وقال – وهو يقترب من السياج الحديدى :

– لقد كان من عادتهم أن يحتفلوا بإنزال السفينة إلى البحر ويدشنونها بطلقة مدفع. ومع ذلك فإنه ليشق على المرء أن يتصور وجود مدفع هنا فوق الجزيرة، ولا أستطيع أن أذكر الآن أنها حدثتنى عن شىء كهذا. ولكنى واثق من أن مدفعًا لابد كان موجوداً .

ثم شرع يخلى أرض المدفن من جذوع الأشجار المتكاثفة فوقه وأخذ يعمل فيه بيديه ومعوله وأخذ يلقى بالأعشاب الطويلة السمراء والعليق الناشف والشجيرات خلف قضبان السياج الحديدى. كان هناك

خمسة من شواهد القبور الحجرية، وكان أكبرها يحمل تاريخ عام ١٨٥٢ لا يزال منتصباً . أما الأربعة البواقى فكانت إما مائلة وإما ملقاة فوق العشب المهمل الميت. وأراد أن يرفع واحداً منها على الأقل، ويسنده بصخور كبيرة. ولكنه لم يستطع أن يفعل هذا بيديه المجردتين وحدهما . وإنما كان يكفيه أن يزيحها جميعًا وأن يهذب الأرض ذاتها ويسويها .

وحينما انتهى من هذا العمل على نحو يرضى غريزته فى التنسيق، جلس فوق العقود المصنوعة من الجرانيت السمراء المحيطة بالمقابر والتى كان السياج الحديدى قد وضع فيها ذات يوم بعناية. وفحص قاعدة عدد منها وشهد كيف أنها مازالت ثابتة راسخة. وقال فى إعجاب هادئ :

- إن الرجل الذى صنعها قد أتقن عمله .

وكانت الشمس قد صعدت إلى كبد السماء، وقد مالت قليلاً فى مدارها الخريفى الضيق. واهتز الهواء الساكن بين الأشجار مردداً أصوات الألوف المؤلفة من حشرات لا تبصرها العين. واندفع سرب من طيور الكروان الأسمر فوق رأسه، طائراً من مربض خفى، وهو يطلق صيحات حادة من مناقيره المقوسه. لقد طال مقام هذه الطيور فى الجزيرة هذا العام أكثر من المعتاد. وخطر بباله وهو يدخن غليونه، أن عزلة الجزر النائية ربما كانت السبب الذى جعلها تؤخر رحيلها إلى الشمال .

وقال فى بطء، وهو يرقب حلقات الدخان، وهى تتصاعد من غليونه :

- ما كانت أحسب حتى الآن أننى أفعل هذا من أجل شخص سواها. لقد فكرت فى إتيان هذا العمل كنوع من العرفان لكل ما منحتنى إياه. ولكن يبدو لى أننى فعلت ما فعلت من أجل كل الذين عاشوا هنا من أجل ذلك الرفيق الذى نصب هذا السياج الحديدى والرجال الذين حفروا هذه المخازن تحت الأرض، ومن أجل الرجال الذين شيدوا السفن. بل هناك ما هو أكثر من هذا. إننى أفعل ما أفعل لأبعث الماضى من مرقده، وكل ما كان يعنيه ذات يوم بالنسبة لبقاع مثل هذه .

وبعد بضع دقائق شرع يدير معوله ويضرب به الحشائش والشجيرات النامية خارج المقابر فى عنف حتى تهاوت تحت وطأة ضرباته القوية السديدة. لكنه أبقى على دغلة من شجيرات الاسفندان استحال لونها أحمر قرمزيًا، كما أبقى فى ذات الوقت على زهرة زرقاء واحدة كانت قد تفتحت بجوار أحد الأحجار الساقطة. وفى خلال ساعة كان قد انتهى من إخلاء مساحة قدرها اثنا عشر قدمًا من كل جانب. وبالإضافة إلى ذلك فقد تمكن من شق طريق غير مهذب وسط هذه المساحة، يؤدى إلى المرسى حيث توجد القوارب. وتذكر فى شىء من الندم أنه كان يجدر به أن يحضر منجل جويل، فى حين أن حبات العرق

تنحدر فوق قميصه الأزرق فتزيده قتامة. لكن لم يكن فى وسعه أن يستخدم كلاً من المنجل والمعول فى المستنقع وفوق الطريق المعشب المشجر .

وحينما انتهى من جمع أحشابه وجعل منها كومة ضخمة نقلها بعيداً بقدر المستطاع وسار وئيداً حول قطعة الأرض الفضاء الجديدة التى اصطنعها. وهكذا زالت وحشة المكان. وعلى الرغم من بعده وعزلته. فإنه لم يعد مهجوراً ولا أشعث تماماً، وحينما يقبل الربيع ويأتى بلوسى إلى هناك لترى أزهار الايريس فإنهما سوف يقطعان الأعشاب البرية الجديدة فى المدافن، ويحرق أكوامه من الشجيرات، وربما حمل معه بعض الملاط، لكى يقيم الأحجار الساقطة ويثبتها .

غير أن ثمة واحداً كان عليه أن يتمه قبل أن يقفل راجعاً إلى قاربه، شيئاً استقر عليه رأيه فى أثناء الليل، وهو مسهد يفكر فى مقابر الجزيرة القفر، ويدير فى رأسه خططاً للتنفيذ فى الصباح. وقف وسط أرضه الخلاء يدقق النظر فى الأحراش والشجيرات الزاحفة. ففوق المنحدر غير الممهد الواقع إلى يسار المخازن الأرضية كانت تنمو بعض أشجار الدردار المثقلة بالعناقيد العريضة المسطحة من التوت البرى الأحمر. وتملكه الزهور وانتفخت أوداجه وهو يوسع الخطى نحوها. لقد كانت كما أرادها أن تكون تماماً، تلك الأشجار التى كانت أثيرة لدى السيدة هولت. كانت تسميها دائماً باسمها الإسكتلندى : "ردوان" .

وأطاح بالشجرة الضخمة من قاعدتها وراح ينظم جذوع الشجر بعناية، ثم شرع يجرها فوق المنحدر، وكسا ببعضها الرابية الصخرية البشعة المنظر. ونثر بعضها حول المقبرة المفتوحة. وخيل إليه أن منظرها قد أصبح بهيًا، لاسيما بعد أن انساب فوقها الضياء بعد أن أخلى له مكانًا يتسلل منه إلى أرض المقابر. لقد هدأ منظرها من روعه حتى علم الرغم من أن أحداً لن يحضر إلى المدفن غير الرجال الذين سيقبلون فى القارب الضيق يخوضون المد العالى عند مصب نهر تيدال، ثم يقطرونه إلى الخور متجهين نحو الأسوار السوداء والأعشاب العطنة ثم يرسون به كيفما اتفق هناك. وما إن انتهى من ذلك حتى قال محدثًا نفسه : "إن كل هذا الذى فعلت ليس إلا خداعًا للنفس، فهى لن تحس بشىء منه وقد بلغت حافة الظلام". ثم ارتدى سترته المصنوعة من المخمل القطنى، ورفع معوله، ثم اتجه إلى قمة الطريق المنحدر إلى المستنقع .

لوسى وجويل نورتون

- ١ -

نشأت لوسى فينال وجويل نورتون معًا فى جزيرة كبيرة تقع فى المياه الغربية بخليج بنوبسكوت، وكانت الجزيرة وقت مولدهما وطفولتهما تكاد تكون مركزًا لمحاجر الجرانيت، ويعتبر صيد السمك فيها بالمقارنة إلى هذه الصناعة مهنة أقل شأنًا. وقد كان مولدهما فى وقت متأخر جدًا بحيث لم يشهدا، أو حتى يسمعا، شيئًا كثيرًا عن أساطير الصيد التى كانت تخرج من أغلب موانئ المين طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر وما قبله، سواء من الشاطئ الكبير أو الجزيرة، فتملأ البحر بالسفن ذات الهياكل العريضة الضيقة الحادة وبالسكونات ذات الجوانب المقعرة التى تشبه البراميل التى تتجه مرتين فى العام إلى البحار اللجبة عند شواطئ لبرادور ونيوفوندلاند. إنهما لم يعرفا قط ملاك السفن الأثرياء فى المدن الساحلية الكبيرة الذين كانوا يعتمدون فى السنوات الماضية على الصيادين فى إمدادهم بالقناطير المقنطرة من سمك "البكلا" المملح لشحنه إلى جزر الهند الغربية وإلى موانئ أوربا

الغربية. أما فى طفولتهما فإن ملاحى السفن القليلة التى كانت تمر إلى شواطئ نيوفوند لاند أو المياه القريبة فى خليج فوندى، فكانوا يتألفون من رجال المين الدين يجمعون بين الملاحة والفلاحة، فهم يخرجون للبحر فى فصل الربيع من بين موسمى البذر والحصاد فى أخريات الصيف، وأحياناً أخرى بين شهر أكتوبر وأوائل مقدم الشتاء الطويل – فى قواربهم ذات القلاع المصنوعة محلياً سعياً وراء زيادة أرزاقهم ببيع صيدهم الوفير آنذاك فى أسواق روكلاند وبورتلاند وبوسطن، وهم ينحون فى ذلك منحى آبائهم الذين كانوا من نفس الطراز ويجمعون بين الحرفتين .

وبينما كانا يتلقيان العلم فى أكاديمية الجزيرة، كانت محاجر الجزيرة هى الأخرى ماضية فى طريق الانهيار السريع. ولما كان البناءون قد أخذوا يستخدمون الأسمنت بدلاً من كتل الجرانيت فى تشييد الكنائس والمنازل الجميلة والمبانى العامة من كل نوع، فقد قل الطلب منذ سنوات قليلة على شرائح الصخر الأسمر العظيم التى سخت بها الطبيعة على الجزر الساحلية .

وفى مكان الصيد واستخراج أحجار البناء، نشأت صناعة جديدة على طول ساحل المين ابتداء من الرمل البيضاء التى تغطى مساحات شاسعة فى أولد أورتشارد حتى المرافئ العميقة فى خليج فرتشمان، صناعة آمنة مضمونة وأقل تعرضاً للمخاطر، تتمثل فى سد احتياجات

ورغبات المصيفين والزائرين العابرين. أما الأسر المقيمة فى المين والتى كانت أسماؤها معروفة منذ مائة أو خمسين عامًا فى أرجاء المحيط الهندى وعلى طول ساحل الصين فقد كيفوا أنفسهم مع هذا التغير الذى طرأ على الأحداث بارتياح، بل وبحماسة. فقد كانى مجئ المصيفين الأثرياء يعنى تنشيطًا ورواجًا للتجارة المحلية. ومهما بلغت الأحوال من سوء فقد كان من الميسور أن تباع البيوت التى بنيت من حصيلة التجارة الخارجية. أما أبناؤهم وبناتهم فلن يعدموا "يخوتًا" يديرونها وخيلاً يرعونها ومروجًا وحدائق يفلحونها، وموائد يعدونها ويقومون بالخدمة عليها، وأطفالاً من المدن يرعونهم. وما إن تخرجت لوسى فينال وجويل نورتون فى الأكاديمية حتى وجدا فى انتظارهما الكثير من الوظائف التى لم يكن يناسبهما أى منها .

ومع ذلك فلو أن جويل نورتون كان قد ولد منذ خمسين عاماً مضت حين كان عشرون من موانئ نيوانجلند من باساناكودى إلى ناراجانسيت أشهر بكثير من الموانئ الأوربية من أعظم المدن الأمريكية، فإنه ما كان ليضيف امتيازاً لأى منها. ومثل غالبية أبناء الأسر التى كرست حياتها للصيد، لم يكن جويل من نفس المعدن الذى جبل منه ملاحو البحار العميقة وقباطنة المستقبل، بل كان ينتمى بحكم النشأة والتقاليد إلى تلك الطبقة المتواضعة التى درجت على مزاولة أعمال بحرية أقل شأنًا. وكان مفطوراً بالعادة لا بحمض إرادته على الاستقلال

الهادئ لا على النظام الصارم الذى يفرض على ملاحى السفن. وكما فعل أبوه وجده من قبل، كان يؤثر الاستقرار على ارتياد المسالك الوعرة ومن ثم كان يؤثر حياة البيت الآمنة المطمئنة بعد مخاطرة قصيرة ومأمونة نسبيًا وسط الأمواج المتلاطمة، حتى ولو كان فى هذه المخاطر ما قد يعينه على الكسب وإعالة نفسه فحسب، دون التطلع إلى الرغد والبحبوحة، كان يؤثر هذا على أى حلم بالفوز بوظيفة ضابط أول سفينة ثم قبطان سفينة تجارية فى جزر الهند الشرقية أو المياه الاسترالية وعلى أى فهو لم يكن بالذى ينطوى صدره على الآمال العريضة فى أى وقت، وفى أى مكان .

والآن وقد أصبح الصيد مهنة كثيرة النفقة، آيلة للأفول مثل استخراج الجرانيت من المحاجر، فقد اتجه بفطنته وفى شىء من التردد إلى وسائل الكسب المتاحة، على الرغم من أنها لم تكن تنطوى على شىء مغر. وحين بلغ التاسعة عشرة من عمره، غدا ربانًا لأحد قوارب النزهة تمتلكه أسرة من أهالى ميناء نيويورك، كانت قد بنت منزلاً صيفيًا على مقربة من الشاطئ وكانت تعتبر نفسها محظوظة لعثورها على شاب مثل جويل. وأعطوه حلة بحرية زرقاء ذات أزرار نحاسية وقبعة رشيقة من التيل الأبيض .

على أن جويل ما كان فى مزاجه أو مظهره بالرجل الخفيف الرشيق. فقد كان قصيرًا ممتلئًا، حذرًا. وكان شعره جعدًا أحمر،

وكان ذا عينين واسعتين زرقاوين، تزدادان اتساعًا كلما ساوره القلق واستبد به الضيق. وكان ملاحًا ممتازًا، عليمًا بدقائق الساحل والجزر منذ صباه. وقد حافظ على أناقة القارب الشراعى الذى عهد إليه به وجعله يبدو كأبهى ما يكون. وفى خلال الأصياف الثلاثة التى عمل فيها ملاحًا لهذا القارب حيث كان يخرج به فى رحلات قصيرة للنزهة أو لحمل متاع الشباب الذين يخرجون للصيد فى المياه العميقة. كان يعرج على لوسى فينال ليسر إليها - شاكرًا، مقدرًا - بشكوكه وهواجسه؛ لوسى التى كانت تعمل فى خدمة نفس الأسرة، كأنشط وأقدر ما تكون الخادمة .

وقد اتفقت كلمتهما على أن أصحاب البيت من أكرم الناس طرا حين كانا فى ساعات فراغهما يخرجان للنزهة والقصف إلى خور منعزل بعيد عن الأعين، أو حين كانا يعودان فى يوم من أيام العطلة النادرة إلى الجزيرة فى زورق بخارى لا يقل فخامة عن زورق الأسرة. وهكذا كانوا - على حد علمهما يؤثرونهما بالود والإكرام فوق ما كانوا يجزلون لهما من أجر. ولكنهما كان غريبين على الأوضاع المقررة والتقاليد المرعية وسط أهالى الساحل والجزر الذين درجوا على الاعتماد الشديد على النفس والكفاية الذاتية فقد وجدا من العسير عليهما أن يقتسما أرض أجدادهما مع الغزاة حتى ولو كانوا من ذوى النوايا الطيبة، وعلى الأخص مع أولئك الذين يمثلون ظروفًا اجتماعية ومالية غريبة كذلك .

قال جويل للوسى، وهو يعبث بقبعته الرشيقة، وقد بلل العرق يديه وجرى الدم فى رقبته وارتفعت حرارة جسمه :

- لست أدرى كيف أعبر عن رأيى ولكنهم لن يثبتوا أقدامهم فى هذه الأرض، ولن تكون لهم فيها جذور مهما فعلوا ومهما حاولوا. إننى أرثى لهم ولو أننى واثق من أنهم لن يقدموا لى شكراً على ذلك. وحين أنعم النظر فى الأمر يزداد أساى على حالنا وعلى ما سلف من تقاليدنا .

فى تلك اللحظات كانت لوسى تشعر بالأسى من أجل جويل أكثر من هؤلاء المصيفين، أو حتى التقاليد القديمة. وكانت كلما رأته وقد أحمر وجهه، وبدا عليه الاضطراب، والتبس عليه التعبير عن كوامن نفسه، ورفض الكلام أن يخرج من حلقة، استبدت بها لهفة جارفة لكى تحميه من كل ما يعقد لسانه ويربكه. وكما كانت تعينه أيام المدرسة على استذكار دروسه التى كانت تشق عليه ويشعر تجاهها بالعى، فقد رغبت الآن فى أن تمنحه الثقة وقدراً من راحة البال على الأقل. لم تكن راضية تماماً بعملها الصيفى ولكنها كانت بطبعها سريعة التصرف، سريعة الاستجابة، قادرة على الخلاص من المواقف الحرجة العارضة، خلية البال، ودودا، تسخر من حماقاتها بدلاً من الانكباب عليها والتفكير العميق فيها. وفى خلال السنوات الثلاث ما بين الخريف والربيع الأخير، كانت تعمل فى مدرسة الجزيرة حيث عكفت على تعليم أبناء

جيرانها، فى حين استقر جويل فى أحد الأجنحة الصغيرة من المنزل الكبير القائم على الشاطئ الأصلى، يعنى بالأشياء بطريقة قلقة، يخشى دائمًا أن يقع ما ليس فى الحسبان كلما عبر البحر لماما فى قاربه كيفما يراها .

وبلغت الأمور ذروتها فى أغسطس من العام الثالث الذى عملا فى صيفه معًا. وقد أحبت الأسرة النيويوركية لوسى كثيراً كما أحبوا فيها قدرتها على التكيف وتفانيها فى خدمتهم وطبيعتها السمحة البشوش، حتى إنهم طلبوا إليها أن تعود معهم فى الخريف، وكما قالوا لها فإن العمل لن يكون أشق عما كان الصيف، بل الحق إنه أخف بالقياس إلى ما يمنحه منزل فى المدينة تتوافر فيه وسائل الراحة. وفضلاً عن ذلك فإنه يهيئ لها الفرصة لمشاهدة شيء لم تصادفه من قبل. وأسرت لوسى هذه الأنباء لجويل فى عصر يوم خرجا فيه بالقارب البخارى لصيد السمك خارج الصخور المجاورة القريبة من الشاطئ .

وحين سمع جويل هذا الكلام، تملكه الرعب وبدا كما لوكانت مرساته الوحيدة قد أفلت زمامها منه وجرفه التيار إلى الشعب الوعرة والصخور الخفية المغمورة فى مياه البحر. هذا الإحساس الممض الذى لا يعرف بحار ما هو أسوأ منه، أدخل على قلبه خوفًا شديداً حتى دفعه القنوط إلى محاولة انتزاع ما يستطيع انتزاعه من كلام لكى يرجو لوسى أن تتزوجه وتبقى فى المنزل. أما لوسى التى اجتاحها شعور بالرأفة

نحوه، والتى تثق بطيبة جويل كما تثق أنه بحاجة إليها، فلم تدعه يعانى مرارة هذه الحال ويكابد شعور الرعب لأكثر من نصف دقيقة. بل إنها لم تأسف على القرار الذى اتخذته ولو لطرفه عين طوال الأعوام الثلاثين التى انقضت منذ عصر ذلك اليوم من أيام شهر أغسطس .

- ٢ -

ومع ذلك فلم يستمرا فى البيت القائم فى الجزيرة. فقد بلغتهما شائعات من أحد أصحاب المصايد الذى يضرب شباكه فى المياه الشرقية بحثًا عن سمك الرنجة أن محلا كبيراً فى إحدى مستعمرات الصيد النائية قد أخلاه صاحبه يأسًا منه وأنه يعرضه للبيع بأى ثمن كان. وكان المحل يقع عند بقعة من الساحل تبعد مسافة تزيد على مائة ميل وفى منطقة مخصصة لصيد الأسماك؛ لما لها من مزايا طبيعية ولما فيها من ثروة سمكية. ولهذا فقد راق لكليهما لهذين السببين معًا. وقررا أنهما لا يميلان بطبعهما إلى أعمال الخدمة الصيفية التى أخذ الطلب يزداد عليها. ولم يكن جويل بالرجل الذى تلائمه الخدمة الرتيبة فى شهور الشتاء الطويلة وملء ساعات الفراغ فيما تتيحه الجزيرة من أعمال متفرقة .

وعلى هذه المساحات الشاسعة من خط الساحل الشديد الوعورة عند خليج فرنشمان ما زالت تقوم بيئات نائية، تواجه البحر من نقط معزولة أو رؤوس برية أو أعلى مجرى مائى أو متجمعة حول الخلجان والأخوار وعلى منأى من الطريق الذى يرتاده المصيفون الغزاة. وبناة المنازل الصيفية، وأصحابها يؤثرون ليخوتهم وطوافاتهم الموانئ الآمنة القريبة من الأسواق، ومن ملاعب الجولف والتنس التى يغشونها، ومن جيرانهم الذين على شاكلتهم. ولم يتوغل منهم قط إلى المناطق النائية عند المين الشرقى غير قلة من طلاب العزلة الذين يدفعون ثمنها من راحتهم. هذه المناطق النائية تنتمى الآن كما كانت تنتمى منذ قرنين من الزمان إلى أهلها الأصليين وعلى الأخص أولئك الذين يصيدون الأسماك بالشباك أو يطرحون ويجرون فخاخ السمك فى مياههم الخطرة الثائرة .

وكان خليقًا بجويل ذى الطبع الرزين، الشديد الحذر أن يتردد ألف مرة قبل أن يفكر فى استثمار رأس مالهما الضنين فى بناء منزل من طابقين فى مثل هذه المنطقة العزلاء، لولا أن لهفة لوسى وتحمسها غليا فطنته وحذره. وبعد ساعة من معاينتها الأولية للمحل الخاوى والجهات المحيطة به والتى فى ذاتها كانت مبعث بهجتمها، خالت المبنى وقد تجدد لكى يمنحها منزلاً ومكانًا للتجارة، وقد أقاما له سقفًا جديدًا معًا وكدا معًا فى طلائه، وجملاه بالأزهار النضرة يضعانها خلف نوافذ واجهته.

وفى حين أخذ جويل يفحص الشبابيك والسقف والدرج الخارجى المضعضع، ويعاين الكوخ الخارجى الملحق بالمنزل ويكشف مكان البئر ويقف على حالته، شغلت لوسى بالحديث مع بعض أهالى الناحية الفضوليين .

وكانوا يقولون إن الناحية كان يؤمها عدد من الناس أكبر مما استطاعت لوسى وجويل أن يريا لأول وهلة، ذلك أنهما حين وفدا إلى هذه الناحية كانا قد سلكا طريق البحر دون الطريق البرى. فقد كانت تقيم فيها اثنتا عشرة أسرة على طول الطريق المؤدى إلى الشارع الرئيسى، تتألف من رجال كانوا يصيدون فى تلك الخلجان والمستنقعات التى كانت تحدق بهذه البقعة الطويلة الضيقة من الشرق ومن الغرب. وكان عمال ما لا يقل عن ثلاث فنارات يستخدمون المحل كمركز لتجارتهم، وكان بعض الأهالى المقيمين فى الجزر النائية يفدون بانتظام كذلك للحصول على ما يريدون من مؤن. وفى مواسم الرخاء كان عدد من قوارب الصيد يتخذ الخور محطًا وموئلا ولو لفترة وجيزة. وكان صيادو الحيوانات من المناظر المألوفة فى هذه الناحية فى شهر نوفمبر. وكثيرًا ما كانت تقبل اللنشات واليخوت فى أشهر الصيف لترسو فى الليل هناك. ويتردد راكبوها على محل جويل يشترون منه كميات كبيرة من الزاد. وكانوا يقولون : لو لم يكن صاحب المحل السابق غريبًا على الناحية، لا يفهم طبائع الصيادين أو يألف عاداتهم، لاستطاع أن يربح

من ذلك المحل ما يكفل له عيشًا رضيًا. ولكنه كان فى حاجة إلى واحد من سكان السواحل وأهلها بل صياد كذلك، لكى يكون أكثر التصاقًا بهم فى السراء والضراء .

وفى النهاية، والحق أنه لم يكن ثمة نهاية، لم يكن أمام جويل إلا أن يسلم برغبة لوسى أو على الأقل لم يكن لديه من الحجج ما يستطيع أن يعترض به فى الوقت المناسب. وهكذا اشتريا المحل .

- ٣ -

وفى واقع الأمر، وهو واقع ظاهر حقًا، كان ميل لوسى نورتون، بل وشغفها بإدارة الحوانيت مستندًا إلى فهم عميق ورقيق لزوجها. ومثل كل النساء العاقلات فى كل العصور، كانت حريصة كل الحرص على أن تحتفظ لنفسها بهذا الفهم. والحق أنها كانت مدفوعة بأفكار لطيفة تتمثل فى أطفال يتشبثون بما فى أيديهم من دريهمات، يتوقون فى إصرار لشراء الحلوى ونساء يستشرنها فى مزايا الخمائر المغلفة والخمائر المصنوعة فى البيت. وكانت تحب مرأى الصيادين المتعبين وما يشعونه حولها من إحساس بالدفء، وقد أخذوا يدخنون الطباق فى غلايينهم حول الموقد فى أمسيات الشتاء قبل عودتهم إلى منازلهم فى الليالى المعتمة العاصفة. وكانت تود أن ترى الرفوف وقد غصت

بالبضائع صفًا بعد صف من علب الأطعمة المحفوظة والجرار، والأشياء المغلقة والزجاجات. على أن هذا كله لم يكن غير مجرد إضافات وحواش على الحقيقة، وعلى الفهم الذى كان يستقر قويًا مكينًا فى أعماقها .

وبالاشتراك معها كان جويل يستطيع أن يدير المحل، وأن يتغلب على حيائه، ويهزم مخاوفه وتردده، وأن يكتشف ذاته محترمة، مكرمة، حتى حين تبدى له التبجيل والتقدير. وإذا ما راحت ترقب المحل بنفسها – وكانت تعرف أنها قادرة على ذلك – فإنه لم يكن ليضيع وقتًا فى الاعتراف بنفسه بأنه المالك والحائز الوحيد، وأنها مجرد مساعد وعون له. وفوق اللوحة البيضاء المرفوعة فوق الباب الأمامي الجديد من المحل الذى يبدو لونه داكن الخضرة بالمقارنة إلى لون اللوحة الأبيض النضير، كانت الحروف الخضراء التى تحمل اسم المحل تقول :

"محال جويل نورتون"

ولم يحقق جويل كل آمال لوسى وأحلامها فيه، ولكنه استطاع أن يحقق بعضها تدريجيًا، ولم يمض طويل وقت حتى صار أكثر شعوراً بالرضا الذى لم يكن يعتقد قط فى إمكانه. ولم يكن من العسير عليه أن يتغلب على خجله أو يشعر به على الأقل فى صحبة رجال يؤثرون الكلام

القليل والتباعد بطبعهم، وقد حل عقدة لسانه ما كان يخامره من إحساس بأن أحداً لا يطالبه بأن يتكلم كثيراً. وكان بين الحين والحين يجترئ فيبدى رأياً فى شىء غير الطقس، بل إنه كان كثيراً ما يقدم لزبائنه بعض المعلومات حين جلوسهم معه فى الأمسيات. كان يحدثهم مثلاً عن القواقع فيقول :

– يخامرنى الاعتقاد بأنه لن يطول بنا الانتظار حتى نشرع فى الاهتمام بالجندفلى كما نهتم بالقواقع (المحار). كنت أقرأ أنه من الأطعمة الأثيرة فى بعض البلاد الأوروبية .

وتارة يحدثهم عن (فضلات) الطيور البحرية فيقول :

أميل إلى الاعتقاد بأن لدينا سماداً من أجود الأصناف يمكن أن نفيد منه فى تخصيب حدائقنا، وهذا السماد موجود فى قلب جزرنا، ولكننا لا ننتبه إليه. إنه موجود على بعد بضع أقدام فى بعض الشقوق، وفى وسعنا أن ننقل منه كميات على قوارب الشحن فى وقت قصير، إذا ما عملنا معًا وكان البحر هادئًا. هذا هو ما فعله بحارتنا منذ بضع سنوات، حين كانوا يبعثون بسفنهم الكبيرة إلى بعض الجزر الواقعة عند شواطئ بيرو فى أمريكا الجنوبية لمجرد الحصول على فضلات الطير – كان يسمونه "لوانو" وكانوا ينقلون منه أطناناً إلى بعض البلاد الأوروبية. وأعتقد أن هذه التجارة كانت تدر عليهم مكاسب كبيرة كذلك .

وكانت لوسـى - إذا مـا أصـغت إلى صـوت جـويل وهو يتحدث عن هذه الأشـياء فى ثقة، وشـهدت كـيف كـان جيرانه يسـتـمعون إليه فى احـترام - قفـز قلبها بهجـة وحـبـوراً بين ضلوعها، وتواظـب على الاطلاع على الكتب التى كانت تحتفظ بها السيدة هولت فى بيتـها عند الطرف الشرقى من الخور والتى كانت تحثها على قراءتها وتداوم على مشـاركة جويل فى تصفحـها حين تناولهم الشـاى والخبز المحمر قبل النوم .

وفى خـلال السنوات العـشـر التى مـرت عليـهـمـا فى إدارة المحل، كانت الأمور تبدو محلولكة بما فيـه الكافية، فـقد كـان المحل صـغـيراً وبعيداً عن مجال الحركة وأسواق الجملة وأسعارها المخفضة. حتى ولو كانت فى متناول أيديهما . كان عليهما أن يشتريا المؤن من أقرب المدن التى يمكن الوصول إليها بطريق البحر حتى شاع النقل بالعربات حتى فى أسوأ الطرق أو قبل أن يصبح فى مقدورهمـا أن يدخرا المال لشراء عربة. وفى بادئ الأمر كان الربح الذى يجنيانه من محلهما ضئيلاً على نحو مؤسف. وقد اضطرا إلى تقسيط ديون الزبائن أثناء أشـهر الشتاء فى أعقاب مواسم الصيد الضعيفة. ومع ذلك فقد ثبتت صـحة تنبؤهما إبان زيارتهما الأولى. وكانت الأسر المبعثرة على امتداد الطريق الطويل لابد لها من الحاصـلات العادية والبطاطس ولحم الخنزير المملح، إلى جانب السمك الذى لا تخلو منه مائدة. وكان الصيادون الذاهبون صوب

المأوى الخشنة - فى رأس هرنج أو جزيرة شاج أو الغابات الواقعة شمالاً - يعرجون على المحل فيحملون مؤنًا وفيرة. وبينما لم يكن زبائن المنار والجزيرة كثيرين قط، إلا أن عددهم لم يكن بالشىء الذى يستهان به، ففى الأيام الوفيرة الصيد كان الخليج يعج بالقوارب الحافلة بالصيادين الجائعين، فإذا ما تناقص زيت البترول فى صهريج ومضت عربة الغاز بانتظام، فإن تجارة الوقود اللازم، والشحومات اللازمة لحركات المراكب كانت تجعل المستقبل يبدو مشرقًا حقًا .

وكان جويل يذهب بطريق البحر إلى أقرب مدينة مرة أو مرتين فى الأسبوع فى مركبه، وقد أخذ معه قائمة طويلة بالبضائع التى اتفقا على شرائها خلال ساعات طويلة من المشاورات الدقيقة، وبعد أن صار يمتلك عربة كان يذهب فجر كل يوم إلى المدن القريبة، وكثيراً ما كان يذهب إلى أسواق الجملة النائية حين كبرت تجارته. أما لوسى فكان عليها أن تقوم بمعظم عمليات البيع. وكان جويل دائم الانزعاج بسبب هذا الأمر. وكانت حنة ستيفنز كلما أقبلت وسردت قائمة لوازمها دفعة واحدة من أرز وعنب وخميرة الكعك والسكر والطباق والشوفان، احمرت رقبته وارتعشت أصابعه الممسكة بالقلم، وتملكه الاضطراب وهو يحصى ويجمع. فى مثل هذه الأوقات كانت لوسى تتذكر دائمًا شيئًا تحتاج إليه من الطابق العلوى لم يكن ثمة من يبحث لها عنه سواه، أو بعض المؤن

الموجودة فى المخزن الخلفى التى كانت من الثقل بحيث يشق عليها رفعها .

- ٤ -

كانت لوسى تتذكر الأعوام الثلاثين التى ولت وهى تكنس المحل فى الصباح وتجهز كل شىء استعداداً للعمل. إن ثلاثين عاماً ليست بالعدد الهين. إنها تكاد تمثل نصف عمرها . وتتساءل : هل مضى على وجودنا هنا ثلاثون عاماً حقاً ؟

حاولت أن تذكر كيف كانت تبدو هى وجويل حين قدما إلى هذا المكان لأول مرة. لكن الصورة انمحت أمام ما كانا يبدوان عليه اليوم، وقد بلغا الثالثة والخمسين من العمر. فقد تقوس ظهر جويل من طول الجلوس فى عربة نقل البضائع، ومن كثرة ما حمل فوقه من الجوالق وعلب نقل البضائع، ومن كثرة ما حمل فوقه من الجوالق وعلب الكرتون. أما هى فقد وخط الشيب شعر رأسها، وجرت الخطوط الدقيقة فوق وجهها علامات لا يخطئها المرء، وهى وإن كانت بغيضة إلى قلبها إلا أنها مع ذلك لم تكن آسفة على ما مضى من عمر. وإنما كان ينتابها شعور بالدهشة ما بين الحين والحين كلما اكتشفت هذه الحقيقة وقد انطوت السنون وراءها إلى غير رجعة. وفى بعض الأوقات كانت تستبد بها

لهفة واشتياق لأن يمضيا أسبوعًا فى مكان آخر حتى ولو اضطرا إلى إغلاق المحل، لكى يشاهدا الحقول الفسيحة فى أروزتوك لينعما بالمباهج فى بانجور أو بورتلاند. لكن ما إن تمضى أيام قليلة حتى تكون كل الأشياء قد سلكت سبيلاً مختلطًا غريبًا، ثم انجابت عنها غشاوة الفكرة واستأنفت حياتهما سيرها العادى .

والحق لقد تغيرت مستعمرة الخليج قليلاً فى تلك السنين. كان أشجع صيادى السمك لا يميلون بطبعهم إلى الارتحال والتجوال. فما إن يستقر اختيارهم على قطعة من الأرض يسكنون فيها، ومساحة من الماء يصيدون فيها، حتى يتشبثوا بها فى إصرار وعناد كما تتشبث القواقع بالصخور. ولما كانوا مدركين لطبيعة القلب ولجراد البحر والرنجة وأنها من الأسماك التى لا يمكن الرجم بمواعيد ظهورها، فقد ركنوا إلى الحظ وأسلموا ثقتهم له. وهكذا كان صيادو الخليج إذا ما سمعوا أن المصايد الواقعة على مبعدة ثلاثة أميال امتلأت بالسمك الوفير أو علموا أن جراد البر يتجه شرقًا أو غربًا ليدخل مصايد غير مصايدهم، اكتفوا بهز أكتافهم وإبداء اشمئزازهم لتقلبات الحظ، وانتظروا عودة الحظ مرة أخرى حتى ولو تأخر عليهم .

فها هى ذى حنة وبنجامين ستيفنز اللذان جاوزا الستين من عمرها الآن قد مضى عليهما قرابة ثلاثين عامًا دون أن ينزلا إلى البحر للصيد وكذلك نورا وسيث بلودجيت. وقد قدموا إلى الخليج قبل أن

يشـتـرى آل نورتون المحل. أمـا دانيل ثيـرسـتـون الذى أدركـه الـهـرم والنحـول والذى راح يرقـد الآن فى ظل رأس الخليـج، فقـد أخذ يتبـاهى بمعرفته للخليج، فقد أخذ يتباهى بمعرفته للخليج منذ نصف قرن من الزمـان. لقد تغيـر سـاكنو المنازل الأخرى، أحـيانًا بسـبب الحـزن الذى حـاولت لوسـى أن تنسـاه، ولكن سكانًا أخـرين حلوا مكانـهم. وبدا سـان باركر طوال عشرين عامًا راضيًا بحاله، ومنح لوسى وجويل متعة يعجز عن التعبير عنها الكلام، يخرج للصيد مع جويل فى شهر نوفمبر وفى رحلاته القصيرة لشراء البضـائع فى فـصل الشتـاء، الأمر الذى كان يخـفف عن لوسى ويريح بـالها، ويمد يد المعونة إليـه فى عدد لا يـحـصى من الأعمال. وقد عاش الشاب صوير وزوجته الشابة هنا منذ زواجـهما الذى مضى عليه عشر سنوات. واستقر فى بيت صياد وافاه أجله حين غرق مـركبـه بسبب توقف محركه وسط عاصـفة عند رأس هرنج. أمـا روزيلا ويست فقد هجرها زوجـها حطامًا غير مرغوب فيـها، وهو الذى نشـأ فى هـذه الناحـية منذ صـبـاه، وراح يعـمل وسـاقـًا فـى البـحـيرات العظمى، دون أن يدرى أحد أهو سيعود إليها أم لا يعود؟ أما آل راندال وطفلهما الوحيد فقد تسللوا إلى القرية منذ عـامـين من مكان لا يعلمه إلا اللّه، ثم اشـتـروا قطعـة أرض من دانيل ثيـرسـتـون، وشـيدوا بيـتًـا متواضعًا فوق التل الطويل المؤدى إلى رأس الخليج. وكان واضحًا أنهم لا يعتمدون على الصيد فى معاشهم .

في ذلك اليوم من أيام شهر سبتمبر حين استقر رأى لوسى وزوجها على استيطان هذه الناحية، وبينما كانا ينتظران على مضض انحسار المد لكى يدنوا من الشاطئ بمركبهما المثقل بما حمل، شاهدت من مكانها فى المقدمة وهى واقفة وسط أكوام متاعهما - امرأة تذرع الشاطئ الشرقى جيئة وذهابًا وما بين الحين والحين ترقب مياه الخليج من خلال منظار .

- قالت لوسى لزوجها :

- هذه المرأة لابد أن تكون السيدة هولت .

وكان جويل شديد الانشغال بهذا المرفأ غير المألوف وبمركبه الذى يجره، وما إذا كان سيعتمد على جيرانه الجدد فى معاونته على نقل أمتعته بحيث لم يكن فى وسعه أن يلقى بأكثر من نظرة عابرة تجاه الشاطئ .

وأخذت لوسى تحدث نفسها بقولها :

- إنها تسير على نحو يختلف عن طريقة معظم أهل السواحل. لقد قالوا إنها عجوز ولكنها لا تبدو لى كذلك إطلاقًا .

لم تبد سارة هولت عجوزاً في عين لوسى نورتون منذ ذلك اليوم طوال السنين التى أعقبته. لقد كان مطبخها وغرفة جلوسها تجتذبانها كالمغناطيس، وبعيداً عن المحل فى كل ساعة من تلك الساعات النادرة التى كانت تنزع فيها نفسها منه. هناك فى بيتها القديم حيث كانا يكبان على إعداد شباك الصيد وغزلها ورتقها، عرفت لوسى منها الكثير عن بلاد ما كانت لتعلم بوجودها وشعوب لم تكن تعرف عنها أكثر من اسمها، وأفكار ما كان ليتفتح لها عقلها دون معين. وبدأت تطالع الكتب على نحو لم تكن قد عرفته إبان سنى تعلمها فى أكاديمية الجزيرة .

وكانت سارة هولت تقول لها :

– لو لم تكن هذه الكتب لكنت الآن فى نهر تيدال منذ وقت طويل .

وأحبت لوسى هذه الملاحظات العابرة الجريئة. وكانت فى بعض الأوقات تجرب إحداها على جويل الذى كان ينتابه الذعر حين يسمعها .

وفى بيت سارة هولت عاشت لوسى فى عالم جديد عليها. لكنه لم يكن عالم الماضى وحده، عالم السفن ذوات الأشرع العالية التى تعب الريح عبًا، والتى كانت فى وقت من الأوقات تغرى بالمغامرة والنصر .

ولكنه فى أغلب الأحيان كان عالم لوسى الحاضر، الذى يتألف من ذلك المجتمع الصغير المنطوى على نفسه، المستقر عند ذلك الساحل القاحل المنحوس، الذى لم يزده جماله الكابى إلا وحشة وعزلة . وربما كانت سارة هولت قادرة بسحر الماضى ذاته وبطريقة خفية، على تحويل ذلك العالم إلى شىء آخر وأن تمنحه الأمل وتخلع عليه حقائق وقيما ومعانى جديدة. ومع ذلك فقد ظل عالمًا يعج بالمكنات القذرة، الظامئة إلى البترول والزيت، وبأفرع الشجر الصلبة التى تصنع منها مصايد جراد البحر، والشباك الثمينة كذلك التى كثيراً ما تكون خاوية من السمك، وبالرجال الأشداء ذوى الرؤوس العملية، الكادحين الذين يناضلون فى مواجهة كل صنوف الريح والطقس، وبالنساء التواقات للحصول على ما يشتهين من ملبس وأدوات زينة، وبالأطفال الذين عرفوا قبل الأوان عن المخاطر أكثر مما عرفوا عن الأحلام. ولكن من خلال تشبث سارة هولت بالحياة، صار عملها الدائب الذى لا ينقطع جليلاً مكرمًا على نحو يبعث على الدهشة، وارتفع أهلها إلى منزلة لم يكونوا هم أنفسهم يدرون بها .

إن المرأة التى استطاعت أن تغير للوسى نورتون هذه الدائرة الصغيرة التى اختارتها لنفسها طواعية وفكت عقدها المحيرة وأزالت غموضها، وأضاءت ظلامها، كانت بذاتها قلب تلك الدائرة ومركزها. كانت مثل الدعامة الصلبة لإحدى السفن التى عرفتها وقد اختيرت

لكى تمسك بهيكلها وتقيمه منيعًا فى وجه الريح والأمواج. وقد أخذت من الماضى معرفة وتجربة، ومنحت عقلها بردًا وسلامًا، وقلبها عزاء ومتعة. لكن هذا الماضى منحها قبل كل شىء تلك الحكمة الذهبية التى هى أعظم هبة تستطيع أن تقدمها. ولقد وقفت فى حياتها المديدة على عديد من العوالم المختلفة وملأها الوجه المتغير لكل منها بالدهشة والأسف والعجب والأمل. ولعنتها وباركتها جميعًا فى الوقت ذاته .

ولم يبد لها قط أن المجتمع الحالى التافه الذى عاشت فيه جانبًا كبيرًا من حياتها تحت وطأة مختلف الظروف، قد حجبها عن الأماكن الواقعة خارجه أو أنه كان فى جوهره مغايرًا لها. لكنها عرفت البيئة الخاصة التى كانت تطبعه بطابعها. ومن ثم فقد عرفت أولئك الذين عاشت بين ظهرانيهم وأهلها المقربين والعدد القليل من جيرانها. وكانوا كمعظم الناس ينطوون على عواطف ورغبات متصارعة لا يدرك كنهها. وزاد من حدة هذا الصراع ما لموقفهم ومهنتهم من طابع خاص. ولم يحزنها ما كانت تكتشفه مرارًا من صفات متباينة فيهم، لأنها تعلمت أن الخبث والإحسان والرقة والقسوة والصغار والنبل يمكن أن تحيا فى قلوب غالبية البشر فى نفس الوقت تقريبًا. وفضلاً عن ذلك كانت قادرة فى أسف وطيب خاطر على اكتشاف هذا التناقض فى نفسها أيضًا .

فى تلك الأيام حينما كان الخليج والجزر ورؤوس البر وحتى الضوء العظيم تتلاشى فجأة وسط الضباب، حين كان كل شىء محسوسًا أو مرئيًا يبدو وكأنه يعود إلى البحر والرياح، أو عندما كان قطيع من الأوز يثير فى يوم من أيام الخريف القائمة الذعر المكتوم فى القلوب، أو حين يضطر المرء إزاء ضحكة مجنونة من شرير فاجر خبيث إلى الهرولة عائدًا إلى البيت وإلى مطابخ الفنادق الصيفية أو إلى أى مكان آخر، كانت لوسى تترك جويل فى غير اكتراث لكى يرعى الحانوت وتضرب شرقًا على طول طريق القرية .

وكانت تسلك نفس الطريق حين يستبد القلق والتذمر بالناس بعد أسابيع لم يجد البحر فيها عليهم بالرزق، ويشح المال فى أيديهم، وتنتشر الشائعات السوداء عن أن أحدًا قد قطع شباك الصيد فى الظلام ثأرًا وانتقامًا، أو أنها نهبت فى أصيل يوم مفعم بالضباب .

وكان فى طوق سارة هولت أن تسوى هذه الأمور، وأن تفتدى هذا العالم الصغير المتشابك، وأن توثق صلاته من جديد دائمًا .

كانت تقول للوسى :

– لا تتوقعى شيئًا كثيرًا من الناس ومن الملاحين خاصة. إن البحر سيد شديد المراس. إنه يظهر أفضل ما ينطوى عليه الرجل من

خلال، ولكن له أسلوبًا غريبًا فى تغذية أسوأ ما فيه من مشاعر كذلك. يتحدث الناس عن الماضى العظيم الذى شهدته السفن الشراعية، ولا جدال فى أنها كانت أيام مجد وعظمة. لكن، حتى فى ذلك الحين، كان البحر قادرًا على أن يصنع من الناس أوغادًا أو أبطالاً، وأحيانًا يخلق منهم مزيجًا من الاثنين. لقد أمضيت عمرى فى البحر أو على مقربة منه، وما زالت أموره تحيرنى. ومع ذلك فقد تعلمت شيئًا واحدًا فقط، وهو أنه لا يوجد رعب مثل الرعب الذى يمكن أن يثيره البحر فى حينًا .

وقالت لوسى :

- هذا لا يحدث دائمًا. أحيانًا فقط فى أيام غريبة كهذه .

قالت سارة هولت :

- لا شىء يثبت على حال واحدة دائمًا. لنصنع قدحًا من الشاى .

وكانت لوسى تعد الشاى دائمًا. وتجعله ثقيلاً أسود. وكان يشربانه من أقداح هشة بيضاء مزركشة بزخارف من أغصان وورق، جاء بها والد سارة من جزر الهند الغربية منذ قرن من الزمان .

وتستأنف الحديث فتقول :

– درجت على أن أرى ذلك الرعب فى تلك السنين على ظهر المركب، ولكننى لم أعتده تمامًا. وحين كنا نركب البحر وتهب الريح الرخية فلا نحتاج إلى نشر أشرعتها، لم يكن أى بحار ليتصور حياة أفضل. فإذا ما أمضينا الأسابيع قعوداً فيها ونحن نجتاز مناطق السكون فى البحار الاستوائية، أو أخذنا نجاهد الريح والعواصف التى تجتاج منطقة كيب هورن، كان ذلك الرعب البشع الممض يمسك بتلابيب كل منا. إنه لم يكن الخوف من عدم مجيء الريح مرة أخرى، أو من أن تتحطم السفينة على شعبة من الشعاب المرجانية، أو أن تنقلب بنا وسط المحيط. لم تكن الحرارة أو البرودة أو الغرق هو ما كان يخشاه الرجال. بل كانوا يخافون العزلة والضياع فى خضم هذا البحر الذى لا سلطان لهم عليه. وقد اعتدت أن أرقب هذا الشعور وهو ينمو. فى بادئ الأمر يبدأ الاضطراب ثم يتبعه الخوف، وحين يظل هذا الشعور مستوليًا على المرء بضعة أيام، ينتابه الغضب وبعدئذ يصبح المرء خطراً على نفسه وعلى غيره من الناس. أذكر بحاراً انتشلناه ذات مرة – وكنا نقوم برحلة طويلة فى بحار الصين بالسفينة موريتوس – كان رفيقًا من تلك الجزر الواقعة عند الساحل الغربى، مجرد بحار عادى يهوى التنقل، ما بين الموانئ. كما اعتاد أن يفعل كثيرون من أقرانه. يقولون إن الاسكتلنديين قوم عابسون بطبعهم. لكن هذا الشاب كان من أمرح ما رأيت ... وكان

لديه كمان قديم، خافت النغم، مخزون وسط عدده، ويعزف عليه موسيقى راقصة تدفع جميع البحارة إلى الرقص عليها فى ساعات الفراغ من نوبات الحراسة. وكان زوجى يقول إنه أحسن بحار يذكره بين مائة من الرجال الذين كانوا يعملون على سفينته. وكان يتسلق الصوارى فى أسوأ حالات الجو، ويطلق عقيرته بالغناء حتى وهو راقد على سطح السفينة. ولم يكن ثمة شىء لا يستطيع أن يعمله ابتداء من ترقيع الأشرعة حتى مساعدة الطاهى فى مطبخ السفينة. وكنا جميعًا راضين عنه، حتى اعترى البحر سكون مخيف ونحن نجتاز المحيط الهندى وقد انقلبت مياهه إلى سعير تحت لظى الشمس المحرقة، وقد تعرى البحارة من معظم ملابسهم ورقدوا فوق أسطح السفينة؛ لأن الجزء العلوى من مقدمتها كان أشبه بفرن لصهر المعادن .

وبعد انقضاء نحو أسبوع توترت خلاله أعصاب البحارة، فقد هذا الشاب الاسكتلندى عقله. وكنا نستطيع أن نراه وقد أخذت أفكاره تزداد اضطرابًا، وصار أكثر مشاكسة وجفاء. وفى إحدى الآصال فى أثناء نوبة الحراسة - وكان البحارة مشدودى الأعصاب منحرفى المزاج وبدت الشمس والبحر الساكن وكأنهما يهزان بنا جميعًا - جرى إلى أسفل السفينة ثم عاد ومعه سكين وشرع يهدد البحارة ويثير الرعب فى قلوبهم بها. وكان قد تمكن من إصابة الضابط الأول بجرح خطير واثنين من البحارة قبل أن يفلحوا فى شد وثاقه وربطه إلى أحد

الصوارى فى أعلى السفينة، لأنهم لو تركوه فى أسفل السفينة لمات من شدة الحرارة. وهناك ظل مستلقيًا يحملق فى البحر وراء سطح مؤخر السفينة. وعلى كثرة ما رأيت، لم أشهد قط مثيلاً لهذا الفزع الذى ارتسم فى عينيه .

وكنت أوشك أن أنتهى من صنع قميص لزوجى، وله ثنية بديعة حول مقدمته، من ذلك النوع الذى كان يرتديه القباطنة فى تلك الأيام حين كنا نخرج فى بعض الأحيان لتناول العشاء على سفن أخرى فى مختلف الموانئ. ولأنى لم أكن أحتمل التطلع إليه، وهذه النظرة المخيفة فى عينيه، ذهبت بالقميص إليه وقلت له : إننى صنعته من أجله، وإننى سوف أحتفظ به له حتى نصل إلى هونج كونج. لم ينظر إلى ولا إلى القميص قط. وإنما شرع يبكى كطفل صغير، وظل ينشج بضع لحظات حتى خارت قواه. لن أنسى هذا النشيج قط فى ذلك الجو المتقد والشمس كقرص كبير من اللهب الأحمر عند الأفق. ووقف رئيس البحارة وهو رجل طيب من جزيرة شاج، وجاب معنا البحار عدداً من السنين، وقف يكفكف الدمع والعرق من فوق وجه البحار الاسكتلندى الشاب. وبعد أن سكن روعه وانتهى رئيس البحارة من إطعامه عشاءه، طلب كمانه. وقد شعرت بالفخر تجاه زوجى حين قرر أن يدعه يأخذها .

وتساءلت لوسى، وهى تحملق فى الضباب والمطر وقد أمالته الريح .

– هل عزف عليها موسيقى راقصة ؟

ألفت هذا السؤال وقد بدت لحظة وكأنها لم تعد مشغولة بدكانها وبأخطاء جويل فى الحساب. وعرفت أنه لن تنسى قط ذلك الصبى، وهو يذرف الدمع خلال تلك الأميال التى قطعتها سفينته فوق بحر ساكن يتلظى جمراً وسعيراً. وفكرت فى أنها لم تكن لتحتمل هذا الموقف لو لم يسمح له بالعزف على كمانه .

واستطردت سارة هولت تقول :

– لقد عزف رقصات لم يعزف أمرح منها من قبل، ورقصنا جميعًا على أنغامها. وقمت أنا وزوجى بقيادة الرقصة ثم تبعنا الآخرون. وظللنا نرقص ونرقص، ونسينا فى خضم الرقص الحرارة المتلظية، وحتى الضابط الأول الجريح رقص ويداه فى اللفائف. وحين أدركنا التعب، بدأت الأنجم تظهر فى السماء وأخذت نسائم رخية تهب من جانب السفينة، وشهدنا بعض الجبال العالية وهى تتراقص على هبوب الريح .

ثم توقفت سارة وجمعت لوسى خيطها. ودقت ساعة الحائط العتيدة – التى كان آل هولت قد اشتروها من لندن – أربع دقات ترددت أصداؤها فى البيت. وكان الصيادون يتناولون طعام العشاء فى الخامسة .

وقالت سارة هولت :

– لست أقول : إن طبيعة الخوف واحدة فى أماكن مثل هذه. ولكن تأثير البحر واحد فى الجميع أينما كانوا إذا ما كانت صلاتهم به قوية وثيقة. فهو هناك دائمًا ليصوغهم أو ليحطمهم. وبعد أن يحطمهم أسابيع بطولها، بضبابه أو رياحه العكسية، دون أن يعود عليك من عملك غير القليل أو لا شىء، تجد نفسك وحيداً أوخائفًا وممروراً. إن الرجال، حتى فى البرك النائية أو الجزر، لا يقطعون شباك الصيد أو يسرقون جراد البحر منها، لأنهم أنذاك بطبعهم دائمًا. وعلى الأقل لا يفعل ذلك أغلب الناس. كل ما هنالك أنهم يصابون بالذعر، ثم يتغلب أسوأ ما فيهم على أفضل ما ينطوون عليه من خصال .

– ٦ –

لم يكن جيران سارة هولت الآخرون، ربما باستثناء سام باركر، يعرفونها مثلما عرفتها لوسى نورتون. ولما كانوا أقل تفكيراً وانشغالاً بتفاصيل طريق حياتهم اليومى الذى توارثوه جيلاً عن جيل أو زودتهم به الضرورة، فلم ينعموا النظر فى البواعث التى تحفزهم على العمل، أو أن يستبينوها فى وضوح. وكانت تعتريهم الدهشة وتتملكهم الحيرة لو عرفوا لحظة كيف أن هذه المرأة العجوز تعرفهم، وإلى أى حد من المحبة

والعطف كانت تفهمهم، ولكنهم لم يكونوا قط غافلين عنها وهى تجلس فى بيتها فوق الخور، وحتى فى أيامها الأخيرة، وهى تتأمل البحر من سدة بابها الأمامى، ولو كانت امرأة أخرى ترضى بالحرمان الذى لم تعرفه فيما سلف من أيامها، ولديها ابن مثل ثاديوس جلب لها المتاعب والعار، لعطفوا عليها ورثوا لحالها. لكنهم أدركوا بطريقة غريبة أنها لا ترحب بالشفقة والعطف، وكانوا فى بعض الأحيان يشعرون بالقلق عليها ويفكرون فيما يدور برأسها، وفيما يجعلها تختلف عن بقية الناس الذين يعرفونهم .

وحينما أدركتها المنية ألفوا أنفسهم عاجزين عن تصور أنها ماتت .

حنة وبنيامين ستيفنز

- ١ -

فى مقتبل القرن الحالى، وقبل أن يحترف بنيامين ستيفنز مهنة صيد السمك، كان يعمل حارسًا لأحد الفنارات. وكانت هذه المهنة المكرمة التى كان يتوارثها الأبناء عن آبائهم قبل أن يتولاها خفر السواحل، قد احتكرتها أسرة ستيفنز طوال ثلاثة قرون من الزمان. وقد ولد "بن" وترعرع فى أرض صخرية لا تزيد مساحتها عن فدان. تنهض من البحر على بعد سبعة أميال من البر، مكونة أخطر قناة ملاحية. وكانت مرتع صباه، فكان مقلقلاً لا يستقر على حال. أما مسقط رأسه ومقر أسرته فكان بيتًا رمادى اللون صغيرًا ملحقًا بالفنار الذى يرتفع مائة قدم فوقه .

وكان منذ طفولته قد تسلق مع أبيه درجات الفنار الحديدية المؤدية إلى قمرة المصباح، وراقبه وهو ينظف مصباح البترول الكبير ويملأه والذى كان يرفع ويخفض كل بضع ساعات من الغسق حتى طلوع الفجر. ولما لم يكن طفلاً يتمتع بحساسية أو خيال متميز، ولا يعرف

سوى القليل عما يشغل بال الأطفال الآخرين، فقد أخذ بيئتة وتجاربه الفريدة قضية مسلمة. وكان يضايقه، ولم يكن بالشىء الغريب عليه، أن يجد نفسه مقيدًا فى أوقات المد العالى بالعارضة الحديدية للسلم الخارجى الصاعد إلى برج الفنار، حتى فى اليوم الذى قررت فيه أمه أنه بلغ من العمر ما يسمح له بأن يواجه مصيره بنفسه .

فإذا ما انخفض المد وزادت مساحة ملعبه قرابة عشرين قدمًا فى كل اتجاه - على الأخص فى أيام الصحو - كان يجد لديه الكثير من صنوف اللهو، فيقض أسراب الطيور وعلى الأخص طيور النورس من أعشاشها، ويستمتع بصيحاتها الجشاء الغاضبة، ويرقب عجول البحر وهى تمط أجسادها المشوقة وتتمطى فى حركات عضلية وعلى نحو مرتبك، ثم وهى تخرج من البحر لتصطلى فوق الصخور، ويسعى بين الأعشاب البحرية الكثيفة الزيتونية اللون، النامية عند حافة الماء بحثًا عن المتخلفات التى قذفها التيار إلى البر، وعن مصائد جراد البحر، و"الشمندورات" والعائمات الفلينية، وقطع الزجاج الملونة، وقطع الحبال المعقدة، ويستكشف الشقوق العميقة التى حفرتها الأمواج العاتية المتلاطمة فى الشطآن، وكان يستطيع الصيد بالقرب من حظيرة القارب عند الشاطئ فى أى وقت ما عدا الأيام العاصفة. وكان دائمًا يستمتع فى لذة طاغية بالزيارات التى كانت تفاجئهم بها السفينة الحكومية وهى تقفل محملة بالبترول وبغيره من المؤن وعاكفة على التفتيش على

السواحل. وفى أثناء الصيف حين كان البحر يتيح للقوارب الصغيرة واللنشات ومراكب السلوك مكاناً ترسو فيه عند الشاطئ يجيء الزوار أحياناً لتسلق السلالم الكثيرة التى أعلى برج الفنار ويشهدون مصباحه وهو يلقى بضيائه والجزر والساحل البعيد ويبدون عجبهم من أمر هذه الحياة المنفرة. وحينما شب عن الطوق كان ينصب الفخاخ على مقربة من الصخور المنحدرة عند الجانب الغربى من الفنار ويصيد جراد البحر ليأكله أهل البيت، أو حتى ليقدمه لوالده فيأخذه معه فى رحلاته النادرة إلى المناطق البرية المحيطة سعياً وراء البريد والمزيد من المؤن. وكانت أخته التى تصغره بخمس سنوات هى رفيقه الوحيد فى اللعب، وكانت مصدر ومثار قلق لأمها، وكثيراً ما كانت تقف كالعقبة الكأداء فى طريق خططه ومشروعاته .

وكان حظه من التعليم قليلاً، فلم يزد على المعاونة اليسيرة التى كان فى طوق أمه أن تقدمها له، ممثلة فى الكتب المستعارة من أقرب مدرسة إليهم، بالإضافة إلى الدروس التى كان يتلقاها على يد معلمة إرسالية السواحل الشابة المقدامة. وكانت تزور الناحية مرة أو مرتين فى العام تمكث خلالها مدة أسبوعين لتعليم – ما وسعها التعليم خلال تلك المدة المختصرة القصيرة – أبناء عمال الفنارات التى كانت تنتقل فيما بينها أحد عشر شهراً من كل عام. أما غرفة الدراسة التى تجمع هؤلاء الأطفال بها فلم تكن سوى المدخل الدائرى للفنار، وهو عبارة عن غرفة

صغيرة تزود فى تلك الفترات بمائدتين للكتابة ومقعدين صغيرين ومنضدة مصنوعة من خشب الصنوبر للمدرسة، التى كانت أخته ترحب بها دائمًا في اشتياق يفوق ترحيبه هو بها. وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره تركه أبوه مع أقاربه الذين كانوا يقيمون على البر طوال ثلاث أو أربع فترات مدرسية. ولم يكن حبه للكتب هناك بأفضل من حبه لها فى الفنار، وأحس بالغربة فى هذه الأماكن غير المألوفة به .

وقد نما شابًا مكتملاً وكان طويل القامة، قوى العضلات مفتول الساعدين ولو أنه كان سريع الحركة. وكان وسيمًا كذلك، فى خشونة آسرة، وعجرفة مصطنعة لإخفاء خشونته وفظاظته. وكان من الأمور المسلمة لديه أنه سوف يعمل يومًا فى فنار، ربما نفس الفنار الذى عمل فيه أبوه بعد تقاعده من الخدمة ورجوعه إلى الشاطئ ليعيش على البر بعد كفاحة الدؤوب لكى يؤمن مرور سفن من كل نوع فى القناة، سواء أكانت سفن صيد، أم سفنًا شراعية "سكونات" لنقل الأخشاب، أم البواخر التى تطوف السواحل، أم قوارب للنزهة .

- ٢ -

وحينما تخطى مرحلة الصبا شرع يحس بإرهاصات القلق تجتاحه من الداخل، ويفكر وئيداً وعلى نحو عملى فى تفصيلات أخرى ضرورية تتعلق بمستقبله؛ كان يعبر القناة بمفرده ما بين الحين والحين حينما

كانت طبيعة المد والريح تسمح بذلك ويذهب إلى المدن الصغيرة المجاورة ليستمتع بمناظرها ويشارك في الرقص، بمجرد أن تواتيه الشجاعة. وفى بعض الأحيان كان يلتقى هناك بابن حارس فنار مجاور فى منطقة خطرة كذلك من البحر تبعد عن فنار أبيه بقرابة عشرة أميال. ولم يكن من الأمور القليلة الحدوث أن يشتبك كلاهما فى جدل أو شجار مع الصبية المقيمين على البر. وكانا يخرجان بسهولة من مثل هذا اللقاء منتصرين حتى اشتهرا بالجرأة والقوة .

وفى إحدى هذه الرحلات القصيرة، وعندما انتهت واحدة من تلك المشاحنات، التقى بفتاة تدعى حنة آللى. وكان أبوها يمتلك مصنعًا للقواقع، وكان رجلاً ذا قدرات ومال فى قريتهم الساحلية. أما حنة فكانت فتاة نحيلة القوام، هيفاء القد، تجيد الرقص، وعلى استعداد لاغتفار عثراته فى الرقص، وحتى لأن تقود خطواته. وكان واضحًا أنها معجبة به. وكانت ترتدى ملابس جميلة اشترتها فى الحقيقة من بوسطن فى بعض أسفارها السنوية إلى هناك مع أحد أصدقائها. وكانت فى نظر الجميع فتاة طيبة، تعمل فى حبور من أجل والدها فى المصنع، وتعزف على الأرغن فى الكنيسة المعمدانية. ولم يكن أبواها راضيين عن ولعها بالرقص، ولكن – كما قال الشاب بنيامين من قبل – كان لكلمتها سلطان عليهما. ولم يكن بنيامين موضع إعجاب فتاة من قبل. ولما كانت حاله على ما هى عليه، وكان مستقبله الأكيد يتطلب

الاستقرار والمعونة، فقد طلب فى إحدى الأمسيات من حنة أن تتزوجه. وكم كانت راحة باله ورضاه حين قالت إنها سوف تتزوجه. وكان قد بلغ الحادية والعشرين فى ذلك الحين، وكانت حنة تقترب من الرابعة والعشرين .

وكان فى بعض الأحيان يفكر على نحو فيه كثير من القسوة إلى حد ما بأن الأمور قد تطورت على نحو رائع، ولو أن هذا الأسلوب من التفكير لم يكن ليقبله عقله. وكان أبوه فى سن الخمسين متصلب العود من الروماتيزم، وكان يجد فى صعود الدرج المؤدى إلى غرفة المصباح والكشاف فى الفنار شيئًا يزداد عسرًا . أما أمه التى حرمت فى صباها من مباهج الحياة على البر، فكانت تحن إلى استعادة تلك الأيام وأن تعيش ما بقى من عمرها بعيدًا عن الضباب الكثيف، والبحار الهائجة المائجة، والقلق الدائم ونواح طيور النورس الوحيدة. أما أخته التى كانت أكثر تقدمًا منه فى الدراسة - على الرغم من عدم انتظامها وقلة فرصها - فقد استطاعت الآن أن تذهب إلى المدرسة الثانوية التى طالما حلمت بالالتحاق بها . أما وقد كانت هذه ظروف "بن" فلم يكن ثمة من هو أكثر منه حظًا حين خلف أباه فى حراسة الفنار، فأصبح بذلك ثالث فرد فى الأسرة يتولى هذا العمل. وقد عرف مفتشو الحكومة وموظفوها منذ بعيد أن تقاليد الأسرة والنشأة صفات مأمونة يعتمد عليها فى حراسة السفن وإرشادها .

وبعد مرور عام قضته حنة فى الفنار، بعد أن ذوى إعجاب

أصدقائها كما ذوت فيها روح المغامرة والإقدام والشجاعة من قبل، أحست بالشقوة، وتملكها الحنين إلى أهلها وعشيرتها. وكثيراً ما بدت مشاكسة، ملحة، تريد الارتحال إلى البر أكثر من بنيامين الذى يعرف أن زيارات سفينة التموين الحكومية المفاجئة لا يؤمن لها جانب، والذى بات يحس بالمسئوليات الجديدة الملقاة على عاتقة. وكانت فرائصها ترتعد خوفًا إذا ما هبت العواصف، وتؤمن بالخرافات كلما وقعت أحداث تنذر بالسوء؛ مثل البرق والنيازك والشهب المتساقطة والحلقات الغريبة التى تحيط بالقمر، وحينما أوشكت على الوضع وأحست بثقل حركتها فى مطبخها الصغير، الذى يجب المحافظة على نظافته مع بقية البيت وما يصحب ذلك من تلميع الأطباق وترتيبها فى مكانها، وصقل مقابض الأبواب مهما كانت ظروفها، أصرت على المضى إلى بيت أبيها ساعة قبل أن يداهمها المخاض. فلن يعتمد على أى طبيب يعودها فى الفنار فى الوقت المناسب كما كانت تقول، حتى لو كانت ظروف الطقس تسمح باستدعائه. فإذا قبلت زوجات حراس الفنارات الأخريات انتظار ساعة الوضع فى مثل هذه العزلة المخيفة، فليفعلن ما يحلو لهن .

على أن إقامتهم فى الفنار لم يطل أمدها. فقد وجدت حنة أن المكان لا يصلح لاستقبال الوليد، بلى إنه خطر على طفل جموح لا يدرك للمسئولية معنى. وكانت تكره تقييد حركة ابنتها لإبعادها عن المخاطر. وظلت تنافح زوجها فى هذا الأمر وتعارضه حتى زاد حنقه من سخطها وشكواها. وفى ذات يوم من أيام الربيع وكان مشغولاً بالشاطئ

وحظيرة القارب، وقد انهمكت هى فى ترتيب المنزل من الدخل، سقطت الطفلة وكانت قد بلغت العام الثالث من عمرها، سقطت فى شق بين الصخور. ولم يعثروا عليها إلا بعد أن انقضت ساعة على الحادث، وبعد أن هبطت حركة المد. ولم يعرفوا قط أهى قد لقيت حتفها بسبب السقوط، أم أنها ماتت غرقًا فى المياه العميقة ؟

ويمجرد العثور على حارس آخر، لحق ستفينز بحنة على البر. ولم تنقض بضعة أشهر حتى صار صياداً لجراد البحر فى المستعمرة الواقعة عند الخور. وقد ظلت صورة طفلتهما الراحلة تطارد خيالها مدى سنوات، على الرغم من أنهما قلما أثارا الحديث بشأنها فيما بينهما، أو لأحد آخر على الإطلاق. وكانت حنة تحس كما لو كانت صخرة مشرشرة قد استقرت فى أعماقها، وتتقلب من أن لآخر كما تتقلب الصخور تحت سيل الموج العرم. وحينما أنجبت طفلاً بعد ذلك، أحست بأنها أقدر على نسيان الصخرة المقلقلة المشرشرة التى ظلت تمزق أحشاءها وتضغط على قلبها زمنًا طويلاً .

- ٣ -

ومنذ بداية حياتهما فى قرية صيد الأسماك، أبدوا اهتمامًا بالحياة خارج محيطها أكبر من اهتمام جيرانهم. وكانت حنة تقول إن "بن" يرحب بالتغيير من آن لآخر، وإنه لا شك أهل لهذا التغيير لقاء ما يبذله

من جـهـد ومـشـقـة. لقد كـان صـيـاداً مـثـابراً حـذراً ولو أنه لم يـكن قط مـغامراً، فلم يـسـتـثـمـر ماله الذى كسبه بعرق جبينه فـى مصـايد الرنجة بالإضافة إلى ما لديه من مصايد جراد البحر لأنه من ناحية لا يميل إلى العـمل مع غـيـره بذلك الارتبـاط والاشـتـراك الذى يتطلبـه الـعـمل فى المصايد، ولأنه يخشى أى اسـتـثـمـار يحتمل أن يـحتاج من البـداية إلى رأسمال يقترضـه من إحدى الشركات الكبيرة لتعبئة الأسماك فى شرقى الخليج. وكان يؤثر الاستمسـاك بصيد جراد البحر، بل إنه كان يكتفى بإلقاء شباكه فى المياه الهادئة نسبياً زيادة فى الحيطة والحـذر. لكـن مـا إن تـوفى والد حنة وترك لهـا نصيـبـاً كـبيراً فـى أرباحه، حتـى وجدا نفسيـهـمـا أخـيـراً وبعد انقضـاء قرابة عشر سنوات على إقامـتـهـمـا فى الخليج، أنهمـا يعيشـان فى ظروف طيبة. فقد كان فى وسعهما أن يمتلكا عـربة حـتـى قـبل أن يتـاح لجويل نورتون أن تقـتـصـد من المال مـا يـكفى لشراء واحدة بوقت طويل. وقد استخدما عربتهما فى أيام الأحد خاصة للهرب من حـيـاتهـمـا الرتيبـة الراكدة، ولرؤية شـىء من العـالم الخـارجى المحيط بهما .

وكان هـذا العـالم الخـارجى يبدو لهـمـا ممثـلاً بصـفـة أساسية فى كنيسة صغيرة تبعد عن مقرهما بعشرين ميلاً إلى الداخل عند رأس نهر تيدال. ولم تكن هذه الكنيسـة تنتمى لأى من الطوائف الدينية الشـائعة فى المناطق السـاحليـة بنيوإنجلند، وإنما كـانت مـركـزاً منعـزلاً للمـذهب

الإنجيلى المتطرف. وكان شعبها القليل نسبيًا يتألف من قوم تمتلئ قلوبهم بالحماسة والغيرة، يؤمنون إيمانًا جازمًا بكلمة اللّٰه المنزلة على أنبيائه ورسله. وكانوا يرون أن كل جملة من هذه الكلمة، بل وكل مقطع من مقطاعها، جاءت إملاء من اللّٰه ذاته، وأن المسيح قد أعلنها. وكان لاهوتهم – إذا شئنا أن نجل معتقداتهم البسيطة بهذا الوصف – لاهوتًا ظاهرًا ومحسوسًا للغاية؛ فقد كان يقتضى اعترافًا كاملاً بالخطيئة فى الماضى والحاضر، والتوبة المتواضعة، والتسليم العلنى، والغطس الكلى فى المياه الباردة فى أحد الخلجان، أو مصب نهر على مرأى من إخوتهم وأخواتهم، بعدها يمنحون الخلاص بلا قيد ولا شرط. ولقد كانت التعاليم الصارمة التى تنطوى عليها عقيدة حنة المعمدانية فى البداية تعد سمحة إذا قورنت بما تفرضه هذه العقيدة الإنجيلية من قيود لا رحمة فيها. والحق أن دخولها فى زمرة هؤلاء القديسين المحدثين. قد جعلها تحس بالإثم وتبكيت الضمير إلى الحد الذى أذعنت معه، بل وتاقت مختارة، لأن تنال عمادًا ثانيًا .

على أن دخول بنيامين فى هذه العقيدة الجديدة قد جاء بعد استقراره فى مهنة صيد السمك بعشرين عامًا. وفى بادئ الأمر كان يصحب حنة إلى الكنيسة أيام الآحاد، وأحيانًا إلى اجتماعات الصلاة المسائية التى كانت تعقد مرارًا، لأن الأمور كانت تتحسن بالتأكيد فى المنزل إذا ما سمح لها بمثل هذه الزيارات المستطابة لها. وشيئًا فشيئًا

بدأ إحساسه بالانتماء لمذهب أو عقيدة يثير فى قرارة نفسه حاجة تبغى إشباعًا كذلك. وربما كانت هذه العاطفة التى كان كثيرًا ما عبر عنها القسيس وشعب الكنيسة من أنه كما أن المسيح قد اختار صيادى السمك فى البداية ليتموا رسالته، هكذا الآن فإنه يحتاج إليهم أكثر من غيرهم من الناس لكى يؤدوا هذه الرسالة فى وقت تشير فيه كل الدلائل إلى أن لها نصيبًا فى صحوته الوانية. وكان يتمتع بصوت جميل، ومن طبقة منخفضة، وبعد فترة من التململ والاضطراب بدا يرتل مع الآخرين فى صبح أيام الآحاد. فى حين كانت حنة التى جلست إلى الإرغن الصغير تعزف على مفاتيحه أحيانًا تحدجه بنظرات تشجيع من فوق منصة الخطابة. وبدأت تعليقات العرفان والإعجاب من جيرانه الجدد تحلو فى أذنيه عند نهاية قداس الصباح. وكانت هذه المؤثرات جميعًا أقوى فى الحقيقة من كل تحذيرات حنة التى توجهها له عن "اليوم الآخر"، يوم يتشتت أفراد الأسر إلى الأبد، ويذهب كل منهم فى الطريق الذى يستحقه وبلا رحمة، أو أن يجتمع شملهم ويعيشوا فى سعادة وحبور، وقد انمحت كل نقائصهم ونسيت آثامهم. وحين أقبل موسم من مواسم الانتعاش المتواترة، استجمع شجاعته ثم خطا إلى كرسى المغفرة، وقد ارتفعت هامته فوق هامات المستغفرين الآخرين القليلين الباكين النادمين، وأحس براحة الضمير وهدوء البال، حتى بدون ذلك السلام النفسى الغريب الذى وعده به الواعظ بفصاحة وبلاغة .

ولم يكن له فى الكنيسة ما لحنة من نفوذ؛ فقد بدأت منذ دخلتها تشكل مصائرها. وكان وضعها - كعازفة أرغن ومشرفة على مدرسة الأحد الصغيرة - يضفى عليها مركزًا بارزًا مرموقًا. على أن هذه لم تكن غير مجرد مظاهر خارجية منظورة لقدرتها ونفوذها. وحينما كان "بن" يخرج عند الفجر إلى مصائده، كانت هى تجلس دائماً بجوار مائدة المطبخ لتتناول قدحًا ثانيًا من القهوة فى أثناء قراءتها اليومية للإنجيل فى ذلك الوقت كانت تستغرق فى التفكير فى مشكلات الكنيسة الأقل ظهورًا، وتغوص فى ثناياها كما يشق القندس الأسود طريقة إلى الشقوق الخفية وسط صخور الشاطئ. وإذ كانت مطمئنة إلى تعاليم الإنجيل التى تقول بأن كل إنسان مسئول عن خطاياه وأخطاء إخوانه، وإن فروع الشجرة الرديئة يجب قطعها وإلقاؤها فى النار وحرقها، أخذت تتدبر فى إمعان أولئك البشر الذين يكونون معًا بيعة الكنيسة، وراحت تزن كل فرد منهم بميزانها الخاص، وكانت تجد فى غالب الأحيان أن عددًا منهم يشوبه النقص. ثم إذا ما تقدم النهار وبدأت تغزل شباك الصيد لزوجها، شغلت بالتفكير فيما يجب عليها أن تفعله من أجل خير الجميع .

والحق أنها كانت نعم الجار إذا ما خلت من شواغلها الدينية، وكانت بطبعها ممرضة ممتازة ولا تضن بوقتها فى رعاية أى شخص ألم به مرض أو مكروه، وكثيرًا ما كانت تقطع الأميال لتؤدى هذا الواجب .

ولأنهـا سـيدة بيت وطاهية من أحـسن طراز؛ فقد كانت تحب أن تغدق على جيرانها من ربات البيوت من أطايب فنها في الطهي، حتى ولو لم يكونوا أقل مهارة منها. وقلما فرضت معتقداتها الدينية على غيرها من الجيران، ومرد ذلك أن زوجها الذي يرتبك بسهولة كان يحرم عليها أن تفعل ذلك. كان يقول لها : احبسي لسانك في فمك ودعيهم يتقلوا في نار جهنم إذا كانت تلك هي مشيئتهم .

وعلى الرغم من أن هذه الوصية تبدو لأول وهلة متعارضة مباشرة في نصها وجوهرها مع تلك الحماسة الدينية التي كان راعي الكنيسة يشجع بيعته عليها كل يوم أحد، فقد لزمت حنة جانب الحكمة واتبعت هذه الوصية في آخر الأمر .

- ٤ -

وفي يوم تشييع جنازة السيد هولت العجوز، حين ذهبت إلى المحل في أثناء تغيب لوسي نورتون عنه في الصباح، أخذت معها في سلة الخيط بعض "أفرخ" الورق، لكي تكتب خطاباً، وقد وضعت هذا الورق وسط صفحات الإنجيل الذي حملته معها لأنها كانت تشعر بأنها أكثر طمأنينة حين يكون معها، وكذلك لأنها ربما أرادت أن تقتبس بعض آياته في أثناء الكتابة. وكان لابد من تحرير الخطاب بكل عناية. وعلى الرغم

من أنها ظلت أيامًا تدير كلماته فى رأسها، فلم تصل إلى أحكم وأمضى أسلوب يصلح للتعبير عما تريد. وأخيرًا قررت أن تذهب إلى المحل باعتباره أنسب مكان لإنشائه حيث لن تكون ثمة مسائل تجارية للتحدث بشأنها، وحيث الجميع مشغولون بنصب الشباك وبعيداً عن الأطفال الذين خرجوا يلهون فى أمان أو بدونه، ولسبب آخر يستعصى على التفسير تمامًا، ومزعج على نحو غير واضح، يبدو أنها لم تكن تستطيع أن تخط كلمات هذا الخطاب على الورق وسط مناظر البيت المألوفة .

وكانت حنة تستخدم فى كل مراسلاتها ورقًا مطبوعًا فى أعلاه بآيات الإنجيل وتحذيراته. وقد اشترت هذا الورق من الكنيسة. وكانت حصيلة بيعه تذهب لزيادة الأموال اللازمة لعمل الإرسالية. وكانت إحدى هذه الأوراق تحمل آية تقول : "تعالوا إلى يا ثقيلى الأحمال". وفى ورقة ثانية : "حتى ولو كانت خطاياكم ذات لون قرمزى فإنها تصبح فى بياض الثلج. وإن تكن حمراء قانية، فإنه تصبح مثل الصوف" .

وهذا الخطاب الذى كان يتعلق بقسيس كنيستها الحالى، كان موجهًا إلى مجلس إحدى الإرساليات فى بوسطن، وكان هذا المجلس يهيمن على تعيين أولئك القساوسة المكرسين لخدمة تلك الطائفة الغيور التى تمثلها بيئة نهر تيدال. وكانت حنة قد أنفقت بضعة أسابيع فى تفكير عميق حول أعمال القسيس وأحواله، ووقتًا أقل من ذلك فيما

أقنعت نفسها بأنه صلاة لا تقل حرارة من أجل الهداية. وكان من العسير عليها أن تكتب الخطاب لأنها كتبت منذ بضعة أشهر مضت - بوصفها المسئولة عن شئون السكرتيرية للكنيسة - إلى نفس المجلس أن الجميع مرتاحون للقسيس سيمبسون وزوجته وأطفاله الثلاثة الصغار، وأن نفوسهم قد أنقذت من الضياع على نحو معجز، بفضل وعظه الملهم، وأن الأبراشية على وشك أن ترفع مرتبه الهزيل بعد أن أمضى أربع سنوات فى خدمة متفانية للطائفة. أما وهى مقدمة الآن على تحرير تقرير يخالف ذلك تمامًا؛ فقد كان عليها أن تبحث بعناية وتقى عن كلمات سديدة وأسباب معقولة تؤدى إلى إقناع المجلس فى بوسطن .

وكان القسيس سيمبسون شابًا ذا همة وحماسة، لا يعترف بقواعد النحو أو الأجرومية، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا . وقد اعتنق هذا المذهب الجديد فى خيمة من خيام الإنجيليين. نصبت فى طريق ناء يدعى طريق دمشق، وسط جبال كنتكى. وفى نفس هذا الوقت ونفس هذه الظروف تقريبًا ، عرف زوجته، وكانت فتاة خجولاً، رعديدة، تنتظر إليه وكأنه نبى حقيقى كبير. ولم تكن تريد سوى أن تسهم فى حنان وعطف بكل ما تملك، على قلة ما كانت تملك، فى سبيل رفعته وتقدمه. وقد اعتقد بإخلاص وتواضع أن العناية قد اختارته بالذات لإنقاذ البشرية من مهاوى الخطيئة. وما إن وقع على مدرسة تدريب متهالكة لا

تعنى كثيراً بالعلم قدر عنايتها بالغيرة والمثابرة، وفى حاجة ماسة للمتطوعين، حتى أمضى عامين فى دراسة الإنجيل ونزعات التجديد فى تفسيره. وكانت أول أبراشية له تتألف من شعب رأس نهر تيدال. وإلى هناك نقل هو وزوجته متاعهما القليل الرث فى إباء ومسرة كان يخشاهما فى بعض الأحيان، لأنهما ربما تعارضا تعارضًا خطرًا، ألم يكن شريرًا مع ما رسمه اللّٰه له ؟

ومنذ بداية اشتغاله بالكهنوت حتى الآن. على حد علمه، كانت حنة ستيفنز حصنه الحصين وركنه الركين. وقد أدارت له مدرسة الأحد، وعزفت له على الأرغن، واقترحت له موضوعات عظاته التى كان يقدح زناد فكره فيها، وكانت تسعى بحثًا عن النفوس المحتاجة إلى الهداية فى القرى النائية. وشجعت زوجته بالثقة وبأطباق الأطعمة الشهية وردت جوعتهما، وكست أطفالهما. والحق أنه كان يهاب زوجها ويستشعر بعض الخجل منه، بجثته الضخمة وقوته التى تبعث الرهبة فى القلوب. ومع ذلك فقد كان بنيامين ستيفنز بين الكرم، يعطى بسخاء فى أيام الآحاد. وذات مرة – وكان ذلك عصر يوم سبت – خرج بآل سيمبسون جميعًا فى نزهة بقاربه، وقد كانت التجربة مثيرة لهم حتى إنهم وجدوا من العسير عند عودتهم إلى البيت أن يهيئوا أنفسهم للصلوات العائلية. وكان القسيس يصلى للّٰه كل يوم من أجل حنة التى كانت تمثل له شخصيات دور كاس وبريسيلا ويونيس مجتمعات فى امرأة واحدة .

وكـان يصلى فى اسـتـمـاتـة لكى يظل مـقـيمًـا على الدوام فى هذه الكرمة بالذات حيث الجزاء وفير والحاجة إليه ماسة كذلك .

وكانت حنة تتذكر بدورها – وهـى تحـاول أن تكتب خطابـها – هذه المظاهر اللطيفة من إقـامـة السيـد سيمبسون بينهم فى شـىء من عدم راحة البال. وقد حاولت كذلك أن تخلص عقلها من ذكريات أخرى ملحة؛ من ذكرى تدمير أكبر أبنائه لحوض أزهار البتونيا فى بيتها، ومن قيام زوجة القسيس سيمـبسون مكانها فى العزف على الأرغن، حين يغطى الثلج الطريق إلى الكنيسـة، فـيشق على بنيامين وعليـهـا أن يجتـازاه. وكـانت تقـول لنفسـهـا فى اعـتـقـاد يزداد رسـوخًـا إنه لا عـلاقـة بين هذه الذكريات الجميلة وبين اقتناعها الصادق الأمين بحاجة الأبراشية إلى تغـيير رعاتهـا . ولا جدال فى أن أطفـال القسيس لابد أن يكونوا مـثـلاً يحتذى لا نذرًا، وأن زوجـة القسيس لا ينبغى بطبيعـة الحال أن تبدو متلهفة على تولى واجبات يؤديها غيرها على نحو مرض. على أن هذه كلها لم تكن سوى أعواد قش فى مهب الريح، ولن تدعـها لحظة تؤثر فى تلك الحقـائق التى لا جدال فـيها والتى تؤيد عجز السيـد سيمـبسـون. وجلست خلف منضدة المحل، تجاهد فـى تجميع هذه الأفكار فى عـقلها وأن تكتب خطابها .

وقـررت آخـر الأمـر أنه ربما كـان من الأفـضل أن تبـدأ مـع الأسف بالكلام عن افتقاره للشجاعة فى معـالجة الإفراط فى شرب الخمـر : تلك

الرذيلة المتفشية فى البيوت الواقعة على قيد خطوات منه، ولم يكن ثمة ما يبرر تقاعسه بعد أن زودته الكنيسة بعربة مستعملة. وتذكرت أن بعض ما لديها من ورق الخطابات معنون بهذه الكلمات : "لا تشته النبيذ الأحمر؛ ذلك لأنه يعض فى النهاية كما يعض الثعبان ويلسع كما تلسع الأفعى" .

وعند ذاك – وقد أوشكت أن تنتهى من اختيار الكلمات الأولى التى سوف تخطها فى الخطاب – أقبل الطفل راندال ليشترى منها عرق سوس بعشرة سنتيمات، وقد وقف الأطفال الآخرون فى انتظاره خارج المحل. وما إن فرغت من لف قضبان العرقسوس فى أغلفة من الورق والطفل يحملق فيها مذعوراً ووجهت إنذاراً إلى أحفادها من سدة الباب ألا ينسوا لحظة ما قالته لهم ساعة الإفطار، عادت تستأنف كتابة خطابها .

وكتبت بالقلم الرصاص لأنها كانت تريد أن تكون راضية عن كل حرف تخطه قبل أن تكتبه بالمداد على الورق النظيف .

سيدى القس :

لما كنت سكرتيرة كنيستنا وعازفة للأرغن طيلة عشر سنوات ومشرفة على مدرسة الأحد عندنا سنين عدة أرى لزاماً علىّ كمسيحية أن أقول لك مع ما فى ذلك من إيلام لنفسى أن ....

وحتى وهى تخط أولى كلمات الرسالة، رأت الأطفال يصعدون التل بحثًا عن الأزهار للسيدة هولت العجوز. ولم تر سببًا يدعو إلى أن يحول هذا المنظر بينها وبين المضى فى الكتابة. وعند ذلك الخاطر شعرت بحمرة الغضب تصعد فى وجنتيها. وبعد أن أبعدت صورة الأطفال من خيالها، تذكرت الحقيقة المقلقلة، وهى أن أحدًا لم يطلب إليها القيام بواجباتها الأخيرة نحو سارة هولت مع أنها كانت دائمًا تتلقى مثل هذه الطلبات فى مناسبات عديدة وفى قرى أهم بكثير من تلك القرية. ثم فكرت فى بن وهو ينصب شباكه للصيد وما قد يقوله ما لم تستطع أن تخفى موضوع الخطاب عنه. بل إنها تذكرت رغمًا عنها علائم الدهشة والسرور التى ارتسمت على وجه زوجة القسيس عندما قدمت لها الكعك والفطير اللذين صنعتهما لها بيديها مؤخرًا، وكانت إحداها تشبه كعكة صنعتها هذا الصباح فى محاولة للقضاء على مشاعر الحنق والشك التى تلاحقها من كل صوب وحدب. ومن وراء هذه الصور والذكريات الممضة وخلالها، تلك الصور والذكريات التى بدت وكأنها تعمد إلى تعذيبها، كان هناك وجه المرأة المتوفاة التى لم تذهب لإلقاء النظرة الأخيرة عليها .

ودقت ساعة لوسى نورتون الموضوعة فوق رف الموقد معلنة مرور الساعتين اللتين قدرتهما للانتهاء من تحرير خطابها. ولم يدر بخلدها أنه ليس هناك أدنى شك فى وجوب كتابة هذا الخطاب. لكنه كان

من الواضـح أن هذا اليـوم ليس هو اليـوم المناسب لمثل هذا العـمل. وحـينمـا رأت لوسى تهـبط عـبـر الطريق، وضـعت صـحـائف الورق فى الإنجيل وأخـفـتـه فى قـاع سلة الخيط قبل أن تخـرج إلى سـدة الباب لاستقبالها .

نورا وسيث بلودجيت

- ١ -

كان سيث بلودجيت أحد أولئك الصيادين الذين وقفوا عند المحل انتظاراً للأنباء التى أتت بها لوسى نورتون بعد أن عادت فى منتصف الليل من بيت هولت. ولم يعد شاباً صغيراً، وقلما سهر إلى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ولكنه انتظر كل هذا الوقت بدافع من الإحساس بالواجب نحو السيدة هولت العجوز؛ هولت التى كانت مكانتها من نفسه تدعوه للبقاء. كان رجلاً طويل القامة أحدب الظهر، ذا شعر كثيف أشيب وعينين سمراوين واسعتين فقدتا القدرة على التعبير لأن نورهما كان قد أخذ يخبو حثيثاً. وكثيراً ما فكرت لوسى أنه لابد كان وسيماً فى صباه.

وحين هم بالخروج مع الآخرين، قاد سام باركر خطاه وهو يهبط درجات عتب الباب وسط المطر والريح وسار معه إلى بيته الذى يقع على الطريق بُعد منزل بنيامين ستيفنز بقليل. وكان بن قد سبقهم إلى العودة خشية أن ينتاب حنة القلق والتبرم من جراء تأخيره. وكان بوسعهما أن

يسمعا صوت حذائه الثقيل وهو يخطو خلال الضباب كلما هدأ هدير الموج عند الشاطئ .

- ٢ -

كانت نورا بلودجيت قلقة كذلك، وإنما على نحو أشد اختلافًا عن قلق حنة ستيفنز. فقد رقدت فوق سريرها فى الجانب الذى تتخذه مكانًا لنومها وراحت تتساءل عما سوف يقوله سيث حين يقبل، هذا إذا قال شيئًا على الإطلاق، وإن تحدث حقًا فبماذا ترد عليه. وكانت قد درجت منذ وقت طويل على اصطناع ما سوف يدور بينهما من حوار، تنسج جزءًا منه من ذكرياتها الآفلة والجزء الأكبر من الأمل .

- هل قضت سارة هولت نحبها يا سيث ؟

- نعم يا نورا. لقد ماتت منذ ساعة .

- هل توفيت فى سلام ودون ألم ؟

- أظن هذا. ولم تقل لوسى شيئًا يخالف ذلك .

- كانت امرأة مسنة رائعة .

- نعم كانت رائعة .

- سوف نفتقدها كثيراً هنا .

- لن نرى مثيلاً لها بعد الآن فى مكان كهذا .

- لا . مع الأسف .

- هلا رغبت فى قدح من الشاى يا سيث ؟ لابد أنك مجهد للغاية. حسنًا ! لا بأس إلا أن تكونى مجهدة منهوكة القوى أنت أيضاً .

حتى وهى تصوغ الكلمات وتستعيدها بينها وبين نفسها فى ظلال مصباح الكيروسين الموضوع فوق المائدة، كانت تعرف أن هذا الكلمات لن ينطق بها. بل إن الأحداث العادية وغير العادية على حد سواء مثل صيد كثير من السمك، أو قارب كارلتون الجديد، أو مجىء آل راندال، قد فشلت جميعها فى أن تحيل محاوراتها التى كانت ترتجلها إلى شىء مسموع، حتى يمكن أن تستعين بها على تحطيم هذا الجدار السميك من الصمت الذى يقف سداً كئيبًا بينها وبين سيث. فما الذى كان يمكن أن تتمناه من موت سارة هولت ؟

كانت تعرف أن الكلمات وحدها لن تكفى حتى لو وجدت سبيلها إلى النطق؛ فقد كان الحديث يعنى شيئًا أكثر من الكلمات. كان يعنى التعاطف والاهتمام اللذين يشهد بهما نغم الصوت أو ارتفاعه وانخفاضه. ولقد مضت عدة سنوات أيام كانت تستطيع أن تستبعد الحدة والغضب من صوتها حين تحدث سيث بالكلمات الضرورية للغاية

التى لا مفر من قولها. وقالت لنفسها وهى تسمح دموعها بطرف الملاءة : إنها لم تحس بأى من هذه العواطف. وكانت صورها أقنعة لمشاعرها الحقيقة، لا تعرف المصدر الذى أتت منه. إنها تمقتها وتزدرى نفسها، ولكنها هزمتها بنبراتها المتباكية والمكتومة المحنقة. وامتلأت بالحسرة والقنوط تجاه الحاضر وبالفزع نحو المستقبل. لكن الحسرة والفزع لم يجديا فى وضع حد لارتفاع الجدار القائم بينها وبين سيث، الجدار المبنى من الحيرة القاسية المتبادلة، وضياع الأمل والشباب وصرامة الكد المنهك للقوى. وقد بدأ هذا الجدار يتكون فى أول الأمر على نحو غير محسوس لكن فى ثبات وإصرار، حتى صار تحطيمه أو تسلقه أمراً عسيراً على الإدراك ولا يمكن تصوره إلا فى لحظات الخيال الساحرة .

وهكذا تمددت فى فراشها فى الحجرة الصغيرة المظلمة، وأصاخت السمع إلى الأمواج العاتية وهى تتكسر عند الشاطئ تحت ضربات المد وقد دفعته الريح العاتية. ومع كل هدير كان المصباح يهتز ويتأجج لهيبه وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ولم يبق غير القليل من اليوم حتى مطلع فجر جديد رطيب على المساكن الخاوية الرطيبة. عند ذاك سوف ينتظرون فى صمت عودة المد من جديد حتى يستطيعوا الخروج إلى عرض البحر للصيد .

وسمعت الباب يفتح وخطوات سيث المترددة وهو يدخل المطبخ

ويداه تبحثان عن الضوء هناك وصوت أنفاسه وهو يطفئها. وجمعت أطراف جسمها كما يفعل الغواص قبل أن يهبط إلى أعماق المياه الجليدية. إنها ستحاول مرة أخرى أن تسيطر على صوتها وتبدأ على الأقل فى أن تحيى جوارها الخيالى .

ودخل سيث غرفة النوم، وقد ارتدى قميصه القديم وسترته "الكوردى روى" وراح يخلع حمالة السروال وهو يقبل استعداداً لخلعه. وجلست هى فى فراشها، تحاول أن تلاقى عينيه ثم تحققت فجأة من أنه عاجز عن رد تفرسها. وعلى الرغم من مرارة هذا اليقين وقسوته فقد منح قوة لعزمها .

وسألته بقولها :

– هل ماتت ؟

قال :

– نعم .

وصعد إلى الفراش ثم أطفأ النور وعادت هى إلى الرقاد، وهى تقاوم شعوراً يلح عليها بالتزحزح بعيداً. ومرة أخرى استجمعت كل ثقتها وقالت :

- أعتقد أنك تريد قدحًا من الشاى. أليس كذلك ؟

ونزلت عليه كلماتها كالصاعقة حتى صار كمن فقد الوعى. واستحال لبضع ثوان كطفل يرى فقاعات الصابون وهو يحاول أن يمسك بها قبل أن تنفجر وتتبخر أمام عينيه. ثم أدار ظهره لها ودفن رأسه فى وسادته .

وقال لها غاضبًا :

- هل جننت. لقد أوشكت الساعة على الواحدة صباحًا وأريد أن أنام .

- ٣ -

قبل أن يأتى إلى قرية الخليج كصياد لجراد البحر والرنجة، كان سيث بلودجيت يبحر إلى چورچ بانك وخليج فوندى سعيًا وراء سمك البكلاه والهاليبت والهادولة (سمك من جنس الرنجة)، وفى بعض الأوقات حين كانت تدفع بهم إلى هناك بواعث مجهولة، كان يخرج لصيد سمك المكاريل الأزرق والفضى، الذى كان البحر يموج بالألوف المؤلفة منه. فى خلال هذا الكد المضنى بدأت عيناه تؤلمانه؛ فالصيد فى الليالى الباردة القارسة - وقد بدت مقلتاه وكأنهما دائرتان براقتان متجمدتان، وتحت وطأة الشمس الحارقة التى كانت تحيل مياه البحر العريض إلى سائل

ملتهب بعض الأحيان، وخلال الضباب المحيط بأشعة الشمس التى تعشى البصر بعد ساعات من الحملقة فيها - قد دفع ثمنه غالياً من نور عينيه بعد عشرين عامًا ... وعندما اقترب من سن الأربعين، باع القارب الذى كان قد آل إليه وأصبح ربانه، وشرع يبحث على طول السواحل والخلجان الشرقية عن وسيلة لكسب الرزق أيسر من هذه المهنة، يمكن أن تسكن أو تؤجل مخاوفه إن لم تبددها نهائيًا؛ لقد كانت هذه المخاوف تمسك بخناقه فى بعض الأوقات وتهزه هزاً .

أما وقد تخفف الآن من أعبائه وصار فى وسعه أن يفكر فى الاستقرار فى بيت على الشاطئ، لا فى بيت أبيه، شعر بسعادة فائقة حين التقى بنورا بارتليت وغرق فى حبها حتى أذنيه. وقد جاءت من أقاصى الناحية لتعمل فى فندق صيفى قريب بمدينة نيوبرونزويك الساحلية. وكانت تنحدر من أسرة تعمل فى الزراعة ولم تكن تعرف شيئًا عن حياة البحر قط. ولو أوتيت من بعد النظر ما يسمح لها بمعرفة هذا اللون من الحياة، ربما ترددت فى قبول سيث بلودجيت رغم ما كان يتمتع به من سحر وقوة وجاذبية، وكانت تصغره بعشرة أعوام، وكانت متلهفة على الزواج وإنجاب الأطفال .

على أن حجم أسرتهما قد خيب ظنهما معًا، فبعد انقضاء ثلاثة أعوام على وصولها إلى قرية الخليج، ولد طفلهما الوحيد، وكان فتاة، وقد

كانا فخورين بأن يهيأ لها خير ما يعرفه الساحل من فرص تعليمية تتمثل في التحاقها بأقرب مدرسة عليا مدة أربع سنوات ثم تمضى عامين آخرين تتدرب على مهنة التدريس. ومع ذلك فلم يظهر أحد من الوالدين امتعاضًا حين قررت ابنتهما فجأة أن تتزوج بفتى يدعى كارلتون صوير، بل إن الوالد كان يحس فى قرارة نفسه براحة البال إزاء هذا القرار، وكان الفتى أحد أفراد فريق "طاقم" سفينة صيد، ولم تكن قد التقت به سوى بضع مرات حين كان يقبل ليلا إلى الخليج ليرسو بها بعض الوقت، وقد جرت وراءها شباك الصيد .

وقد أمضت نورا وسيث السنوات العشر الأولى من حياتهما الزوجية فى غير قليل من الرضا. وقد تحسن بصر سيث أو على الأقل لم يزدد سوءاً . وكان يحب دائمًا أن يقول إن هذا التحسن قد جاء من حسن الحظ حيث إنه فى حاجة لنور عينيه لكى يراقب زوجه ويرعاها. فما من سفينة دلفت إلى الخليج – سواء أكانت تعمل فى صيد السردين، أو من سفن خفر السواحل، أو طوافة من ذلك النوع الذى ظهر حديثًا وجاء رجالها إلى المحل ليأخذوا مؤنهم منه – إلا وأنعموا النظر فى حسن نورا كلما واتتهم الفرصة. كانت فارعة الطول، هيفاء القوام، ممشوقة القد من غير شك، ذات عينين زرقاوين تشعان حياة وبهجة، ينم طبعها عن بساطة وإخلاص، أما زوجها فكان فخوراً بها للغاية .

فى تلك السنوات كان سيث يخرج للصيد بعيداً على مقربة من الصخور القائمة عند الفنار الكبير. وقد ادخر بعض المال من نصيبه السخى الذى كان يحصل عليه من الصيد فى منطقة شواطئ نيوفوندلند واستطاع أن يدبر لنفسه شبكًا لصيد جراد البحر. كما شارك دانيل ثيرستون فى شباكه المنصوبة عند الشطآن الداخلية برأس هـرنج. وبعد موسمين أو ثلاثة من مواسم الصيد الطيبة كان حسابه فى مصرف ماكياس قد تضاعف، كما زاد عدد السندات "الكمبيالات" القديمة ذات الرائحة العطنة، والتى كان يحتفظ بها مثل غالبية الصيادين فى حافظة مصنوعة من قماش أشرعة المراكب ويخفيها فى البيت تارة هنا وتارة هناك. وذات مرة وكان يتعجل الخروج للصيد، نسى المكان الجديد الذى كان يخفى فيه الحافظة وحمل معه الحافظة المنتفخة فى أعماق الجيب الداخلى فى سترته الجلدية. وقد تذكرت نورا كيف كانت تقف عند مؤخرة السفينة، وتصحيح فيه وهو مشغول بإصلاح محركها العنيد .

- افترض أن المحرك توقف عن العمل وارتطمت بالصخور وثقبت وغرقت بكل هذه النقود التى تحملها معك؟

وبينما كان يضحك، وتعلو ضحكاته على صوت الريح والأمواج وهو يقول :

– مـادمت فى رفقـتـى فلسـوف ننفق كل سنتيـهم ملعـون حيـثمـا تذهب .

لقد خرجت للصيد معه منذ البداية، فيما عدا السنوات التى كانت ابنتـها مارى ما زالت صـغيرة. وقـد أحبت الاستـيقاظ فى البكور قبل طلوع الفجر، تأكل الفطير وتشرب القهوة "سكر زيادة"، وتجذب قوارب الصيد، أو تخوض المياه الضحلة إليها، وتصعد إلى المركب وتخرج به فى غبش الفجر، تطوف بالمراسى والعائمات ذات الأجراس المتمايلة، وترى فى صفاء الصبح على البعد، فيما وراء رأس البر إلى اليمين وجزيرة شاج فى الناحية الأخرى، البحر العريض المتماوج، يشقان فيه طريقهما الذى شبه رقم٧، وعلى الرغم من أنه كان من العسير تخيل كل هذا الآن، فكثيراً ما هدأ سيث من سرعة محرك المركب أو أوقفه تمامًا عندما يبزغ قرص الشمسس فوق الأفق وقد أخذت تتأرجح فوق صهوة الأمواج .

وكان يقول :

– أحب دائمًـا أن أخلد إلى السكون لحظة حين طلوع الشـمس. وقد كان من عادتى أن أفعل ذلك فى قوارب الصيد بالقرب من الشواطئ فى نيوفوندلاند. وكانت هذه العادة سببًا فى ضياع بعض السمك منى وفى توجيه اللوم الكثير إلى فى تلك الأيام .

وكان جيرانها يسرفون فى مدح طريقتها فى صنع الشباك. لكنها كانت تدفع ثمن هذا المديح بوسائل عديدة مؤلمة ليس أقلها خطأها فى تدليل زوجها. ولكنها كانت امرأة تفكر فى المستقبل كما تفكر فى الحاضر دائمًا على الرغم من أن أحلك صور هذا المستقبل كانت تبدو مضيئة وسط سواد حقيقتها. وتعلمت كل صغيرة وكبيرة فى فن صيد جراد البحر وبرعت فيه، حتى محرك المركب كانت تهتم به، ولو أن إدارته كانت دومًا من اختصاص سيث. وكانت هذه الأوليات بسيطة ولا تتطلب غير القليل من المرانة. أما الأشياء التى كانت تقتضى مرانة وخبرة والتى لم تعتدها أبدًا فهى الأشياء الأقل وضوحًا والتى كانا يتحركان خلالها ويعملان مثل : صدمات المياه المتجمدة والتى تعوم فيها عائمات شباك الصيد وتتدافع، والضباب وهو يطبق عليهم، وكثافته، وخطره الذى يعلنه صوت النفير المنطلق من الفنار الخفى الذى يشبه الأنين، وهطول المطر فجأة واختراقه لملابسها السميكة حتى يصل إلى جلدها، والبرق والرعد وهو يزأر فوق رؤوسهم مؤكدًا لهم ضعف حيلتهم بطريقة خفية، وحاجتهم إلى الملاذ والمأوى، والخوف الممض الذى كان ينتابها فى الأيام العاصفة والمد عال حينما كانا يقتربان من الصخور الحراء والموج يلاطمها .

هذه المخاوف كانت تبدأ على شكل شكوك وريب تم تنسى حينما يقتربان من المرفأ وتزداد إلى حد الفزع حين ترى سيث وقد انكب على

محرك المركب وتحركت يداه فى شك على فخاخ الصيد وهو يفرغها قبل أن يطعمها بالشص. ولما كانت لا تستطيع فى وجه جزعها الكظيم أن تخلص نفسها من القلق عليه، وأن تخط معه مستقبلاً مختلفًا، فقد ألفت نفسها تعمد إلى الانفعال الغاضب. وذات يوم وكانت الريح والمد فى مواجهتهما وكانت هى ممسكة بخطاف الصيد فى المركب والموج يؤرجحهما وإذا به يسقط منها فى البحر فى رمية مفاجئة. وكم كان جزعها حين سمعت نفسها وهى ترد على ازدراء سيث وامتعاضه الظاهر بسبب نزقها :

– أرجوك أن تتذكر جيداً أننى لست مضطرة لأن أخرج معك وأعاونك .

وعند ذاك أدركت بشعور من الغثيان – أشد كثيراً من ذلك الشعور الذى كانت تحسه إذا ما اعترضتهما فى البحر تلك الصخور المغمورة وسط الأمواج – أن كلماتها الغاضبة المنفعلة سوف تتكرر إلى ما لا نهاية وأنها بداية لنهاية فاجعة .

– ٥ –

كانت شباك سيث منصوبة الآن عند مصب نهر تيدال. ولما كان المكان الذى يصيد فيه أقرب من المكان الذى يصيد فيه جيرانهما فإنهما

لم يخرجا للصيد مبكرين فى الصباح. ومن ثم كان لدى نورا فسحة من الوقت لتنظيم البيت قبل أن تمضى إلى الشاطئ. وكان من عادة سيث أن يسبقها للخروج إلى أن تنتهى من شواغلها .

وكان الطريق الذى يسلكه مألوفًا لديه ويمر بجوار كوخه الذى يحتفظ فيه بما يصيد من سمك ثم يمضى وسط الحشائش إلى أن يصل إلى الصخور والحصباء المنتشرة عند الشاطئ. وكان يعرف كل تجويفة وكل انحناءة فى هذا الطريق ولذلك كان يعبره فى يسر على الرغم من ثقل المجاديف التى كان يحملها. وراحت نورا ترقبه من نافذة البيت الأمامية من آن لآن عند طلوع الشمس فى ذلك اليوم الذى ستشيع فيه جثمان سارة هولت وأدركت سر كبريائه الكئيبة. ثم ألفت نفسها وقد استولى عليها ضجر غاضب حين شهدته يتعثر فجأة فى الحصى الثقيل فسقط منه مجدافاه واضطر إلى أن يركع على يديه وركبتيه وينقب بين الصخور حتى استطاع آخر الأمر أن يمسك بهما .

وبعد أن لبست حذاءها المصنوع من المطاط وارتدت سويترها القديم لمواجهة برودة الماء رغم جمال الطقس فى ذلك الصباح، تساءلت كما كانت تتساءل آلاف المرات من قبل متى ينتهى هذا الكابوس الذى ينتابها كل يوم. ولقد أصبحت الآن ماهرة فى معالجة شئون المركب فيما عدا المحرك، تجيد استعمال السكان، وتتقن توجيه المركب للوصل إلى العائمات الخضر التى تثبت الشباك فى أماكنها وتمسك بحبالها

وتضعها فى يدى سيث حتى يستطيع أن يسحب فخاخها الثقيلة. ومع ذلك فلم يكن ليعهد إليها بالمحرك أبداً. وبطريقة ما كان يعتمد على اللمس دون النظر فى تشغيل ضوابطه المعتادة .

وراودها خاطر بأن هذا الكابوس ربما انتهى فجأة كما ينتهى أمثاله عادة : إلا أنهما بدلاً من أن يهبا من نومهما ليجدا نفسيهما سالمين فى فراشهما، ربما وجدا نفسيهما إزاء محرك لا حركة فيه وقد جنحا بقاربهما فى يأس بعيداً عن مدخل نهر تيدال، وقد اندفعا صوب الأمواج الهائلة التى تتكسر فوق الصخور والمياه الضحضاحة عند جزيرة شاج. وكانت تعرف جيداً أن هذه البقعة من الساحل سجلها حافل بمثل هذه الكوارث .

أما الأشياء التى لم يكن فى وسعها أن تسجلها بطريقة محسوسة، فهى الكوارث الأكثر فجيعة والتى تتمثل فى القطيعة والعزلة التى تدفع الناس فى يأس إلى المهاترات القاسية والغضب أو إلى صمت أشد قسوة وقد مزقت قلوبهم المخاوف والشفقة .

- ٦ -

وأخذت تفكر وهى واقفة بجوار السكان "الدفة"، ترقب فى حذر قاربهما وهو يشق عباب الموج إلى مصب نهر تيدال الواسع فى مواجهة

المد المرتفع المتلاحق. إنها لا تستطيع أن تتذكر يومًا مر عليها طيلة السنوات التي قضتها فى الخليج فى جمال هذا اليوم. وكانت تستطيع أن تلمح فى صعوبة، أمواج البحر المتلاحقة وهى تتدافع فوق الصخور القائمة عند الطرف الشمالى لجزيرة شاج. حتى الجزر الصغيرة هاردتاك وبمبكين وكاسل وإيجل روك الواقعة شرقًا وراء الأرض الممتدة على هيئة عنق لتحمى الساحل من بطش الأمواج كانت هى الأخر بادية للعيان لا تطفو عليها حلقات الزبد .

وراحت نورا ترقب سيث وهو مكب فوق المحرك وتمنت بكل الاشتياق الذى يختلج فى قلبها أن تتجاسر وتبدى رأيًا بسيطًا ولطيفًا على هذا التغير العجيب الذى طرأ على الطقس وبدا فى انقشاع الضباب وسكون الريح فجأة .

وبينما هما يمران بيت هولت القائم فوق مرتفع من الأرض على يسارها، وأبصرت تاديوس هولت يخرج من الباب الخلفى للمخزن الذى كان يستخدمه لحفظ ما يصيده من سمك ثم شرع ينقل بعض عائمات الشباك المكومة بجواره. وعندما رد عليهما ترددت أصداء صوته الحادة خلال الهواء الساكن. وتملكت نورا حيرة فيما إذا كانت تحييه برفع يدها فى يوم تشييع جنازة أمه. لكنه وضع حدًا لحيرتها برفع ذراعه محييًا، فردت تحيته وقد خامرها شعور غريب لذيذ بالزمالة والشكر .

وما كادت تنتهى من هذه التحية حتى فاجأها سيث بسؤال دون أن يظهر فى صوته أثر الانفعال :

– ما هذه الضوضاء التى يعج بها الشاطئ ؟

وبدالها فى لحظة أنها لن تستطيع الإجابة عن هذا السؤال؛ فقد احتبس الكلام فى حلقها. ثم حاولت أن تقول فجاء ردها فى صوت هادئ ومتزن :

– إنه ثاديوس ينقل عائمات شباكه .

وفى أثناء ذلك كان هناك بلشون يطير فوق رأسيهما وقد كشفت ضياء الشمس عن زرقة جناحيه العريضين. ودار بخلدها وهى تتطلع إلى الطائر من خلال دموعها أنها لم تر شيئًا أبهى من هذا المنظر. إنها مدينة له بشىء .

ثم قالت :

– إنه يحيينا ويرقبنا الآن .

وشهدت سيث ينتصب واقفًا فى برج المحرك ويواجه الشاطئ الذى لم يكن فى وسعه أن يراه. ثم راقبته وهو يرفع ذراعه فى اتجاه ثاديوس. وتصورت أنها لا تقدر على الصياح لأنه سوف يسمعها. ومرة أخرى سيطرت على صوتها وقالت :

- أنه يلوح لك مرة أخرى .

وعاد إلى مقعده وانحنى على المحرك، يدير ضوابطه. وتنحنح ثم أدار رأسه بعيداً وأخرج غليونه من جيبه. لكنه لم يشعله وإنما أطبق أسنانه على مبسمه. وبعد بضع دقائق، وبينا هما يتحركان تجاه أولى عائمات شباكهما، أدركت أنه على وشك أن يستأنف الحديث. وكان بوسعها أن تسمع همس كلماته المضطربة وهي تتصارع عند شفتيه تريد الانطلاق : "إن ثاديوس رجل طيب" .

قال ذلك وهو ينطق الكلمات في بطء ويحاول أن تخرج من بين شفتيه في غير اضطراب .

ولم يكن في ظنها أن تتوقع منه المزيد لكنه عاد فأضاف :

- على الرغم من كل ما يفعله فإنه أفضل من أغلبنا .

ثم مسحت عينيها بكمها. ولم يكن في وسعها أن تبصر العائمات الخضراء الطافية أمامها فوق سطح الماء الساكن إلا بصعوبة. واستولى عليها الغضب لكنه ظل حبيس نفسها. لقد خرجت لتنشر الشباك مع زوجها لا لتبكي كالطفل العبيط .

قالت وصوتها يتكسر قليلاً على الرغم من محاولتها السيطرة عليه :

- إنه رجل طيب، ولسوف يكابد الوحدة الآن .

قال :

- هذا أمر محتمل للغاية .

ومن مكمن خفى على الشاطئ نهض سرب من البط، متجهًا إلى البحر وأجنحته تئز فى الهواء .

أما هو فقد قال فى هدوء وهو يعض على غليونه :

- كان هذا دائمًا هو أفضل مكان للبط. ألا تتذكرين كيف كان من عادتنا أن نأتى إلى هنا منذ سنوات بحثًا عنه ؟

ماری وكارلتون صوير

- ١ -

كل من عرف ماری بلودجيت فی مدرسة المعلمات كان يقول إنها لا يمكن أن تتزوج أحداً على الإطلاق وهی فی كامل وعيها، إذا كان الزواج يعنی استقرارها بكل ما تتمتع به من هبات وإمكانيات فی هذا الخليج الموحش وفی هذه البقعة بكل ما تتمتع به من هبات وإمكانيات فی هذا الخليج الموحش وفی هذه البقعة المهجورة من الأرض. لقد هربت من حرمانه وضروراته، فما الذی يرغمها على العودة إليه. على أنه لو أتيح لهؤلاء الناس أن يعرفوا كارلتون صوير الشاب لكانت تجنياتهم عليها، أقل حدة .

جاء كارلتون صوير من منطقة باث حيث عرف أفراد أسرته منذ قرنين من الزمان بأنهم بناة سفن، وأصحاب سفن، وبأنهم سادة هذه الصناعة فی دنيا التجارة الخارجية. ولو أنه عاش قبل ذلك بقرن لساد عليهم كذلك وبلغ الصين عن طريق رأس الرجاء الصالح وجزر الهند الشرقية، يتاجر فی طريقه إلى هناك مع عدد من جزر الباسفيك من جزر

فيجي حتى هاواى قبل أن يصل إلى كانتون. وكان فى طوق المرء أن يتخيل كارلتون، وكأنه قد خلق لهذا اللون من الحياة. غير أن المؤلم فى الأمر أن هذه الحياة قد ولت إلى غير رجعة .

ومع ذلك فقد ظل البحر كدأبه دائمًا، وولد كارلتون وربى والبحر يمثل قطعة من نفسه بحكم الوراثة والطبع فى آن. ولم يكن فى وسعه أن يتصور أنه يتخلى عن درايته بالبحر ومخاطره ليسلك سبيل الهندسة البحرية أو الملاحة أو تصميم السفن كما فعل إخوته. لا ولم يكن يخال نفسه وقد ارتفع إلى مرتبة من الثقة والأمان فى أحواض بناء السفن عند مصب نهر كينبك مهما تكن فرصه فيها مواتية . وما إن أنهى تعليمه فى المدرسة الثانوية ورفض الالتحاق بالكلية فى وجه كل المغريات، حتى شرع يكتسب على الفور تلك المعرفة الوثيقة. وليس له من معلم غير البحر بكل ما يرعاه من مهن مختلفة وبكل ما يجلبه من مخاطر. ووجدت أسرته فيه شابًا لا يستقر على شىء مقضى عليه بالتفاهة، على الرغم من أنهم لم يذهبوا فى تفكيرهم إلى حد تصوره إنسانًا فاشلاً .

وربما كان مرحه وأخذه الحياة مأخذًا سهلاً يأبه لمسئولية، وحبه للمخاطرة، وميله إلى تذوق طعم كل تجربة مهما كانت، واستخفافه بالقدر والحظ هى الخلال التى حببت كارلتون صوير إلى مارى بلودجيت وجعلتها تعجب به أيما إعجاب خلال عطلتين صيفيتين من مدرسة المعلمات أمضتهما فى مسقط رأسها بالخليج. وإذ شهدت أبويها

يزدادان ميلاً إلى الانزواء وإحساسًا بالمرارة، وإذ ألفت نفسها تقع فى أحابيل يأسها دون أن تقدر على المقاومة، فقد رحبت بزياراته القليلة بشعور لذيذ من الارتياح .

وكان يصيد فى ذلك الوقت بالشباك بعد موسم للصيد بالسفن فى جلوسستر، وبعد قيامه بنقل الأخشاب من جزر المحيط جنوبيًا. وكان يقول : إن كل هذا مهام عملى اليومى فى البحر. والحق أنه كان يتعلم ما يريد أن يعلم. ولقد كان الصيد بالشباك عملية قذرة مرهقة بما فيه الكفاية حتى صار يسأم الاندلاف فى مركبه وسط الخلجان والمياه الضحلة ليلاً بحثًا عن أسماك الرنجة على ضوء مشعل، أو نشر الشباك عند الفجر عند شاطئ ضحل دون أن يصيب شيئًا فى نهاية المطاف، أو يقصم ظهره من كثرة الانحناء واغتراف السمك الهارب ووضعه فى عنبر المركب النتن. وبعد أن أتقن الصيد بالشباك، قرر أن يتعلم فن الصيد بطريق سد مجارى المياه وحصر السمك فيها وكذا صيد جراد البحر. وبعد ذلك ربما فكر فى إتقان عملية الصيد بطريقة الشباك المجرورة ولديه فسحة من الوقت، وكان كل شيء يثير حميته ويبعث فيه الرغبة والإقدام .

وكان الجميع ينظرون بإعجاب إلى طوله الفارع ووجهه النحيل وشعره الأشقر الكث وعينيه الرماديتين اللين تشعان ببريق العزم

والتصميم، وكان الجميع يحبونه كذلك حتى الصيادون الذين يستخدمون طريقة سد المجارى المائية، وهم الأعداء الألداء للصيادين بطريقة الشباك، استسلموا لسحر شخصيته وجاذبيته. وحينما كان مركبه يرسو فى الخليج بضع ليلة وينزل إلى البحر للاستحمام ثم يصعد إلى أحد الأكواخ القائمة فوق التل لينظف نفسه، كان يقضى ساعة فى المحل، يلقى خلالها الصيادين الصامتين العابسين ببشاشة، لاعنًا معهم متاعب صيد الرنجة اللعينة، مؤكدًا لهم أن الحظ السيئ كان حليف كلا الفريقين من الصيادين على حد سواء. وكان فى طوقه أن يقضى على تحفظ الغير وشكوكه حتى إذا كان هذا الغير هو سيث بلودجيت، الذى اعتاد أن يسير معه فى طريق العودة إلى البيت يتبادلان الحكايات عن الصيد عند الشواطئ فى نيوفوندلاند. ومثل أسلافه الذين ركبوا السفن والمراكب الشراعية وجابوا البحار، كان يجد الفتيات المتلهفات المتعطشات للحب فى كل ميناء ولو أن هذه الموانئ ذاتها فى هذه الأيام الحالية قلما منحت نزلاءها طعم الغرام القديم. ولما التقى بمارى بلودجيت كان أميل إلى الاعتقاد بأنه ربما كان ثمة شيء من الصدق فيما يقال عن الحب الوحيد أو الحب الأول والأخير .

ولم يتخل عنه هذا الوهم مرة واحدة خلال السنوات العشر من زواجهما. والحق أن هذه الصورة قد زادت حدة وعمقًا حتى غدت حقيقة راسخة. والمؤكد أن كارلتون صوير أمضى فى صيد جراد البحر

عدداً من السنين أكثر مما كان ينـوى. لكن بعـد أن أصبـح لديه حافز جديد، فقد اتخذ مستقبله وجهة مـختلـفة. وانتهـى به التفكـير إلى أنه يرغب فى مرساة آمنة على الأقل لمدة أطول. والآن وقد صار ملك أيديهما مركب جديد، فلم يعد ثمة ما يدعو لأن ينفق أربعة أو خمسة أشهر كل عام فى الاهتمام دون طائل بفخاخ الصيد فى كوخ السمك الخاص به، أو أن يمضى إلى الغـابات بحثًـا عن بعض الأخشـاب شـغـلاً للفـراغ والحـصـول على المال بالكد والعـرق. وقـد صنـع المـركب "مـارى بلودجيت" للصـيـد فى الشتـاء على وجه الخصوص. وكانت تصلح لأن يعمل فيها أى شىء، ولم تكن ثمة ريح أو أمواج يمكـن أن تشق عليها .

وكـان هذا المركب يأتـى بعد مـارى فى حبـه وغرامـه. بل إن مـارى كـانت تقـول أحيـانًا إن هذا المركب كان يحظى منه بعناية واهتـمام قد يفوقان مـا يكنه لطفليه من حب. وعندما تخلص من سفينة الصيد التى كان يستخدمها فى الخليج والتى كانت أقل شـأنًا ، كان يخرج بها إلى عرض البحر ويتأمل فى إعجاب وشغف كيف كانت تشق عباب الماء وتعتلى صهوة الموج بعد العاصفة، عند ذاك لم يكن يبغى شيئًا أكثر من هذا . وعندما كان يفكر فى أنه قد اشتراه بماله ومن عرق جبينه، كانت الفكرة تضىء عقله، كما كانت تضىء أنوارها الهادية وقد عاد من رحلة الصـيد فى إحدى ليـالى الخـريف. وفى أيام العزوبة حين لم يكن له من رفـيق سـوى البـحـر، كـان لا يهـتـم بما يكسب أو بماذا ينفق. أمـا الآن فـقد كانت زوجته تقول: "إن هذه الحياة الطائشة قد ولت إلى غير رجعة". فكفاها الديون التى تؤرقها وتقض مضاجعها .

- ٢ -

وكان كارلتون يقول حين سمع منها هذه الملاحظة العابرة، وبعد أن أعادتها على مسامعه أكثر من مرة، إنها بدأت ترن فى أذنيه كمثل من الأمثال القديمة . وعند ذاك وجدت مارى نفسها تفكر فى أن ما يقوله صدق لا ريب فيه، وحتى وهى فى أوج السعادة، كانت ظلال تزحف إلى حياتها لم تستبن شكلها فى بادئ الأمر، ولا استطاعت أن تطردها. وفيما صارت تلح عليها رغم ما كانت تشعر به من رضا، شرعت تحاول تحديد هذه الظلال. وانتهت إلى أنها فى جوهرها عبارة عن مخاوف من حاضرها دائمًا وتشاؤم من المستقبل الذى ينتظرها .

ولم تكن تخاف على حياة كارلتون وسلامته، ذلك الخوف الذى يؤرق زوجات العاملين فى البحر عادة. فلقد كانت ثقته البالغة بنفسه تجعلها موقنة بأنه حصان من أية مخاطر تجئ من الريح أو المد أو الضباب. وإنما كانت تخشى الأيام التى تنطوى عليها السنوات القادمة، حين تصبح المخاطر لا قيمة لها فى حد ذاتها، ولا تشعر أشجع القلوب بمتعة الانتصار عليها وتحديها. كانت تخشى أن ما بدا لها فى بعض الأحيان نتيجة للكد الرتيب المتواصل. كانت تخشى المسالك الخفية التى تتسرب العادة فيها حتى لا يصبح للعمل معها طعم أو مذاق، وأفول الشباب وما يقترن به من شجاعة وإقدام .

وعندما كانت تلتقى بأبيها عند الشاطئ لمواصلة كدحها الذى لا ينتهى، كان يتراءى لها أنها أكبر من سنها الحقيقية بعشرين عامًا وأنها مهزومة ولا صوت لها، ورأت أطفالها ترتسم على جباههم علائم الدهشة والقلق مثلما كانت، يختزنون المخاوف والشكوك ذخرًا لمستقبلهم. وعلى الرغم من عدم معقولية هذه التصورات، فقد كانت تعرف أنها تترقبها كالأشباح فى بقاع نائية تشبه المنطقة التى يعيشون فيها. وكانت كلما صحبت كارلتون إلى المدينة لشراء بعض الحاجيات، أو للذهاب إلى السينما، تخشى دائمًا العودة من الطريق؛ الطريق الطويل المقفر، لأن العودة فى ذاتها كانت تمثل لها شاشة تفصل الضوء عن الموسيقى، والخير والطمأنينة فى جانب، والرغبة فيهما التى لاتتحقق فى جانب آخر. وكانت البيوت القليلة التى كانا يمران عليها فى طريق عودتهما إلى منزلهما تعنى النوم القليل بعد يوم حافل بالكفاح والكد . أو الضوء الخافت المنبعث من نافذة مطبخ وهى تحكى عن امرأة لا تزال ساهرة لإنجاز عملها، وكانت شابه فى يوم من الأيام، تحب الرجل الذى تسلم الآن بوجوده كزوج لها وتحتمله ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

كانت على ثقة من أن هذه الظلال الزاحفة لم تتسلل إلى عقل كارلتون لتشغل باله أكثر من ساعة من عمره. حتى فى الشتاء الطويل الذى كانت ترقب مجيئه كل خريف فى شىء من الارتياب والفزع، كان

هو يضج بالمرح ويفرض عليها قلقه الذى كان ينتابه أحيانًا من الجمود لا القلق الناجم عن الخوف، وكان الطقس يثيره ولو أنه لم يثبط عزيمته. وكان يلعن الضباب ويمقته. لكن لم يزد عن كونه ظاهرة طبيعية لا تحمل فى طياتها أى معنى من معانى النذير أو الشؤم، أو رمزًا لكل ما هو محير أو غامض مروع. ومن حسن طالعها أن كارلتون لم يكن ممن يتعاملون فى الرموز أو كل ما يمت إليها بصلة .

ومن حسن طالعها كذلك أن كانت ثمة رموز ذات طبيعة مختلفة تمامًا تتعلق بها حين كانت عزلة الشتاء تزحف فى غير هوادة على منطقة الخليج. وفى بواكير الربيع حين كانت أسماك "السلمون" الصغيرة تتدافع على الغدران التى ذابت ثلوجها بالألوف مع المد العالى، كانا يستيقظان فى الظلام ويمشيان أميالاً وقد حملا مصابيحهما وسلالهما وراحا يخوضان مياه إحدى القنوات سعيًا وراء هذه الأسماك. وفى عصر بعض أيام الصيف كانا إذا ما فرغا من نشر شباكهما وأرقدا أطفالهما على ظهر مركبهما، عبرا القناة شرقًا واتجها إلى إحدى الجزر حيث يطهيان طعام العشاء ويرقبان القمر وهو يصعد فى كبد السماء، ثم وهو يمضى فى مساره الفضى. وكان الأطفال لا يزالون فى سن صغيرة، ومن ثم فلم يكونوا يرهقونها بعد بمشاكل تعليمهم وتدريبهم، ولو أن كارلتون كان يتمنى أن يكبر ابنه ويصبح ضابطًا بحريًا، وربما استطاع أن يحرز المجد وينال أوسمة الشرف فى حرب أخرى، كان

يتنبأ بوقوعها المتشائمون على الدوام. أما هى فلم تضع أية خطة لمستقبل ابنتها إذا استثنينا ذلك العزم الخفى على ألا تصبح يومًا ما زوجة لصياد .

- ٣ -

وفى الليلة السابقة على تشييع جنازة السيدة هولت، راحت تطوف بأرجاء البيت تنتظر عودة زوجها من جزيرة شاج مع سام باركر وجويل نورتون. أما الطفلان فكانت قد أودعتهما الفراش مبكراً. وحاولت أن تقرأ؛ لكنها وجدت ذلك أمراً متعذراً، فتناولت سلة الثياب القديمة لترتق ما يحتاج فيها إلى رتق، فلم تجد لديها استعداداً لهذا العمل أيضًا .

وكان مبعث ضيقها وقلقها يكمن فى الضباب، ولو أن هذا الإحساس كان يثير فيها شعوراً بالخجل من نفسها. ورغمًا من أن الأبواب والنوافذ كانت مغلقة، فإن الضباب تسلل إلى الغرفة من خلال فرج الأبواب ومن تحت أعقابها، وامتد إلى لهب المصباح الموضوع فوق المائدة، فأحاطة بالقتام. وحين امتلأ البيت به، وأصابها الدوار، وفتحت الباب ليدخل الهواء النقى، زحفت سحائبه ثم تسللت إلى الغرف الصغيرة وقد دفعتها ريح ثم استقرت على شكل حبات دقيقة من الندى

فـوق المناضـد، وبللت شـعـرها وكـست أزرارها. ولقـد التف الضـبـاب بأشـجـار السـرخس القـائمـة خلف البـيت وتضـافـر وسط الشـجـيرات، وتساقط فيها طلا محدثًا صوتًا رقيقًا كالطنين. وعندما دخلت غـرفة النوم لترقب بيت أبيـها من النافذة، لم تلمح أى بصيص من ضـيـاء هناك؛ بل ولم تستطع أن تتبين شـكل البيت ذاته. فقد اختفى كل شىء فى جوف هذا الضـبـاب الأبيض الذى بدا كـالكفن، وفـيـمـا عـدا ندف الماء وهى تتساقط فوق الشـجر، كان الصمت مطبقًا. وكان المد بعيدًا أو ساكنًا. وفى هذه اللحظة كانت تؤثر هدير الموج على السكون .

لقـد كانت ليلة خلقت للمـخـاوف. وجاهدت لكى تزيحـهـا بالانكبـاب على بعض الأعـمـال العـادية، فـراحت تطمـئن على الأطفـال النائمين، وأخذت تهيئ المائدة لعشاء كارلتون وتعد مـلابس جافـة ليرتديها عند عودته بدلاً من مـلابسـه المبتلة، ووضعت خـفه القـديم فوق رف المدفـئة. وحـاولت أن تشـحذ النار فى المصطلى، لكن الهواء المشبـع بالرطوبة سد فـتـحـات الموقـد، فـخـرجت منه حلقـات من الدخـان وراحت تتلوى حـول الأغطيـة السـوداء فتزيد المطبخ قتـامة وتفسـد هواءه. فـمضت إلى خـارج المنزل وجلست على الدرجة العليا من العتبة، فما كان من الضبـاب إلا أن غلفـهـا والتف حولـهـا على الفور. وجـذبت لفـافة من التبغ مـن الصندوق الموضوع فـى جيبـهـا. لكن الرطـوية اللاصقة بـأصابعها تخللتها حتـى قبل أن تفشل فى إشعال الثقاب .

وفكرت فى المرأة المتوفاة الراقدة فى بيتها المغلف بالضباب وبالصمت، وفى أجيال الرجال والنساء الذين عاشوا فى كنفه طول قرن ونصف قرن من الزمان أو يزيد كما كان الناس يقولون. وأبصرت جزيرة شاج فى عزلتها الموحشة والعمل الذى ذهب الرجال الثلاثة ليؤدوه هناك. ورأت فى هذا الذى جاء مع نهاية الصيف نذيراً بمجئ الشتاء، ينبئ عنه هذا الظلام المبكر .

وفى الساعة الثامنة حين سمعت صوت محرك مركب كارلتون وهو يصدر خفقات مكتومة، وصرير القارب الصغير عند الشاطئ وهم يرفعونه إلى أعلى وأصوات كارلتون وزميله وهم فى الطريق يتبادلون تحية المساء، كان الوهن قد أصابها وأنهكها البكاء .

- ٤ -

وعندما أقبل كارلتون، وهو يقطع الطريق إلى البيت فى خطوات واسعة وتبعها إلى الداخل، لحظت بسرعة أنه لم يكن منطلقًا كعادته فى مزاحه. قال :

- ناطحات السحاب خلف مدينتنا لا ترى الليلة، ولا أضواء غامرة فى الشارع الخامس. أما عن جزيرة شاج فهى آمن مكان للدفن لا للحياة، ولو مدة ساعتين فى هذا الضباب .

وقف وسط المطبخ الخابى الضياء، مبتلة ملابسه وقد أخذ الماء ينثال من فوقها ويسقط فى حذائه المطاط، ثم يجرى على أرض الغرفة. وكانت تستطيع أن تشم رائحة الصوف المبلل الزنخة، المشبع بالتراب والماء الملح. وتطلع إليها وفى عينيه تساؤل لم يتوقع منها أو من سواها أن يجيب عليه. وفجأة احتواها بين ذراعيه على نحو آثار فيها شعوراً لم تحسه من قبل بحاجته إليها .

قالت حين واتتها القدرة على الكلام :

– اخلع هذه الملابس المبتلة وخذ هذه التى جففتها لك منذ نصف ساعة فوق الفراش وسأعد لك طعام العشاء الآن .

– وهل تناولت عشاءك ؟

– لا . لم أقدر .

– حسناً أتوق إلى الطعام وحدى، حتى لو كان هذا الطعام شريحة من اللحم البقرى .

قالت بعد أن تركها تمضى، وقد توجه هو إلى غرفة النوم :

– لست بحاجة للانشغال بما آكل. سأقدم لك علبة اللوبية المحفوظة، إذا أمكننى أن أسخنها لك على هذا الموقد المتعب .

ومرة أخرى قال :

– حسناً .

وبعد قليل خرج من غرفة النوم مرتدياً معطفه الأحمر القطنى الذى كانت قد صنعته له منذ بضع سنوات كهديه فى عيد ميلاده. ولأول مرة استطاعت أن تذكره بهامته الطويلة وجسمه القوى وكيف كان يبدو مطأطأ الرأس منحنيًا، مجهداً، وكانت هناك خطوط فوق عينية لم تلحظ وجودها قط. وحين انتهى من وضع حذائه ومعطفه فى الكوخ خارج المطبخ ومن الاغتسال عند البالوعة حرك صفحتها وفنجانها وطبقها فى حرص إلى جواره فوق المائدة ثم رفع مقعدها ووضعه بجانبه .

واجتاحتها موجات من الشكر والعرفان وهما يتناولان عشاءهما . إنها لم تفهم قط أن الحزن يمكن أن يوحد كما يفرق ويلئم الجراح وينكأها، وأن المخاوف ما إن يعرفها المرء ويقتسمها مع الغير حتى تفقد ظلالها الزاحفة. وكان بين الحين والحين يضع سكينه أو شوكته جانبًا ليتحسس يديها وأصابعها ثم يمسك بهما بين يديه. ثم راح يقطع لها شرائح من الخبز المبطن بالزبد ويقدمها إليها فى هيام كما كان يفعل منذ سنوات، وقد شاعت ابتسامة وادعة فى محياه. لم تسأله عما حدث فى جزيرة شاج ولم ينبس هو بكلمة. وحين تحدث كان حديثه عن الطقس المتوقع فى الغد واستحالة أى تحسن ما بقيت الريح على حالها من العنف والشدة. وعجبت لأنها لم تبك. ربما لأنها ذرفت من الدمع الهتون ما جفف مآقيها. أو ربما لأن هناك أوقاتًا وأشياء تستعصى لعمقها على الدموع كما جاء فى قصيدة من الشعر لا تذكرها تمامًا .

وعجبت من أمر نفسها كذلك، لأن المخاوف التى استبدت بها قبل عودته قد انقشعت، وها هى ذى الآن راقدة بين أحضانه تنعم بالأمن والدفء. عند ذاك فقط حين أحست بجسده يسترخى ويروح فى نوم عميق، قررت أن تعيد طلاء عائمات شباكه كهدية غير متوقعة منها، بمجرد أن يتحسن هذا الطقس البشع .

دروزيللا ويست

- ١ -

واجهت دروزيللا ويست مشكلة فى صبيحة اليوم الذى توفيت فيه السيدة هولت. وكانت دروزيللا تعرف بين أصدقائها والمقربين إليها باسم ترودى، وكانوا يرون أن اسمها الحقيقى سمج ولا يناسبها. ولم تكن تريد الذهاب. إلى الجنازة، ولكنها لم تستطع أن تكتشف سبيلاً يعفيها من الذهاب. ولو تعللت بالمرض، فربما أسئ تفسير حالتها الصحية حتى من جانب امرأة فى طيبة لوسى نورتون. ولو قالت إنها تنتظر زيارة من أحد فى نفس هذا الوقت لكان ضيوفها نهبًا للريب والشكوك كما كانوا دائمًا. وكان الهابطون فى هذا المكان القفر، على قلة عددهم، سواء أكانوا من المنقبين عن الرخويات المتجهين إلى خليج مكاريل أم من صيادى البط، الباحثين عن خلجان وبواغيز أكثر عزلة، أم من الغرباء من أى نوع الذين يفدون، سواء من طريق البر أو البحر، كانوا جميعًا مثارًا لحديث الناس، تلوكهم الألسن وتدمغهم بصفاتهم بمجرد هبوطهم من هذه الناحية العزلاء. ومما زاد من ورطتها وحيرتها ارتباك ابنها

الصـــغير الذى خـــرج إلى مكـان لا تعرفه ليقطف الأزهار .

كـانت حينما استيقظت فى ســاعة مبكـــرة من ذلك الصبـاح، قد وجـدته فى المطبخ يأكل بعض قطع البسكويت فوق المائدة. وسـألت غاضبة :

- ماذا تظنك فاعلاً الآن .

قـال وهو يتطلع إلى أمـه وعيناه الزرقـاوان المستديرتان تعكسـان تعبير الواثق من نفسه :

- أتناول طعام فطورى. سنخرج فى الحال .

وأغاظتها حملقته وضايقتها. وسألته :

- إلى أين ؟

وأجاب فى بطء وفى دقة تبعث على الغيظ :

- لست أدرى، ولكننا ذاهبـون على أية حـال إلى مكان أبحث فـيـه عن أزهار للسيدة هولت العجوز. وحينما ننتهى من جمع عدد كبير منها، سنذهب به إلى بيتها. وهدفنا أن نغطى كل القارب به .

-.أى قارب؟ ماذا تعنى؟

وعاد الصبى يحملق فيها بنفاد صبر ثم قال :

– قلت لك بعد ظهر أمس، لكنك لم تسمعيني وأنت مشغولة بأولئك الضيوف الذين كانوا عندك. قلت إنهم سيحملونها إلى جزيرة شاج لتدفن هناك. لقد عاشت هناك ذات يوم منذ وقت طويل. سيحملونها على قارب خلف زورق بخارى بعد انتهاء الجنازة مباشرة. وكل رفاقى من الأطفال يعتزمون أن يغطوا هذا القارب بالأزهار .

– هذا ما تعتقد، ولكنك لن تذهب إلى أى جنازة فالجنائز ليست للأطفال .

وفى هدوء حمل وعاءه وملعقته إلى البالوعة حيث شطفهما فى عناية بالماء الذى اغترفه من الجردل الزنك الموضوع فوق الرف، ثم جففهما بمنشفة أخذها من فوق المشجب ثم حمل اللبانة والسكرية إلى الصوان. ثم قال وهو يبدو كمن يتجاهل كلام أمه ويستطرد فى تأكيد ورغبة :

– سنذهب جميعًا. فقد أعدت السيدة نورتون كل شىء لاستقبالنا. سنجلس على المقاعد الصغيرة المصفوفة فى المطبخ حيث كان من عادتنا أن نقرأ كتبنا للسيدة هولت العجوزة . ثم تناول "سويتره" من خلف مقعده أمام المنضدة ولبسه فوق قميصة وكتفيه النحيلتين .

قالت أمه :

– لا أظن أنك غسلت وجهك هذا الصباح. شكلك يدل على ذلك .

قال :

– بل فعلت رغم أنه لم يكن ثمة ماء ساخن، وكان الخشب رطبًا يصعب إضرام النار فيه. وقد حاولت، ولكننى لم أستطع. لم يعد عندنا وقود .

– أعد ما قلت. لقد بدأت تتحدث على طريقة الغوغاء فى هذا الساحل .

وعاد يقول، وهو ما زال متمسكًا بأهداب الصبر :

– لا يوجد أى وقود .

ثم عبر المطبخ إلى الباب الخارجى .

– أين معطفك الواقى من البلل؟. فالجو مشبع بالرطوبة بسبب هذا الضباب الكثيف .

قال فى هدوء :

– فوق شدة الباب .

ثم فتح الباب وشرع يخرج. ثم استدار وواجه أمه. وأنشأ يقول دون أن يفصح صوته عن أدنى عاطفة :

- يمكنك أن تعيدى هذا المسدس إلى المدعو تونى، وفى استطاعتك أن تشكريه، على أن تقولى له إننى لم أعد فى حاجة إلى المسدس. إنه موضوع فى صندوقه فوق حافة نافذة غرفة الاستقبال .

قالت أمه :

- أنت خنزير جحود .

وتحركت بسرعة نحوه، لكنها توقفت فجأة إزاء رصانته ورباطة جأشه .

- حسنًا ! سوف أراك فيما بعد .

- ٢ -

وبعد أن غادر البيت، وبعد أن انتهت مما كان بين يديها من عمل كثير، أو قدت نارًا بأن حطمت سلة من سلال القواقع خلف الموقد لكى تعد لها حطبًا، ثم أعدت بعض القهوة المركزة وعادة إلى الفراش بإبريق "كنكة" القهوة وفنجان وطبق. وتمددت فى ملابس النوم مستندة إلى الوسائد المريحة وأخذت ترشف القهوة على مهل وتدخن السجائر وهى تعيد النظر فى مشكلتها. وزاد من ضيقها أنه لم يكن لديها غير قليل من السجائر. وكان عليها أن تمضى إلى المحل لتحصل على المزيد

منها . لكنها لم تستملح الفكرة حين شهدت حنة ستيفنز مقبلة لتحل مكان لويس نورتون فى الدكان. وتملكتها الحيرة كذلك بسبب اضطرارها لأن تشترى السجائر نسيئة .

وكانت ترجو الذهاب إلى المدينة هذا الصباح، بل لقد أعدت نفسها لذلك، لتعبئة السردين فى المصنع. ولو كان فى وسعها أن تدبر هذا الأمر، لما ثارت أمامها مشكلة الجنازة الثقيلة على نفسها . وكانت كل الدلائل تشير إلى أن عملاً كثيراً ينتظرها، فقد علمت من أحد أصدقائها الذين جاءوا لزيارتها مساء البارحة أن أسماك الرنجة تجرى فى الخلجان متجهة إلى الشرق. وقال هذا الصديق إنهم سوف يكون عليهم أن يعملوا فى الصيد بضعة أسابيع، ومادامت أمهر من معظم النساء اللائى يعملن فى تعبئة الأسماك، فقد كان مؤقتًا أنها سوف تشتغل أى عدد من الساعات تريد .

وكان النقل يمثل مشكلة العمل فى المصنع ولم يكن فى طوقها أن تذهب إلى المدينة مع هذا الصديق إذا تأخر حتى الفجر كما كان يفعل أحيانًا. ولما كان وقت الفجر يمثل فورة النشاط بالنسبة لهؤلاء الصيادين التعساء. فقد كان إخراج زوارها من البيت قبل ظهور الصيادين وتكاثرها عند الساحل، هما من همومها المقيمة. ولم يكن ليخفف من قلقها أنهم ليسوا على استعداد للمغادرة، أو أن فى طوقها أن تطردهم. وكان جويل نورتون يأخذها معه دائمًا فى عربته كلما خرج بها عن طيب

خاطر. ورغم ما كان يبديه جويل نحوها من ود إلا أنها كانت تحس دائمًا بالارتباك والضيق معه. وقد كان فى وسعها أن تحتمل وطأة هذا الشعور، لكن لم يكن ثمة ضمان بأن يتاح لها الركوب معه عند العودة من المصنع ليلاً. وقد علقت آمالها آخر الأمر على آل راندال، لأن آمى راندال كانت تعمل ما بين الحين والحين فى تعبئة الأسماك، وكانت تلقى جيم فى الطريق دائمًا ذاهبًا إلى أى مكان أو راكبًا عربته. ولكنهم لم يقولوا لها إنهم ذاهبون إلى المدينة، وحتى لو خرجوا فى وقت أكثر تبكيرًا، فإما أنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة انتظارها، وإما أنها قامت فى ساعة متأخرة من الليل، فلم تتمكن من سماع ندائهم حين يمرون على بيتها. وقد حنقت عليهم لإهمالهم شأنها ثم حنقت على نفسها. أو إن شئنًا أن نكون أكثر دقة، حنقت على ذلك الموقف المهين الذى كان يحوجها إليهم .

ثم عادت مرة أخرى تتدبر مشكلتها. وانتهت إلى أنها لا تستطيع بحال أن ترغم نفسها على الذهاب إلى الجنازة فهى أولاً وقبل كل شىء لم تعرف المرأة العجوز المتوفاة إطلاقًا خلال السنة الطويلة التى قاستها وهى تقيم فى تلك البقعة البشعة من الساحل. والحق أنها لم ترها سوى عدد قليل من المرات حين كانت تضطر إلى البحث عن طفلها الصغير الذى كان مولعًا بالجرى إلى هناك إما مع غيره من الأطفال وإما بمفرده. وثانيًا لأنها لم تكن تحب حملقة جيرانها فيها ولا تقولاتهم

عليها وعلى ما كانت تستمتع به من مباهج قليلة، وهى التقولات التى كانت تعلم جيداً أنهم يثيرونها. وعلى أية حال فلكل امرئ أن يفعل ما يروق له. قالت هذا الكلام وهى تنفض رماد سيجارتها فى طبق القهوة. وأخيراً فإن الجنائز كانت تثير فيها شعوراً بالكآبة والانقباض. والله يعلم أن لديها من الهموم ما يكفى لجعلها تحس بالوحدة واليأس .

- ٣ -

وعلى غير عادتها راحت ترتدى ملابسها فى عناية وتأنق بعد أن استحمت. وبدت عليها النضارة والجمال فى حلتها القطنية الزرقاء وحذائها الأحمر، الذى تطلعت إليه فى شىء من الحسرة وهى تدفع قدميها النحيلتين فيه لأنها لم تكن قد دفعت ثمنه بعد. ثم غطت ثوبها بميدعة وقامت بعملية تنظيف شامل لبيتها الصغير. ومضت فى هذا العمل فى نشاط محموم، ثم "سمطت" الأقداح اللزجة الموضوعة فوق رف المطبخ ولمعتها، ثم تخلصت من بعض الزجاجات الفارغة بأن وضعتها فى حقيبة كبيرة من الورق، أخفتها وراء حوض الغسيل، وفرشت سريرها بملاءات نظيفة، واطمأنت إلى أن ابنها قد رتب سريره الصغير فى حجرة الجلوس وكنسها ونظفها تماماً. وكانت دائماً تحس أنها أحسن حالاً إذا ما هندمت بيتها على الأقل. وبعد أن انتهت من هذا العمل صار البيت فى منتهى النظافة والترتيب .

كانت فى حاجة ملحة إلى بعض السجائر، لكنها قررت أن تطلى أظافرها وهى تستجمع شجاعتها للنزول إلى الطريق والذهاب إلى المحل. وفى أثناء طلاء الأظافر يمكنها أن تدير فى رأسها كلمات خطاب تكتبه لزوجها. ولما أعيتها سبل الذهاب إلى مكتب البريد فى المدينة فكرت فى أنها تستطيع أن تعطى الخطاب لساعى البريد حين يمر ظهراً. وخطر ببالها وهى تنشر الطلاء فوق أظافرها وتتطلع فى اهتمام إلى يديها البيضاوين الناعمتين، أن سائقى السيارات الريفيين فى الجهات الأخرى التى عاشت فيها كثيراً ما يكونون على جانب من الشهامة فيدعون السائر فى الطريق إلى الركوب. أما أن تنتظر مثل هذه المكرمة من هذا الساعى الكهل الهزيل، فأمر بعيد الاحتمال، فضلاً عن أنها كانت تخشاه كما تخشى فضوله .

وما إن صارت يداها كأبهى ما تتمنى، وهندمت شعرها الأشقر القصير بالفرشاة أمام مرآة غرفة النوم ورتبته فى بساطة ورصانة بشريط أسود من المخمل ربطته حول رأسها، حتى خلعت الميدعة واتهمت نفسها بالبلاهة إذ كانت تخشى حنة ستيفنز، ومضت إلى المحل لتشترى ما تريد من سجائر. ورغماً عن حنة وخروجاً على كل مبادئها الأخلاقية والدينية، فقد تأثرت بأدب دروزيللا وأسلوبها فى الحديث الصادر عن القلب، وببساطة مظهرها وأناقتها وتعليقها اللطيف على روعة التغير الذى طرأ على الطقس. ومن حسن حظهما معًا أنهما لم يعرجا بالحديث على الجناز.

- ٤ -

وعندما عادت إلى البيت، جلست على الدرج، تستمتع بتدخين سيجارتين وتفكر فيما سوف تكتبه في الخطاب قبل أن تدخل وتجلس إلى المائدة في غرفة الجلوس. ومن درج المائدة أخذت دفتراً من ورق أزرق اللون باهتًا، مدموغًا في أعلى كل صفحة من صفحاته باسمها الذي عرفت به بين أصدقائها. وبعد لحظات قليلة من التدبير وتقليب الأمور، استعاضت عن هذا الدفتر ببعض صفحات من ورق أقل جودة. ثم راحت تكتب :

"عزيزي جورج"

ثم إذا ما أحست بالوحدة والقلق، ولم تعرف تمامًا ما تريد قوله، ولأن الخوف من جنازة السيدة هولت كان يثقل قلبها بالهم والكرب، ولأن البحر العريض الممتد أمامها كان يجعلها عصبية وحزينة حتى وسط هذه الشمس الساطعة التي جاءت بعد يوم مكفهر عاصف، فقد مضت إلى غرفة نومها، وفي شيء من الحذر أخذت كوبًا وأفرغت فيه قليلاً من "الچن" من زجاجة أخرجتها من "درج" مكتبها، وكانت غاية في الحيطة بالنسبة للكمية الصغيرة التي سمحت بها لنفسها. ثم عادت بالكوب إلى غرفة الجلوس وأشعلت سيجارة ثالثة وأخذت ترشف الشراب، وفي أثناء ذلك نزعت صفحة أخرى وبدأت الخطاب من جديد .

جورج :

أعود فأكتب إليك لأنك لم ترد على خطابى الذى بعثت لك به منذ ثلاثة أسابيع مضت وكنت قد ذكرت فيه أننى فى حاجة إلى نقود وأنا الآن أشد حاجة إليها. وقد يكون من الأفضل لك ألا تنبس ببنت شفة عما أكسبه من عملى .

ولتعلم أن ما أحصل عليه إنما يأتى من عرقى وكدحى القاصم للظهر فى مصنع تعبئة السردين. وعلى أية حال فأنا أفضل الموت فى هذا العمل على طلب سنتيم واحد منك. ولو كان ثمة سبيل للخروج من هذا المصنع إلى عمل آخر منتظم لفعلت. لكن ليس أمامى شيء من هذا القبيل للأسف. ولتذكر أن ما أحتاج إليه من مال ليس لى وإنما لأجل ولدك. وأنت تعرف مثلما أعرف أنه ابنك. وإذا لم تكن تعرف هذه الحقيقة فتعال لتعيش معنًا قليلاً ولترى بعينيك إلى أى حد هو يشبهك. إن أخلاقه ستفسد فى هذا المكان الحقير الذى أعيش فيه وهو لا يعبأ بى. وإنما يفعل ما يحلو له ويبعث الذعر فى قلبى حين يحملق فى وجهى ثم يتصرف على هواه. فإذا كانت أمك تريده إلى جوارها فليس لها إلا أن تأخذه. وصدقنى إذا قلت : إنه سوف يكون لها غنيمة باردة .

ربما أحببت البيت الذى ولدت فيه، أما أن فأمقته. وقد تكون بآل صوير الحمقى رغبة فى شرائه، إنهم يقولون إنه أفضل من بيتهم.

يا لهم من بله. إن أيًا من هذه الأكواخ لا يفضل غيره في هذه المباءة التي ألقيت بي فيها والتي تزداد نتنًا يومًا بعد يوم .

والآن ما عليك إلا أن تكتب لي وتعرفني بما اعتزمت في أمري وأمر ولدك. لم يعد لي في هذا المكان الكئيب الموحش غير الريح والضباب وزفير الموج. فلتذهب إذن إلى أي مكتب بريد وتبعث لي حوالة بمبلغ كبير، فلم يعد في طوقي أن أشتري حاجاتي من الدكان هنا نسيئة. وإذا لم تكن كرامة فعندي أنا كرامة وعزة نفس. ولم يعد يهمني في كثير أو قليل ما يقوله آل نورتون من أنك كنت ذات يوم ولدًا صغيرًا لطيفًا .

وأعود فأنذرك للمرة الأخيرة أنني سأغادر هذا المكان إلى غير رجعة. وفي استطاعتي أن أحصل على عمل حيثما ذهبت دون أن ينتابني الخوف والخبال كما ينتابني هنا. كفاك تبذيرًا وأرسل بعض ما تنفق على نفسك لزوجتك وطفلك .

د.و

ملحوظة : السيدة العجوز هولت التي كنت تحبها عندما كنت صبيًا توفيت عن تسعين عامًا، أي إنني أصغرها باثنين وستين عامًا. ومع ذلك فكم أتمنى لو وافتني المنية مثلها. وصدقني فلست أهزل، ولا تأخذ كلامي على سبيل المزاح، فأنا جادة فيما أقول .

أحست بالضعف والسقام حينما انتهت من خطابها، وكتبت العنوان على الظرف، وجلست فى البيت إلى أن عثرت على طابع بريد. وكان بودها لو أنها تجرعت بعض "الچن"، لكنها كانت مصممة على الابتعاد عن الدرج الذى ترقد فيه الزجاجة، فقد أدركت فى شىء من الرهبة الصادقة أنها أصبحت أكثر اعتماداً على الشراب فى الترويح عن نفسها وإغراق همومها ويأسها. وأدركت كذلك أن اليأس الذى كان ينتابها بعد أن تزول السكرة، يجل عن الوصف. زد على ذلك أنها لم تكن غافلة عن أن "الچن" شىء لا يشترى بالنسيئة، وأنه ما لم يتفضل أحد أصدقائها فيقدموا لها بعض هذا الشراب أو أن يتركوا لها قليلاً بعد زيارتهم، فربما صار اليأس رفيقها على الدوام.

وذهبت إلى المطبخ وأخذت قطعة من الرغيف الذى كانت قد ابتاعته من الدكان ووضعت فيه بعضًا من لحم الخنزير المعلب. ثم سخنت القهوة فى الوعاء واستعانت ببقايا السلة فى إحياء نار الموقد الخابية. وكان الخطاب فى جيب مئزرها وفى نيتها أن تنتظر سماع صوت عجلات عربة البريد وهى تقرقع فوق الطريق، فتهرول وتعطى الخطاب للسائق الذى قلما توقف عند صندوق الخطابات المصنوع من الألومنيوم والمثبت فى ميل على العمود المعوج.

وكانت لا تزال تحاول أن تجد لنفسها مخرجًا من ورطة الجنازة التى أمسكت بتلابيبها حين ترامى إلى سمعها صوت عربة البريد وهى تتدحرج فوق أخاديد الطريق وحصبائه. وفى سرعة مسحت فمها ويديها، وخلعت مئزرها، وبعد أن تحسست الشريط المعصوب فوق شعرها بلمسة تلقائية، خرجت تعدو للقائها. وزاد الأمل والشعور بالارتياح من ضربات قلبها حين أبصرت عربة أخرى تقترب من صندوق البريد حيث وقفت تتأرجح هابطة فوق رأس التل الطويل. وكانت العربة محملة بالمنقبين عن الرخويات، وقد جلس ثلاثة رجال على مقعد واحد فيها. وتوقفت عربة الرخويات فوق الحشائش المتشابكة عند الجانب البعيد من الطريق، لكى تفسح مكانًا يتقدم فيه ساعى البريد .

قال أحد الرجال الثلاثة :

– لأول مرة أضطر إلى التوقف بسبب المرور فى هذا الطريق .

وراح اثنان منهما يصوبان إليها نظرات الاستحسان وهى تسلم الخطاب لساعى البريد الصامت. وعندما مضى الرجل إلى حال سبيله، ظلاهما يتلكآن فى المسير .

وقل أصغرهما سنًا :

– يخيل إلىَّ أننى رأيتك من قبل فى مكان ما. أليس كذلك ؟

أجابت، وقد رفعت محياها فى حركة فاتنة :

- يغلب على ظنى .

وقال الآخر :

- يخيل إلى أننا شهدناها من قبل .

أما الرجل الأكبر سناً والذى كان يقود العربة، فلم يقل شيئاً، وأنشأ ينقل العدد .

وتشبثت بهذه اللحظة وقد وجدت فيها خلاصاً من حاضرها الماثل إن لم تكن تعويضاً للمستقبل .

ثم قالت :

- لا أظنك بقادر على أن تمضى بى إلى الطريق العام. فأنا مضطرة للعمل فى المصنع. لكن أصدقائى لم يكونوا يعرفون أننى ذاهبة لتعبئة السمك اليوم، فذهبوا بدونى .

وألقت بنظرة ماكرة نحو الرجل الأصغر، ثم قالت له :

- يبدو أن هناك متسعاً فى خلف العربة .

وفى ابتسامة تنم عن الإطراء قال .

- يوجد متسع هنا فى المقدمة. هات ما عندك من ...

واستدارت إلى بيتها، ومضت برهة بشعة تراءى لها خلالها أنها توشك أن تنفجر باكية من فرط شعورها بالغبطة والارتياح .

وناداها السائق متسائلاً :

– وكيف تعتزمين العودة ؟

وردت عليه قائلة :

– أنا وحظى .

وضحك الشابان وتغامزا . ثم قال أحدهما :

– أعتقد أنها لن تشغل بالها كثيرًا بأمر العودة الليلة .

قال الآخر :

– ولا بالعودة فى أية ليلة أخرى إن كنت تريد رأيى. ولتذكر جيداً أننى أول من قال لها إن بالعربة مكانًا يتسع لها .

دانيل ثيرستون

- ١ -

بعد أن ترك الطبيب لوسى نورتون عند الدكان فى ليلة وفاة سارة هولت، راح يصعد التل الطويل وسط الضباب والمطر لكى يعود دانيل ثيرستون . وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل وأصبح الوقت متأخراً جداً ولا يلائم زيارة أحد على الإطلاق . لكن لما كان أحد الأشخاص قد اتصل بمكتبه تليفونياً بعد ظهر ذلك اليوم وأبلغ أن الرجل العجوز يريد أن يراه، فقد رأى أن ينتهز الفرصة ويعوده. لا سيما وأنه لم يكن ينوى أن يقوم بمثل هذه الرحلة فى يومين متعاقبين .

وبينما هو يعالج سيارته وهى تمضى بين الصخور النائية، ويلعن أنوارها التى لم يكن لها أى أثر فى الضباب، راح يسائل نفسه مرة أخرى فى استغراب عما كان يفعل طوال السنوات الست التى قضاها فى هذه البقعة النائية من الساحل. لقد تلقى كثيراً من العروض لمزاولة المهنة فى أماكن أخرى لو أوتى وقتًا لدراستها لأغرته بالرحيل عن الساحل، ولفتح عيادات يرجى منها فى مدن متحضرة، حيث لا يكتفى

بدفع أجر الطبيب، وإنما فى وسعهم أيضًا أن يفصحوا له عما يشكون منه فى لغة مفهومة، فيجنبوه تلك المشقة التى يعانيها مع أهل الساحل وقد درجوا على الزمجرة أو المراوغة فى مثل هذه الأماكن. ربما أتيح له أن يغشى العيادات، وأن يتبادل الرأى مع الإخصائيين من الأطباء، وأن يشخص أمراضًا أخرى غير أوجاع القلب التى يشكو منها الصيادون والملاحون الذين يجوبون البحار الهائجة وأمراض المعدة التى تنجم عن تناول الأطعمة غير المقبولة أو بسبب الإكثار من الطعام وداء النقرس الذى يصيب معظم الصيادين فى نهاية المطاف بسبب التعرض للبرد والضباب. ثم ما الذى يجبره على الخروج فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لعيادة وغد عجوز، كان حريًا أن يموت بضعف القلب أو ضغط الدم منذ ثلاث سنوات مضت حين زاره الطبيب لأول مرة. هذه هى الحقيقة التى لم يكن قادرًا على قولها.

وكان يعرف أنه حين يبلغ قمة التل، إذا قدر له أن يبلغها، لابد أن يتجه إلى اليسار ويتعثر بسيارته مسافة ربع ميل بعد ذلك فى طريق وعر خشن متكاثف الشجر ثم ينحدر خلال دغل الشجر إلى البيت الذى يقيم فيه دانيل ثيرستون . وبينما هو ماضٍ فى طريقه أصابه الذعر حين أبصر خلال الضباب أشعة متقطعة صادرة عن نور كشاف بالقرب منه، واستطاع أن يميز وراءه وجه رجل واقف بجانب الطريق . وسرعان ما عتم الرجل الضوء، لكن الطبيب كان أسبق منه إلى كوابح "فرامل" سيارته.

وسأل فى حدة :

– أهذا أنت يا رندال ؟ ولم تخرج إلى هنا فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

وتردد الرجل برهة ثم قال:

– الحق أننى فكرت فى أنك ربما تكون قادمًا. وقد عرفت أن دان العجوز كان يريدك.

قال الطبيب فى لهجة تنم عن تهكم خفيف لم تفت على رفيقه الذى لم يكن يتوقع لقاءه:

– إذن كنت تنتظرنى. وما الذى يشكو منه دان؟

– لست أعتقد أنه هو الذى يشكو، بل كلبه.

– كلبه ... يا الله ! . أما كفانى ما تجشمته من مشقة هذه الليلة؟.

ومرة أخرى أضاء الرجل كشافه واستطاع على ضوئه أن يميز شكل سيارة الطبيب وسط الضباب.

– الحقيقة أن دان يعتز بهذا الكلب . ويمكّنك أن تقول إنه يمثل كل ما يملك فى هذه الدنيا. وهو يعتقد أنه على وشك أن يموت.

– لست أدرى لمَ لمْ يمت هو ؟ ومن الذى يرعى شئونه؟

– إنه يصنع بيديه معظم ما يحتاج إليه . وتقوم زوجى بطهو طعامه ما بين الحين والحين.

وفى بعض الأحيان تذهب ابنتى الصغيرة إلى بيته بعد عودته من طرح شباكه فى البحر . ويلعبان معًا لعبة المدرسة.

– يلعبان ماذا ؟

قال الرجل فى صوت وديع حيَّر الطبيب فى هذه اللحظة:

– يلعبان لعبة المدرسة. فقد احتفظ دان بسبورة ودرج قديم من مدرسة خليج مكاريل قبل أن تهدم.

قال الطبيب:

– لا بد أنه قد فعل ذلك على نحو ما .

– حسنًا . لست أعتقد أن هذه التختة والدرج القديم بذات قيمة. وقد اعتاد أن يجلس عليها عندما كان صبيًا . إنه يعطف على الأطفال . ويحب ابنتى الصغيرة كثيراً . وهما يؤثران لعبة المدرسة.

وسأله الطبيب عن الوقت وقد اعتمد بمعصمه على الرف الأمامى.

ثم قال:

– يبدو أن رطوبة الضباب قد أوقفت ساعتى.

ورد الرجل فى عجلة:

- إنها تقترب من الواحدة.

وأرخى الطبيب فرامل السيارة، فانزلقت إلى الوراء فوق الحصباء.

ثم عاد الرجل يقول:

- سمعت أن صحة السيدة هولت تتدهور بسرعة.

قال الطبيب وهو يندفع بسيارته فوق الحصى:

- لقد ماتت.

وناداه الرجل قائلاً:

- عليك الآن أن تأخذ الحذر من عثرات الطريق.

- ٢ -

بلغ الطبيب قمة التل ثم اتجه إلى اليسار وهو يزال مهدئًا سرعة السيارة مسافة ربع ميل على الطريق الوعر الذى كان يمضى فى انحدار وسط أشجار الحور التى بللها الضباب الرطب. وبدأ يحس بالرياح القادمة من البحر، باردة رطبة. وكان الضباب أقل كثافة عند

هـذه الربوة. وفى ذراها وسط منطقـة فـضـاء على السـاحل وفـوق ركـام الصـخـر، كـان يقوم بيت صـغـيـر أحـمـر تحـوطه شـبـاك جـراد البـحـر، وبجانبه كوخ منخفض رمادى اللون لخزن أدوات الصيد. فى هذه المنطقة الفـضـاء أوقف الطـبـيب سـيـارته وأطـفـأ أنوارها ثم اتجـه إلى النافـذتين الأماميتين.

وكان فى مقدوره أن يرى بوضوح ما بداخل الحجرة الوحيدة التى يضـيـئـهـا مـصـبـاح كـبـيـر يعمل بالكيـروسين، موضـوع فـوق مـائدة فى وسطهـا ، مـغطاه بالمشمع الأبيض . وكـانت الحـجـرة واسـعـة، غـاية فى النظافة والنظام. وفى زاوية الحجرة وإلى يمين بابها الوحيد كان هناك موقد خشبى أسود. أما الحـائط المجاور للموقد فقد علقت عليـه رفوف صفت فوقـهـا الأطبـاق ، كمـا دقت فـيـه خطاطيف لتعليق أدوات الطهى. وبجوارها حوض للغسيل يستمد ماءه من مضخة خضراء.

وفى الجـانب المقابل من الغـرفـة تقـوم تخـتـة مـدرسـيـة بدرجـهـا وفـوق الحـائط ورقـة كـبـيـرة مـربعـة الشكل، مطـلـيـة بالـقـار، كـان واضـحًا أنها تسـتـخـدم كـسـبورة. وفى الركن الواقع إلى يسار البـاب نصب سـريـر قـديم الـطـراز كـومت فـوقـه مـلاءات فى غـيـر ترتيب وأحاطتـه الوسائد .

وإلى جـوار السـرير وقف رجل عـجـوز، يلوح فى بطء بمروحـة من سعف النخيل. وأخـذ الطبيب يفـكـر وقـد وقـف ينظر من خـلال النافـذة،

إنه لم يـر واحـدة من تلك المراوح منذ كـان صـبـيًـا، يذهـب إلى الكنيـسـة بصـحـبة جدته فى مـدينة المين التى ولد ونشـأ فـيـهـا. وعندمـا بـدأ يتـحـرك نحـو الباب خـلال العـشب الأشعث المبتل، شـهـد الرجل العـجوز يغـادر فراشه ويذهب ليفتحه له. ثم رأى كلبًا ممددًا فوق كومة الملاءات وقـد رفـع رأسه بعناية فوق إحدى الوسـائد.

وفـتح الرجل العـجـوز البـاب دون أن يحـيى القـادم، لكن فـى ارتـيـاح ظاهر. كـان طويل القـامـة، مـقـوس الأكتـاف ويرتدى قـمـيـصًـا قطنيًـا أزرق اللون ، مفتوحًا عند الرقبة وسراويل من "الكردورى" الأسمر لا شكل لها. أمـا شـعـره الأبـيض الكثـيف، مـرتبًـا ومفـروقًـا. وكـان حـاجـبـاه الأبيـضـان الثقيـلان يـغطيـان عينيـه على نـحـو مـألوف بين أهل البـحـر، ويشـع منهـمـا بريق خـاطـف يـدل عـلى الـحـذر وفـيهـمـا لمعان طـفـيـف كلـمعـان الـزجـاج. أمـا وجـهه فقد بدا للطبيب أحـمـر قـانيًـا، لكن ربمـا كـان ذلك راجـعًـا إلى شـدة الحرارة فـى الغرفـة. وبدت أسنانه من خـلف شفـتيه المشققتين، فى حـاجة إلى عنـاية، فلم يكن لديه سـوى سنتين ذهـبيتين ثابـتتين وسط بقـايا الأسنان الأخـرى، المصطبغة بالطباق.

وكان الطبيب هو البادئ بالكلام. قال:

– قـل لى بربك يا دان مـا الذى حدث هنا حتى تـدفعنى للخـروج من بيتى فى ليـلة كهـذه ؟.

وأطبق الرجل العجوز فمه ثم تحرك نحو السرير ، وبعد أن أمسك بالمروحة شرع يحركها إلى الأمام والخلف فوق كلب أحمر خشن الشعر،لا يبدو أنه ينتمى إلى سلالة معروفة، وقد رقد فى هدوء فوق كومة الملاءات . وأمعن الطبيب النظر فى الكلب ثم تساءل:

– مم يشكو ؟

– منذ يومين والزكام ممسك بتلابيبه ولا يستطيع أن يتنفس تمامًا، مالم أهش له بالمروحة.

– وكم من الوقت أمضيت فى هذا العمل؟

– بضع ساعات فيما أظن.

وخلع الطبيب معطفه ثم قال:

– الحرارة شديدة جدًا لكليكما هنا . افتح الباب أو افتح النافذة.

قال الرجل العجوز:

– لن أفتح شيئًا . إنه يرتعش جدًا.

– وبماذا كنت تطعمه؟

– بعض اللبن الساخن . ولكنه لا يقرب شيئًا .

وانحنى الطبيب فوق السرير وفحص الكلب، بينما ظل الرجل العجوز يهوى بالمروحة. ثم اعتدل وأمسك بالرجل العجوز من ذراعه

وقال له وهو يعاونه على الجلوس فى مقعد هـزاز:

– اجلس هنا ولا تغـادر المقـعـد حـتى آتى ببـعض الماء السـاخن لأضيفه لهذا البراندى (الخمر) وأعنى بكلبك.

ثم عاد من المرقد حاملاً فنجاناً يتصاعد منه البخار ، وقال للرجل العجـوز:

– تجرع هذا الفنجان ودع هذه المروحة جانبًا.

جلس الرجل العجوز فى مقعده مستسلمًا لأوامر الطبيب، وراح يرشف المشـروب السـاخن . ولم يكن يريد الجلوس ولكنه أحس بعض الوقت بهياج يضطـرم فى ركبتيه وقدميه. وهـنـا أحس بأنه هـزم، وحـرك المقعد الهزاز حتى يستطيع أن يرقب السرير وقال:

– هذا الكلب لا يألف الغرباء فى يسر ولا صديق له سواى .

وبعد بضع دقائق ترك الطبيب السرير وجذب مقعداً خشبيًا مستقيم الظهر فى مواجهة المقعد الهزاز ثم جلس وقال فى هدوء :

– دان . لقـد نفق الكلب . ولم يكن مـريضًـا وإنما كـان يعـانى الشيخوخة والهزال . كم كان عمره ؟

سكت دان عن الكلام بعض الوقت. ولاحظ الطبـيب أن ركـبـتـيـه ترتعشـان داخل سـراويله وأنـه لا يكاد يقدر على رفع فنجان البراندى

إلى فمه. ثم فتح الطبيب الباب. وعند ذاك اندفعت نفحة من هواء البحر إلى الداخل فأطارت مفرش المائدة المشمع وتراقص لهب المصباح ورفع شعر الكلب الأحمر . وهب الرجل العجوز واقفًا ومضى يترنح حتى الباب ، وأغلقه ثم عاد إلى المقعد وجلس . قال :

- ثلاثة عشر عامًا .

قال الطبيب:

- هذا عمر بالنسبة لكلب. إن ثلاثة عشر عامًا فى عمر كلب تساوى تسعين عامًا فى حياة الآدمى . خير لك أن تقتنى كلبًا آخر . أعرف صديقًا يؤوى بعض الجراء اللطيفة يريد أن يتخلص منها . سآتى لك بواحد منها حين أعود بعد يوم أو يومين.

- لست أريد كلبًا آخر .

- حسنًا . أنت وشأنك . ولكن الشيء المؤكد أنه لا يمكن أن تبقى وهذا الكلب فى هذا المكان الشديد الدفء . فلتطفئ هذه النيران المشتعلة فى الموقد ولتنعم ببعض النوم . ولن يمكنك أن تنزل البحر للصيد اليوم أو غدًا. سأترك لك بعض البراندى وهذه الحبوب هنا . فلتتجرعها معًا وتذهب إلى فراشك . سأدثر كلبك وآخذه معى . سأدفنه فى حديقة الورد عندى . ولا شك أن هذا المكان يلائمه.

قال الرجل العجوز فى شراسة:

– لا تلمس كلبى . سأجد له مكانًا أدفنه فيه حين أخرج بقاربى بمجرد أن يطلع الفجر . دعه هنا.

وجلسا صامتين فى الحجرة الدافئة وقد راحت ساعة "منبه" موضوعة فوق رف حوض الغسيل تتكتك بصوتها المعدنى، تحصى الدقائق.

وأخيراً قال الطبيب:

– إذا لم ترقد فى فراشك ولم تدعنى أمس الكلب، فلا أقل من أن تفتح قميصك وتتركنى أفحصك.

لم يحرك الرجل العجوز يديه، لكنه قال:

– لن أفتح قميصى . لم آت بك إلى هنا لكى تثيرنى. فلتذهب إلى حال سبيلك وسوف أدبر شئونى بنفسى.

– لن أتحرك خطوة حتى تعدنى بأنك لن تخرج للصيد اليوم أو غداً. لقد هزمت بعنادك أشد الصيادين هنا فى هذا الساحل . هيا الآن وعدنى وإلا بقيت.

– لن أصيد . لم أكن أنتوى الصيد اليوم على أية حال، فالضباب كثيف .

قال الطبيب:

– حسنًا . وماذا عن الكلب الآن؟ لا يمكن أن يبقى هنا.

قال العجوز:

– دعه كما هو .

- ٣ -

وفتح الباب للطبيب ، ووقف فى وهج المصباح حتى استدرات السيارة فى الساحة واختفت بين أشجار الحور . ثم أغلق الباب وحول مفاتيح الموقد، وعدل أنبوبة الدخان الصدئة، ثم مشى إلى السرير. وبعد أن رفع جسم الكلب المتصلب من فوق كومة الملاءات، حركه بعناية إلى أحد جوانب الغرفة، وإن بدا أنه يفعل ذلك دون اهتمام ، ثم رص الوسائد عند رأس السرير وأطفأ المصباح، ورقد عند الجانب الخارجى من السرير، ودثر نفسه بواحدة من الملاءات وظل ساكنًا ولو أنه كان يتنفس بصعوبة حتى طلع الفجر وألقى ضياءه الباهت على نوافذ البيت السوداء.

وكان الضباب لا يزال كثيفًا عندما فتح الباب . لكن المطر كان قد توقف سقوطه. وكاد ينسى أن المد سيفيض لولا أن شم رائحة الوحل. وكان يستطيع أن يسمع محركات مراكب جيرانه وهى تستعد للخروج للصيد . وانتظر حتى أصبح كل شئ هادئًا فى المرفأ. ثم عبر الرحبة المبللة بالماء وفتح باب الكوخ الذى لم يكن مغلقًا بقفل، ومضى إلى داخله ثم سحب قطعة من قماش الأشرعة من بين كومة من أفرع الشجر

الجافة وخشب "البغدادلى" . ثم نشر القماش بعناية فوق الأرض. وعندما عاد إلى البيت ترك الباب مفتوحًا ورفع الكلب الميت بين ذراعيه، وقد تصلب جسده وتمددت ساقاه، وحمله إلى الكوخ ثم أغلقه بعناية بعد ذلك بنصف ساعة.

وما أن انتهى من ترتيب فراشه وأضاف بعض الخشب إلى الموقد، حتى كانت الساعة قد بلغت السادسة صباحًا . وعندئذ كان قد تهيأ لعمله اليومى كما كان دأبه دائمًا ولو أنه حنق على نفسه حين اكتشف أنه بطئ الحركة ، وأنه يحس بالارتباك وهو يعالج أبسط الأمور . وعندما أخذ يحلق ذقنه عند حوض الغسيل، كان عليه أن يتكئ بجسمه عليه. وعندما تطلع إلى المرآة لم يستطع أن يرى فى وضوح . وعندما ذهب إلى دولاب الملابس القائم عند الحائط الخلفى الغرفة ليأخذ قميصًا نظيفًا ، ألقى نفسه فجأة فى مقعده الهزاز المتحرك. وأحس بألم حاد فى معدته جعله يتخلى عن فكرة تناول طعام الإفطار . ولكنه أعد بعض القهوة ووضع فنجانًا وطبقًا على المائدة وهو لا يكاد يحفظ توازن حركته . وعندما زاد الألم سوءًا ، حاول أن يصب بعضًا من البراندى الذى أعطاه له الطبيب وأن يتجرعه مع الحبوب التى تركها له . ثم بدا وقد تميز غيظًا وثار على نفسه وعلى كل شىء ورقد على فراشه. وما لبث أن أحس بالدفء والراحة ونسى غضبه فى نومه.

- ٤ -

وحين استيقظ من نومه، انزعج حين وجد أن ساعة المكتب (المنبه) تقترب من الرابعة (بعد الظهر). وفى أثناء نومه كان يوم بأكمله قد انصرم . والأهم من ذلك بالنسبة إليه. أن المد قد عاد وأنه كان الآن فى طريقه للانحسار وقد جعلته هذه الحقيقة المفزعة يهرول للخروج بأسرع ما يستطيع لكى يمعن النظر فى الشاطئ الذى كان لا يزال مغلقًابالضباب وكان قاربه عائمًا فى مكانه . لكن ما إن انتهى من العمل الذى كان فى نيته أداؤه وعاد عند الشريط الساحلى، حتى كان عليه أن يكابد السير المتعب فوق الوحل والأعشاب الصخرية الزلقة. ومع هذا الجهد الذى لم يكن منه مفر، أحس بأنه فى غاية الإرهاق ولا يستطيع أن يؤدى واجبه على الرغم من أن تسليمه بهذه الحقيقة ضايقه وأحنقه. وتحسس جيب قميصه بحذر وعناية لكى يستوثق من أن مفتاح كوخ الصيد ما زال فيه. ثم عاد إلى البيت وشرع يفكر على كره منه فى ضرورة الطعام والقهوة.

وكانت نيران الموقد قد خبت واستحالت إلى رماد فى أثناء رقاده الطويل. وبدا أن مهمة إحياء هذه النيران عسيرة عليه. ثم جلس بضع دقائق فى المقعد الهزاز بجوار المائدة . واقترب الأصيل وأخذ جو الغرفة يزداد قتامة بسبب الضباب المتكاثف فى الخارج . وفكر فى أنه ربما كان من الأفضل أن يوقد مصباحه. ولكنه رأى أن هذه الحركة البسيطة تتطلب منه هى الأخرى جهداً لا طاقة له به.

وعندئذ جال بخاطره وهو يحملق فى نوافذ الغرفة إلى أشجار الحور السوداء المغلفة بالضباب أن أيامه لابد قد اقتربت من نهايتها.

وبعد قليل عبر الغرفة إلى فراشه ثم رقد فوقه مرة أخرى.

آل راندال

- ١ -

عندما مضى الطبيب يصعد التل، عاد جيم راندال مسرعًا وسط الضباب إلى سدة باب بيته الواهن المعتم، وهناك وجد زوجته إيمى تنتظر مقدمه. كانت جالسة فوق مقعد قديم محطم وكان بوسعه أن يرى على ضوء مصباحه أنها كانت ترتعد خوفًا. وكان يستشعر كراهية شديدة لها. وفجأة أحس بالغثيان والخجل من نفسه.

قالت فيما يشبه الهمس:

- إلهى، ما الذى تنوى أن تفعله الآن ؟

- الشيء الوحيد الذى يمكننى أن أفعله، أننى لست أستطيع الانتظار هكذا حتى يجئ من بيت دان ليجدنا هنا جميعًا. فهو ليس من الحماقة إلى هذا الحد . لقد تأخر الرفاق، ولابد من لقائهم على الطريق حتى ولو كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار . بعد ذلك سوف

أنعطف في مكان آخـر ثم أنتظر حـتى يمضى . والآن تعـالى وعـاونينى على وضع هذه الأشياء فى مكانها.

وتبـعـتـه إيمى إلى دغل خلف البـيت ، يخـيم عليـه الظلام الرطيب. وعلى بصيص الضوء الخابى المنبعث من عربته ساعدته فى تعرية جيفتى غزالين ونقلهما إلى المقعد الخلفى للعربة التى كان قد أوقفها عند جانب البيت. وكان الغزالان ثقيلين ويكاد يكون من المستحيل إخفاؤهما فى ذلك الحيز الصغير من العربة ولو أنهما بذلا قصارى جهدهما فى تغطيتهما بقطعة من قماش القلاع.

وسألته فيما يشبه الهمس وهما منهمكان فى ترتيب حمولتهما:

– ألم يعرف دان؟

قال زوجها :

– قلت لـه بقدر مـا أسـتطيع مـن حـذر. لـكـن يحـتـمل أن ينـسـى. لقد تقدم به العمر وكان الكلب هو كل ما يشـغل باله فى هذه الدنيا . ولم يعـد مثـلمـا كان فى أيام المرح والشـباب. فى تلك الأيام كان رجـلاً ذا شـأن .

قالت :

– لقد اقشعر بدنى عندما سمعتك تتحدث إلى ذلك الطبيب.

– لا لوم عليك، فمن ذا الذى كان يفكر في استدعائه في هذا الوقت من الليل؟ وأنا نفسي لم أكن موفقًا تمامًا معه. فهو رجل حاد الطبع ، ويتردد على أناس كثيرين في هذه النواحى. ولقد أثار مؤخراً مشاحنات كثيرة مع حراس الحيوانات الممنوع صيدها في المنطقة الشرقية من الساحل. لابد للمرء من أن يأخذ حذره منه.

قالت:

كان عليك ألا تصغى إلى دان منذ عامين.

ومرة أخرى أحس بشعور بالكراهية يجتاحه، وهى تبذل قصاراها لمساعدته.

وفى غضب صاح فيها:

– اخرسى. هناك أشياء كثيرة لم يكن لى أن أفعلها .

وقد آن الأوان للبكاء والندم عليها. أذهبى إلى فراشك ولا تنتظرى عودتى، ولا تدعى نوراً يطل من البيت.

دخل العربة وسيرها دون جلبة، ثم انطلق بها بعيداً عن الساحة .

- ٢ -

وبعد أن سمعته يهدئ من سرعة العربة وهو يهبط التل، ولم يعد يطرق أذنيها آخر الأمر أى صوت عدا صوت قطرات الطل وهى تتساقط من فوق الشجر وهدير الموج المتقطع وهو يلاطم الصخور، عادت إلى داخل البيت وراحت تتحس سبيلها فى الظلام حتى استطاعت أن تسدل الستائر على نافذتى الغرفة الوحيدة التى يتألف منها الكوخ. وبعد أن أطمأنت على أن باب الحجرة التى تنام فيها ابنتها الصغيرة قد أحكم رتاجه أضاءت شمعة، وسخنت بعض القهوة فى "كنكة" مضعضعة فوق علبة ، ثم جلست إلى المائدة الوحيدة القائمة فى الغرفة الرطبة المعتمة لتشربها ، واستبد بها شوق إلى بعض من الويسكى لتستعين به على النسيان والنوم . وكان الويسكى مشروباً عزيز المنال، ولم يكن زوجها يقربه قط . وكان يقول إنه يحتاج فى عمله إلى كل عقله وانتباهه .

وسألت نفسها وهى تتجرع القهوة المرة المذاق: لم لاتزال مغرمة به وهى التى لم يغب عنها أنه لا يكن لها غير القليل من الحب . لم يكن يستقر على حال، يومًا هنا ويومًا هناك. ولم يكن بمقدورها أن تعرف مقدمًا طبيعة مزاجه. وشعرت بالأسف لأنها كانت حمقاء حين مالت إليه منذ البداية .

لقد قال لها حين قررت أن تتزوجه منذ عشر سنوات مضت، إنه ميكانيكى، وإن فى طوقه أن يصلح أية مكنة. وحذرها من أنهما قد يضطران إلى حياة التجوال بحثًا عن العمل فى أنسب الأماكن ، وحبذا لو كان هذا العمل من النوع غير المألوف أو الذى لا يقبل الناس عليه كثيراً ، وحيث يوجد كثير من المكنات (المحركات) والقليل من الميكانيكيين لإصلاحها . فى ذلك الحين وقد انتابها التقزز من المحل الذى كانت تعمل فيه وسئمت الحياة مع أبويها النكدين اللذين كانا يستهجنان أية بادرة منها، بدا لها التجوال فى أى مكان أفضل من أى شيء سبق لها أن عرفته .

وحين اكتشفت أن التجوال يعنى عادة الإفلات بشق النفس من الحراس الأذكياء الساهرين على حماية الحيوانات الممنوع صيدها والنجاة أحياناً من مصير السجن الذى كان يتهددهما، صارت مشاعرها أقرب إلى الاضطراب والقلق منها إلى الإحساس بالمهانة والذلة. ولم تكن قط ممن يلتزمن الجادة فيما يتعلق بمسائل الأخلاق ولكنها أحست بأن الحياة لعبة غير عادلة، بعض الناس فيها محظوظون والآخرون منحوسون وأنه وإذا كان فى طوق المرء أن يهزمها بأية طريقة، فلا لوم عليه ولا حرج. والحق أن جيم راندال قد صادفه حسن الطالع فى ذلك اليوم حين ذهب يتجول فى المحل الكبير الذى كانت تعمل فى أيمى ليطلع على الكيفية التى يجرى بها العمل هناك، وليثبت من أن أصحاب هذه المحال هم

فى الواقع كما يبدو عليهم، حين وقع نظره عليها واقفه خلف "الطاولة" فتاة جميلة، وإن تكن نحيلة القد ماكرة.

وقربت ساعة يدها من لهب الشمعة، كانت ساعة جميلة، سويسرية الصنع كما قال لها زوجها حين قدمها إليها فى ليلة عيد الميلاد منذ عام. وكان قد حصل عليها بطريق "النصيب" . فى جولة من جولاته الكثيرة فى أماكن قلما كان يذكر اسمها . وكانت فخوراً بهذه الساعة لأنها كانت تعوضها عما كان لديها من لباس قليل، تصنعه بنفسها أو تفصله لابنتها الصغيرة. وكان الوقت قد تجاوز الواحدة صباحًا بكثير، وقررت أن تعد لنفسها قدحًا ثانيًا من القهوة، فلن تجعل أعصابها مشدودة أكثر مما هى .

ولم تكد تأخذ "عيارًا" من البن لتضعه فى الوعاء وتصب فيه بعض الماء وتتأهب لإشعال الموقد من لهب الشمعة، حتى سمعت صوت سيارة. وتملكها الاضطراب حتى تحققت من أنها لم تكن تصعد التل وإنما تهبط. ثم أطفأت الشمعة واتجهت إلى النافذة وقد حرصت على ألا ترفع من الستارة إلا فرجة صغيرة حتى إذ مرت السيارة لا تكشف أضواؤها شيئًا حتى ولو استطاعت النفاذ خلال الضباب. وأخذت تحاول أن تتذكر منعطفات الطريق وتفكر فيما إذا كانت الأمور قد سارت على ما يرام . وفى أى دغل من الأدغال ينتظر الآن زوجها حتى تمر سيارة الطبيب ثم يعود سالمًا إلى البيت.

وبينما هى ترشف القهوة الساخنة، وبعد أن عثرت على بعض السجائر فى علبة متغضنة فى جيب سترة قديمة كانت معلقة على الحائط – وكان هذا الاكتشاف باعثًا على متعة فائقة لها – راحت تعاود التفكير فيما جعلها حتى الآن تتعلق بجيم راندال . وكانت واثقة من أن هذا التعلق لا علاقة له باهتمامها فى أماكن أخرى برجال أو نساء آخرين ولو أنها كانت فخوراً إلى حد ما بما بهما من إخلاص متبادل أو على الأقل بإخلاصها له. واستنتجت أن ذلك الميل ربما كان راجعًا إلى ما يبديه نحوها من عطف كلما وقع عمل منتظم . وكانت أحكم من أن تفرض هذه الأعمال عليه، لاسيما وقد قدر من تلقاء نفسه وبدون سبب أن يغير من أحواله المتقلبة ويستقر بضعة أشهر فى وظيفة ثابتة يتقاضى منها أجراً ثابتًا . كان صانعًا "ممتازًا". والواقع أنه لم يكن ثمة شىء لا يستطيع أن يعمله بيديه سواء فى النقش أو النجارة . كان مشغوفًا بصنع الأشياء ، ينفق الساعات فى عمل دولاب صغير لطفلته أو بعض قطع الأثاث الصغيرة مما يلهو بها الأطفال . وذات مرة اشتغل فى مدينة كبيرة لدى أحد تجار العاديات ولم يمض وقت طويل حتى اشتهر بمهارته فى إصلاح التحف وتجميلها . وكان يهوى العدد والآلات ، حريصًا على أن يحتفظ بالقليل مما كان لديه منها فى أحسن حال، وهو ميل يتنافى مع أى زهو أو عناية يبديها نحو المساكن القديمة المتهاوية التى كانا يقيمان فيها عادة. وقد بنى هو عدداً منها لا لشىء سوى أن تكون مجرد مأوى مؤقت .

وفى خلال السنوات العشر التى أمضياها فى هذه الناحية عمل مرتين ميكانيكيًا فى باخرة للرحلات الصيفية. وقد استطاع أن يحصل من هذا العمل على مال لا بأس به . وكان يعود إلى بيته مرة كل أسبوعين ليمضى بضع ساعات. وكان يبدو وسيم الطلعة وهو فى حلته البحرية الزرقاء . وفضلاً عن ذلك كان يعود ومعه إلى جانب النقود ، بعض الملابس التى كانت تعطيها له زوجة صاحب الباخرة عندما تبين لها أنه رب أسرة. وفى خلال الشتاء خرج مرتين أو ثلاثًا إلى الغابات للعمل فى قطع الأخشاب لدى إحدى شركات صناعة الورق. وعلى الرغم من أنها كانت تمقت وجودها العقيم فى مكان كهذا يؤثر فيه جيرانها حياة التباعد والعزلة والحذر، فقد كان يخفف من وطأة هذا الشعور ما كان يتقاضاه زوجها من أجر ثابت وما كانت تحسه من أمن فى كنف وما لجأ إليه من تغيير فى عاداته أولاً وقبل كل شئ . فى مثل هذه الأوقات كان يبدو طبيعيًا وكريمًا كلما عاد إلى البيت يصطحبها ما بين الآن والآن إلى إحدى دور السينما ، بل إنه كان يخرج معها أحيانًا للرقص . وفى مثل هذه الأوقات كذلك، كان يخرج عن مألوف أطواره ليساعد الناس الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم كالغرباء، فيكسح الجليد من أمام بيت أحدهم ، ويصلح محرك سفينة لآخر ، بادى الفخر والاستمتاع بوضعه الجديد.

على أن هذا الوضع لم يكن يعنى شيئًا بالنسبة له – هكذا كانت تفكر وهى تشعل سيجارة من سيجارة – إلا إلى الحد الذى يتعلق بطفلتهما . ولم تكن تعنى فى كثير أو قليل برأى جيرانها فى طريقة إدارتها لبيتها ، أو فيها نفسها . فقد كان جيرانها الكثيرون الذين عرفتهم طوال هذه السنوات العشر يتميزون بالفضول والحذر وكلهم من ذلك الصنف الذى يسعى إلى معرفة أسرار الغير، التى لو اعتمدوا فى الحصول عليها على الحظ ومحاسن المصادفات لما عرفوها على الإطلاق . لكنها كانت تقلق فى بعض الأحيان على الطفلة التى بدأت تعود مؤخراً بحكايات تنضح بالتهويل والاستخفاف عن سيارة المدرسة وعن المدرسة ذاتها، والتى أخذت تزداد جمالاً وتحتاج إلى ملابس جميلة وإلى نزهات مثل غيرها من الأطفال . ولو استطاعت أن تحتفظ بعقلها فى رأسها منذ عشر سنوات ، أو لو أن زوجها لم يكن أحمق هكذا حين عرفا أنهما على وشك أن ينجبا هذه الطفلة، لما واجها مثل هذه المشكلة الآن . لكن ما باليد الحيلة . وها هى ذى تزداد حكمة وتبصراً بالحياة يومًا بعد يوم.

ودخنت آخر سجائرها . وعلى الرغم من بحثها المحموم عن سيجارة أخرى على ضوء بطارية فى أرجاء الغرفة المشعثة فقد فشلت فى الاهتداء إلى واحدة أخرى . وقد نبهت القهوة أعصابها وزادتها توتراً حتى صارت قاب قوسين أو أدنى من أن تنطح السقف برأسها .

وتطلعت فى ساعة يدها السويسرية فوجدتها تقترب من الثالثة صباحًا . وعندئذ أطفأت الشمعة وفتحت الباب وأخذت تلعن الضباب ، لكنها عرفت وهى تلعنه أنه لم يكن من السهل المضى فيما يمتهنان من أعمال لولا أنه يساعدها على إخفاء الأشكال ، وحتى الأصوات . وشعرت أنه قد حان الوقت لكى تذهب إلى فراشها ، لا سيما وأنه منذ تضاءل ما بين يديها من مال معظمه دين فقد كان ثمة احتمال بأن تضطر إلى العمل فى تعبئة "السردين" طوال الأسابيع القليلة القادمة . لكن كيف السبيل إلى النوم بعد ما تجرعته من قهوة وبعد هذه المخاوف التى تمسك بتلابيبها . وفى الوقت الذى جال بخاطرها أن كيل المخاوف قد فاض بها، ترامى إلى سمعها دبيب سيارتهما القديمة وهى تصعد التل .

- ٣ -

كان جيم راندال قد أبصر السيارة التى كان يبحث عنها، مقبلة على منحنى خطير جدًا على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من الدوران المؤدى إلى الطريق الرئيسى . وكان فى ذلك الوقت يقف خارج سيارته التى تركها فى مكان آمن على بعد ربع ميل إلى الوراء . ووقف إلى جانب الطريق يعطى إشارات ضوئية متفق عليها . فإذا لم تكن هى السيارة المقصودة فى طريق يكاد لا يطرقه السائقون فى مثل

هـذا الوقت من الليل، فلم يكن بالذى يعـجـزه الخـروج من هذا المأزق البـسـيط بأكـثـر من طـريقـة ، ومع ذلك فلم يكـن هنـاك خطأ مـا، وفى لحظـة كـان قد اتجـه إلى عـجلة القيـادة ، فالعربة بدا أنهـا عـربة بقـال، تتجه إلى مخبئه .

قال للرجلين الجالسين فى مقعد السائق:

- لقد تأخرتما .

فرد أحدهما :

- السبب هو فرقعة أحد إطارات العربة واعتراض شرطى لطريقنا، لم يعـجبـه خـروجنا إلى الطريق فى هـذا الوقت من الليل . ومن ثم فـقـد اضطررنا إلى التلكؤ قليلاً حتى غادر دركه .

قال جيم راندال وهو يحاول أن يحكي لهما متاعبه باختصار :

- أما أنا فقد كانت لدى متاعبى الخاصة. إن عليكم أن تجتـازوا هذه المنطقة فى عجلة .

هدئوا من السرعة هنا .

وتساءل الرجل الآخر :

- كم عدد ما لـديكم ؟

– اثنان لا بأس بهما . إن مقامى هنا أعلى هذا الشق. خذ حذرك من الخندق.

وأتم الرجلان نقل البضاعة فى غير جلبة . وأحس جيم راندال وهو يتناول " فواتير" البضاعة من سائق العربة الطويلة ، بأنها هشة ولطيفة بين أصابعه.

وقال السائق:

– موعدنا بعد أسبوع من الليلة إلا إذا اتصلت تليفونيًا بچيرى هنا . وإذا لم يكن معك شئ يكفى أن تقول ... سأقابلك الليلة فى الساعة الثامنة . ولا تلق بالا لشئ آخر . فإذا لم تصلنا هذه الرسالة، فسوف نلحق بك فى ساحة بيتك فى حوالى الساعة الثانية. فلا تخرج بعيداً بحثًا عن المتاعب . إنها لعبة خطرة تلك التى نلعبها .

قال جيم راندال :

– لست فى حاجة لأن تذكرنى بذلك.

وعندما ولت السيارة الطويلة، ركب فى سيارته التى كانت لا تزال مستقرة بعيداً فى قلب الطريق الوعر . ثم جلس فى هدوء فى قلب الظلام وقد أصاغ السمع ترقبًا للصوت الذى أراد أن يسمعه . ولم يكن

فى حاجة للاستعجال حيث إن الأمور انتهت مرة أخرى على خير ما يرام ، فقد كان فى المال الذى فى جيبه الحل لكل مشاكله الصغيرة . أما المشاكل الكبرى فلم يكن فى وسعه أن يواجهها منذ سنوات .

وكانت هذه الحقيقة الأخيرة مثار إزعاجه أحيانًا ، بل لأخرى أنها كانت مصدر حيرته . وكان يبدو له أن من الأشياء الغريبة أن الإنسان لا يستطيع أن يفسر فعاله أو مشاعره . إن باعثًا غريبًا يبدو أنه يفرض عليه أسلوب حياته ووسائله . والواقع أنه لم يستسغ المخاطر التى كان يزج بنفسه فيها حين يخرج لمفاجأة الغزلان وتسليط أضواء سيارته عليها حين ينتصف الليل ، فى طرق خلفية غير مطروقة ، أو حين يجوس وسط الأحراج بحثًا عنها فى الضباب والمطر ، أو عندما يعبث فى الظلام يقفل عربة يملكها أحد صيادى جراد البحر . وربما كان فى مثل هذه المجازفات ما يثيره فى وقت من الأوقات ، غير أنه لم يكن من السهل استعادة أى منها .

ومما كان يزيد من حيرته وارتباكه أنه لم يكن فيما يبدو يستشعر أسفًا على نهجه فى الحياة ، أو - والأدهى من ذلك - على سلوكه إزاء أولئك الأشخاص الذين أودعوا ثقتهم فيه ما بين الحين والحين، ثم خيب ظنهم فيه. وكانت قراراته المفاجئة التى يتخذها من آن لآخر والمتضمنة انتهاجه صراطًا مستقيمًا خلال فصل واحد من فصول الصيد والقيام

بعمل محترم مثل غيره من الناس ، لا تصدر عن شعور بالعار أو الندم، وإنما كانت ترجع إلى حافز غير مفهوم . ويظهر أن الزهو واللذة اللذين كان يحسهما دائمًا خلال ممارسته لعمل شريف لم يكونا كافيين لإبعاده عن الانزلاق والعودة إلى عاداته وفعاله السابقة. وبالاختصار كانت حياته منذ صباه حتى حين بلغ الخامسة والثلاثين واعتاد الجلوس هنا وسط الظلام والضباب تشبه أحجية من تلك الأحاجى التى يحار الأطفال فى حلها بضع دقائق ، ثم ينبذونها فى استياء وعدم اكتراث .

ونعقت بومة من مكان ما على مقربة منه، وعجب لأمرها وكيف تعثر على فريستها فى هذه الغابات الرطبة . وكان به شغف حقيقى لحيوان الغاب وكثيراً ما اختلس الوقت أو حتى خلال مهمة طارئة لكى يدرس طبائعه . وكان دائمًا يعود إلى البيت وقد أوقع فى الفخ حيوانًا صغيراً أو أمسكه بيديه الخفيفتين ليقدمه لطفلته ، سواء أكان فرخ قطاة أم ثعلبًا أم أرنبًا أم بعض السناجيب . وكان مولعًا باستئناسها وتعويدها على الثقة به . بل إنه كان أشد إيثاراً للألفة التى تمنحها له ولطفلته والتى كانت تبدو فى بعض الأوقات وكأنها الرباط الوحيد الذى يربط بينه وبينها .

ولم يكن فى وسعه أن يوائم بين قسوته فى سفك دم الغزلان من ناحية وبين مشاعر الشفقة التى تعتمل فى جوانحه إذا ما رأى طائراً

جريحًا من ناحية أخرى . بل إنه ذات مرة وكان ينظف بندقيته ويحشوها استعداداً للقيام بواحدة من إغاراته غير المشروعة ، حزن حزنًا عميقًا ومخلصًا لدى وفاة طائر عزيز قذفت به الريح فى عنف فى شجرة أمام البيت . وقد بلغ به التأثر حداً جعل منظر الطائر الرقيق لم يبرح مخيلته طوال ساعات . وفى كلمة لم يكن فى وسعه أن يوفق بين أى من خصاله المنحرفة المتعارضة التى تتألف منها شخصيته، كما أنه لم يحاول جديًا أن يفعل ذلك وهو ينتظر عربة الطبيب . وإذا كان يركز خواطره الجامحة على أى شىء أصلاً ، فلم يكن ذلك الشىء سوى التفكير فى التعجيل بمغادرة مقر إقامتهما الحالى وأفضل مكان يتجهان إليه . وكان يعتقد بضرورة المكث وقتًا طويلاً فى أية بقعة - لا سيما إذا كانت تلك البقعة هى مستعمرة الخليج الموحشة التى لا سبيل إلى الخروج منها إلا عن طريق واحد - مادام لم يكن يمتلك مركبًا . وكان على يقين من أن الناس ينظرون إلى فعاله بعين الشك بصفة عامة . ولكنه كان على يقين كذلك وفى الوقت ذاته من أن الصيادين قوم يطبقون أفواههم على ألسنتهم ، لا لأن الحنق يعوزهم ، لكن خشية الثأر .

وكان يفكر فى تجربة الإقامة فى منطقة بعيدة عن الساحل بشرط أن يوفق فى عقد صلات مناسبة. وكان خلال عمله فى شركة الورق قد اكتشف أكثر من مجال من مجالات النشاط المربحة . ولو أن حياة البحر كانت تمنح الكثير من الفرص وتفتح مجال كثيرة ، إلا أنها بعد مضى

بعض الوقت تبعث على الضيق والضجر . ففى هذه الليلة على سبيل المثال لولا مجئ المد منذ ساعتين وسكون الريح ، لكان هذا العمل ذاته قد اتخذ شكلاً مغايراً للغاية ولا قتضى منه جهداً ليس باليسير .

وأخيراً حين ترامى إلى سمعه خلال الجو المشحون صوت سيارة تدب فى تثاقل على الطريق وتصطك إطاراتها وتترنح فوق الحصباء ، ابتسم حتى قبل أن يبصر وميض ضيائها المعتم، لا للطريقة التى استطاع بها أن يكون أكثر مكراً من الطبيب وإنما للنمط الفريد الذى يتصلب به جلد قفاه ويقف شعره فى لحظات الهياج، مخلفاً فيه إحساساً بالوخز والألم، تجربة ظل يصادفها دواماً منذ كان صبياً، وكانت فى كل مرة تبهجه وتثير فضوله . وكان هذا الإحساس يماثل على نحو غريب تلك الرعشة الحادة المثيرة التى تنتاب خياشمه إذا ما استبد به الضيق أو الغضب بلا سبب معقول مع زوجته .

وجلس دون حراك حتى مرت سيارة الطبيب وانقضى معها ذلك الإحساس الموجع اللاذع ، ثم فى حركة تكاد توحى بعدم الاكتراث أشعل عود ثقاب بين ظفر إصبع الإبهام والسبابة وأخذ يجذب أنفاساً من سيجارة . وقد عمد إلى إطالة الجلسة ، على أمل أن يسمع البومة الناعقة مرة أخرى . ولما كان الصمت يخيم على الغابة وأخذ هو يحس بالرغبة فى النوم، أدار محرك سيارته واندفع فى حذر عبر الحفرة القائمة عند جانب الطريق، ماضياً فى طريقه إلى البيت.

- ٤ -

كانت زوجه ساهرة فى انتظار عودته . وحين فتح الباب وألقاها على هذه الحالة، امتلأت خياشيمه بذلك النبض الغريب الكريه كما لو كانت قد نفذت إليها رائحة كريهة ، لم يعنها على إشعالها للمصباح ، لأن الاستيقاظ المبكر فى مجتمع الصيد لم يكن يثير أية أقاويل حتى لو كان هناك أحد على مقربة منها يرقب ما يدور. وكانت قد شرعت توقد فرن الطهى لتعد له طعام فطوره، واختفى البغض الغريب حين أبصر ما يبدو عليها من نحول وإجهاد وخوف .

قال لها فى شئ من الرقة والعطف :

- أخشى أن تكونى قد بذلت جهداً كبيراً .

وعند ذلك أحست نحوه نفس الميل المحير الذى تكنه له ، يعاودها ليدفئ زمهرير الغرفة المشعثة كالنار وهى تتلظى فى الفرن.

وسألته:

- وماذا عن نفسك ؟ يبدو أنك فزت بجلدك .

قال وهو يعلق معطفه المبلل ويخلع حذاءه الطويل.

- بل كدت أقع فى المحظور ؟ اسلقى البيض من فضلك ، وإلى ببعض عصير الطماطم .

قالت وهى تمد يداً نحو المقلاة وتناول بالأخرى زجاجة "الصلصلة" المتسخة باليد الأخرى :

- "حاضر" . هل كان كل شئ على ما يرام ؟

قال :

- بالتأكيد . لقد بعت لحم الغزال بخمسين دولاراً .

وكان يجب أن يباع بخمسة وسبعين دولاراً فى نيويورك؛ . ليت الأهالى هناك مستعدون دائمًا لدفع هذه الأسعار . ولكننى لم أضع وقتًا فى المساومة .

ثم جلس إلى المائدة بعد أن قربها من الموقد حتى يستطيع أن يضع جوربه المبلل بالرطوبة فوق الرف الحديدى أمام الفرن . وسلقت هى البيض واستخرجت رغيفًا من الخبز وبعض الدهن وصبت له القهوة ووضعت عليها اللبن المركز أمامه . ثم جلست فوق مقعد مواجه له .

وعاد يقول لها بعد أن ظل يتناول طعامه فى صمت دام بضع دقائق:

- عندى لك أخبار ... لقد ماتت المرأة العجوز .

- متى ؟ وكيف عرفت ؟

– ذلك الطبيب هو الذى قال لى. لقد تملكتنى الحيرة لدى سماع النبأ حتى نسيت أن أعلنه لك . وأعتقد أنه كان عائداً من زيارتها فى بيتها . ولم يكن ليخرج فى ليلة كهذه من أجل رجل كدان العجوز.

فقالت :

– أظنك تحسبها أنباء طيبة. ولو أنى لم أفهم قط لم كنت دائم القلق عليها وهى عجوز شمطاء لا يؤبه لها .

– لا تجرى وراء هذه الظنون أبداً . كانت دائمًا وراء كل ما يجرى من أحداث فى هذه الناحية وحتى فى منطقة المستنقعات وفى الأخوار .

بل لست أشك فى أنها كانت تعرف كل حراس مناطق الصيد الممنوعة من هذا الساحل، بل كانت تسمع كل طلقة عابرة كذلك .

– مجنون.

وهنا أحس بالهياج فى خياشيمه يعود وكذا بوادر الطعم والرائحة تسرى فى أنفه . وحاول جاهداً أن يخلص نفسه من كليهما . وقد تذكر أنه هو الذى أتى بها إلى هذه الناحية على أية حال.

قال لها – وشبح ابتسامة يرتسم على شفتيه :

– ظنى ما شئت . ربما كانت متقدمة فى العمر ولكنها كانت دائمًا هناك . ولم تكن تخشى شيئًا وكانت تتمتع بعقل ورجاحة

لا يدانيها فيهما أحد من أهل الساحل . كانت مثل واحدة من تلك الآلهة اليونانية القديمة التى اعتدت أن أقرأ عنها فى كتبى أيام الدراسة .

قالت فى تهكم :

– لعنة الله عليك وعلى كتبك.

ووضع هو طباقًا فى عجلة ثم أشعل سيجارة.

وحين رأى عينيها ترقبانه ، قدم لها علبة السجائر ثم قال لها وهو يحاول التبسط معها فى غير اكتراث:

– هناك من الأمور ما هو أسوأ من الكتب يمكنك أن تزجى بأنفك فيها .

قالت وهى تسهم بنصيبها فى المحافظة على هدوء الموقف. وقد عاونتها السيجارة على ذلك:

– أعتقد أنك أصبحت فى قولك . إن ابنتك هى قطعة من هذا الطراز القديم، فهى وإن لم تكن مشغولة بمطاردة حيوانات الغابة وطيورها وقطف أزهارها ، فإنها هى الأخرى تعكف على الكتب . وهى تستعيرها دائمًا من المعلمات فى المدرسة .

وعندئذ بدا عليه القلق والاضطراب وقال :

- إنها تكبر بسرعة . وأعتقد أنه قد آن الأوان لكى نهتم بأمر سلوكها .

قالت زوجته :

- إننا لا نسايرها بالسرعة التى ترضينى .

أهالى الساحل

- ١ -

كان اللسان الطويل الضيق من الأرض الذى يمتد عشرين ميلاً تجاه الجنوب وتجاه البحر من الطريق الرئيسى، وتقوم مستعمرة الخليج على مبعدة ميلين من نتوئه الذى دأبت الأمواج على اجتياحه. كان يمنح العيش والحياة لعدد آخر من صيادى السمك وأسراتهم. وقد حفر المد على كل من شاطئيه الشرقى والغربى عدداً من الخلجان والبواغيز العميقة، كان يمكن أن تكون ذات حجم كبير فى الأجزاء الأقل وعورة من الساحل. لكنها كانت تبدو صغيرة ومحمية بالنسبة إلى مناطق الصيد الخارجية كتلك التى تواجه البحر . وكان الصيادون الذين ينشرون شباكهم ويضعون فخاخهم فى هذه المياه الداخلية يعرفون باسم "صيادى المياه الساحلية" وكان هذا التعريف ينطوى على شىء أكثر من مجرد التمييز الجغرافى.

وكان صيادو الخليج يرون فى هؤلاء الذين يصيدون فى منطقة المياه الساحلية قوماً أقل مخاطرة وأقل جسارة واعتماداً على النفس

منهم . ولما كانت تعوزهم روح العزم بل والتحدى التى تشكل جزءاً رئيسياً لا غناء عنه من طباع صيادى المياه الداخلية، لم يقامروا بالصيد فى داخل البحر حيث الأمواج والريح والضباب على أشدها. وكانوا قانعين باستعمال الفخاخ القصيرة المدى. وكان ذلك يعنى بالتأكيد دخلاً أقل لأن المخاطرة كانت أقل، ثم إنفاقًا للمال فى حدود أضيق بكثير . على أنهم لم يكونوا يعتمدون فى معاشهم على الصيد وحده . وقد أتاحت لهم الحقول المحيطة ببيوتهم المبعثرة فى منطقة الخليج فرصة لزراعة الخضراوات إذا شاءوا. وكان فى مقدورهم أن يربوا بعض الأبقار ، وربما قليلاً من الأغنام على مراعيهم الصخرية . فإذا جاء موسم الصيد شحيحًا . استداروا إلى أعمال أخرى غير الصيد، فعملوا فى فرق تعبيد الطرق، أو الحفر بحثًا عن الرخويات، أو عاونوا على نشر شباك الصيد فى خلجان أوفر سمكًا، وفى قطف ثمار التوت الزرقاء أو أمضوا ساعات فى مصنع حفظ وتعبئة الأسماك فى المدن الواقعة شرقى الخليج.

وقل أن يخلو بعض نشاطهم من شوائب الريبة. وربما كان هذا الشعور من بقايا أيام القرصنة القريبة نسبيًا، حين كانت الخلجان والبواغيز والمياه الضحلة والمستنقعات التى تجرى فى أراضيهم الوعرة وكأنها قد هيئت لاستقبال وإخفاء البضائع المهربة، وحين كانت زوارقهم البخارية تخرج بانتظام إلى عرض البحر لملاقاة السفن المحملة

بالمشروبات الروحية القادمة عبر التخوم. أما الآن فقد كان ثمة احتمال بأن تستخدم مواهبهم فى أعمال غير مشروعة فى المياه القريبة من الساحل. وقد أحس جيم راندال بأنه أكثر انتماء إلى صيادى المياه الساحلية منه إلى جيرانه الحاليين . أما دانيل ثيرستون فقد أمضى سنيّ حياته الأولى وسط جيل أسبق منهم ولو أن دانيل كان يمثل مزيجًا غريبًا من طباع أهل السواحل وأهل الخليج . وكان لدى صيادى الخليج من الأسباب ما يحملهم على الاعتقاد بأن جيرانهم من أهالى السواحل، قوم يبعثون على الشك، ومن ثم فقد كانوا دائمى الحذر منهم، يرتابون فى مهنتهم البحرية.

- ٢ -

كان الطريق الذى يمتد وسط حقولهم ومراعيهم وخلف مستنقعاتهم وخلجانهم طريقًا مزدهرًا حين كان احتياج الناس للطرق قليلاً . وفى ذلك الوقت كان يربط أحواض السفن الواقعة عند مصب نهر تيدال بتلك الطرق الممتدة عند الخليج وعلى جزيرة شاج . وكان يعج بحركة مرور لن يتاح له أن يشهدها مرة أخرى . أما الآن فإن السكون وجو العزلة الذى يخيم عليه أمر يصعب تصوره. وكم جرت الثيران الأثقال وأحمال الخشب فوق أديمه المكسو بالثلج الصلد فى الشتاء . وكثيراً ما حملت العربات الضخمة التى تجرها ثلاثة أو أربعة أزواج من الخيل عتاداً

وإمدادات لقمرات السفن ولصناديق الشراب والأطعمة ومطابخ السفن. وكان بناة السفن وصناع القلاع والأشرعة وعمال بناء المراكب يركبون الجياد عبره عند الفجر أو الغسق، حتى المركبات المسقوفة كانت تمضى وتتأرجح فوق أخاديده، ناقلة أهل المرج جنوبًا لكى يستقلوا زوارق النزهة، أو شمالاً إلى الحفلات الساهرة والأعراس فى المدن الساحلية حيث المنازل الكبيرة البيضاء هو الدليل الباقى الوحيد على لون من الحياة يخالف تمامًا ما آلت إليه الآن حيث صارت تحمل نوافذها ومروجها لافتات ترحب بمقدم السياح. ومنذ قرن من الزمان كان هذا الطريق معبرًا يمر منه بحارة ذوو وجوه سوداء ويتكلمون لغات غريبة ووجهتهم السفن الراسية على وشك الرحيل من جزيرة شاج إلى مختلف الموانئ الأجنبية.

وحتى اليوم ما زالت بيوتها توحى بما كان يغشاها من حياة أكثر رخاء، وكان من الاثنى عشر منزلاً أو ما زاد قائمًا منها على طول عشرين ميلاً، يبدو رغم قدمه وما به من خراب، أبهى مظهرًا من ناحية الشكل الخارجي على الأقل من أى من مساكن مستعمرة الخليج. ولم تستطيع عتبات النوافذ المهدمة والأسقف المرقعة، والأخشاب التى زال عنها طلاؤها ومداخلها التى نما فيها العشب من طول الإهمال والصوامع المطمورة لم تستطع فى النهاية أن تطمس جلالها الذى كان لها فى يوم من الأيام – وكان اثنان من هذه المنازل ما زالا يحتفظان فى

خلف الطريق الوعر تقريبًا بحلقات من الحديد المثبتة فى كتل الصخر. ويبدو أنها كانت تستخدم كمرابط للخيل. وأما أحدها حوض ماء كبير من حجر الجرانيت، محفورة به زخارف من أوراق الشجر والأزهار وقد امتلأ بماء عذب من نبع مجاور.

وندر أن تجد واحدة من الأسرات المقيمة حاليًا فى منطقة الساحل تنحدر من الملاك الأصليين لهذه البيوت، الذين يرقدون الآن فى مدافن لا تحظى بعناية. وقد نزح أحفادهم من زمان طويل إلى أوطان أخرى بعد أن فقد الساحل سفنه . وقد انتقلت بيوتهم فى آخر المطاف إلى أيدى أناس أقل بأسًا، يقبلون ويذهبون، ويشترون بأبخس الأسعار ويبيعون بأدنى منها، يصيدون السمك ويزرعون لمامًا، ولبضع سنوات يشتغلون فى هذا العمل ثم فى ذاك، يضايقون حراس الشاطئ وحراس مناطق صيد السمك وحراس الغابات بضع ساعات ثم يختفون. كانت لوسى وجويل نورتون يتذاكران فى بعض الأحيان بعض هؤلاء الشطار الذين رحلوا إلى أماكن مجهولة، مخلفين وراءهم ديونًا لم يدفعوها .

ولقد كان عدم استقرار أهل السواحل وقلة حيلتهم سببًا فى ضياع مدرستهم عليهم منذ وقت طويل. وكانت هذه المدرسة تقوم فى المنطقة الجبلية من خليج مكاريل على بعد سبعة أميال من الخور . فى ذلك الحين كانت سيارة المدرسة تأتى من أقرب مدينة على بعد خمسة عشر

ميلاً لنقل أطفال أهل الساحل والخور على حد سواء، تاركة لأولياء الأمور حل أية مشاكل أخرى خاصة بالنقل. وقد أثبت جول نورتون أنه الحل .

- ٣ -

في أشهر الصيف ان أهل الساحل ينعمون بوقت لا بأس به . وكانت لوسى إذا ما استقلت السيارة إلى المدينة فى صحبة جويل، تحسدهم على ما لديهم من حقول مشمسة، تنمو فيها أزهار الأقحوان وشقائق النعمان والمرير البرتقالى ومراع ودروب تكثر فيها أشجار التوت وبساتين التفاح التى ذبلت وجفت، كانت ترى أنهم يعيشون فى أرض تعج بخير عميم. وكان الضباب إذا ما طوى الخور فى غلائله حجب جزيرة شاج ورأس الخليج عن الأنظار، كانت الشمس تغمر بيوتهم وحدائقهم بالضياء. وهكذا أسماكهم تنعم بساعات من الحرارة والضوء حتى تجف، لا خوف عليها من رطوبة أو بلل . أما أسماك الغندر المفلطحة فكانت تجىء سابحة إلى خلجانهم لدى كل مد . وفى الربيع تأتى إلى مياههم أسماك الحساس والهف لتملأ غدرانهم . كانت لديهم أرض يفلحونها تعوز أهل الخور وحظائر لتربية الدواجن والخنازير . ولدى أطفالهم مراتع يمرحون فيها أمنين . حتى ما لديهم من شباك صيد جراد البحر، كانت على قلتها توحى للناظر إليها بأن أصحابها يعيشون حياة رخية وأقل جهداً .

أما أيام الضيق فكانت تواجههم فى فصل الشتاء حيث تغلق الثلوج بواغيزهم ومصبات أنهرهم التى تكف عنها ضربات المد القوية وتتراكم هذه الثلوج دائمًا فيها وهو ما لا يحدث فى مياه الخليج بسبب تعرضها للرياح العالية القادمة من البحر . وكلما لجأ الطبيب إلى الحانوت لتناول قدح من القهوة الساخنة ولشراء بعض الحاجيات من عند آل نورتون، كان دومًا على استعداد للتحدث عما كان يسميه "بشكاوى أهالى السواحل". ويقول إنه جعل من واجباته أن يتردد بالزيارة على كل بيت بالإضافة إلى ذلك أهل ذلك البيت أو البيتين الذين كانوا يدعونه ما أحسوا بأن أحداً فى كل منهما يعانى اعتلالا فى صحته.

ومعظم الفضل فى توطد صداقتها بالطبيب يرجع لأهالى الساحل، فحينما استقر مقامه هناك منذ ست سنوات وشرع يقوم بزياراته المتعددة ، الواسعة الانتشار بالمراكب وبالسيارة اكتشف أن لوسى كنز من المعلومات المفيدة فيما يتعلق بطبائع وأحوال أولئك الذين يخفف عنهم آلامهم ويذهب لنجدتهم أو ربما لكى يمنحهم مجرد صداقته وبث الشجاعة فى قلوبهم. كانت تعرف الساحل وعدم ترحيب أهله بالغرباء وأطفاله المجهولى الآباء، الذين عاونت هى فى بعض الأحيان على خروجهم إلى الحياة، شيوخهم وعجزتهم الذين شهدت رحيلهم عن هذه الدنيا أحيانًا كذلك، وشبابهم الذين كانت الحياة تبدو وكأنها لا تقدم لهم

غير السأم أو المغامرات العاطفية المستهترة الدنيئة القصيرة العمر. كانت تعرف ما له وما عليه فى الجانبين الروحى والمادى. وكان الطبيب قد اعتاد فى وقت متقدم استشارتها فيما يتعلق بمرضاه والمتقاعدين وأرباب المعاشات المقيمين عند البرزخ، اعترافًا منه بأن المعلومات التى يعجز عن استخلاصها منهم ، لابد أنهم قد أسروا بها أو ألمحوا بها إليها.

- ٤ -

وحينما يقبل الشتاء ويعزل الساحل عن العالم الخارجى، كان أهله يتوافدون على الدكان إلا إذا حالت بينهم وبينه ظروف جدية استثنائية للغاية. وكانوا يذهبون إليه فى سياراتهم وعرباتهم الرثة، أو حتى يعودون من المدينة مع جويل ويقطعون الطريق الطويل إلى المنزل سيراً على الأقدام. وبعضهم ممن كانوا يقيمون بالقرب من الطريق الجبلى العام، ربما آثروا الذهاب إلى محال تجارية أكبر حجمًا. لكن أصحاب هذه المحال لم يكونوا يتوسعون فى البيع بالنسيئة، أو هكذا كان الأهالى يحسون إذا ما قارنوا التعامل معها بما كان يجرى فى محل آل نورتون. وكانوا يرفعون ثمن مشترياتهم إذا استطاعوا. ولم يكونوا يتأخرون عن الدفع إلا فى أعقاب أشهر الصيف المعسرة أو أشهر الشتاء القاسية. وإذا كانوا على بينة من موقف جيرانهم سكان الخليج نحوهم بصفة

عامة، فقد حرصوا على ألا يذهبوا فى احترامهم إلى الحد الذى ينزل من كرامتهم.

وكانت سجاياهم تبدو أحسن ما تكون حين يجتمعون فى المحل يستمتعون بالدفء والصداقة ويتمنون لو كانت بيوتهم أكثر تجاورًا، حتى يتاح لهم أن يتزاوروا مثلما يفعل أهل الخليج . وبعد أن يبتاعوا من روح النعناع والفانيليا ما يزيد عن حاجة الطهو، ومن زنجبيل جمايكا أكثر مما تطيق مائة معدة مضطربة، كانت لوسى تهدئ من شعورها بالذنب بمجرد التطلع فى وجوههم واستشفاف مدى الضريبة الفادحة التى يفرضها عليهم أسلوبهم الذى ينتهجونه فى حياتهم.

وكان من الأشياء التى تبعث على الاستغراب كيف أنه فى شقة صغيرة من الأرض كهذة يمكن أن يظهر مثل هذا التباين بين سكان الساحل وأهل الخليج رغمًا من قصر المسافة التى تفصل بينهما . فأهل الساحل من عادتهم الرعونة والتمايل فى أثناء مسيرهم، وهم يميلون إلى تغيير مواضعهم عند جلوسهم فى المحل، تبدو عليهم علائم الشك والارتياب إذا ما تطلعوا للغير . أما تعبيرات وجوههم ففى الإمكان أن تنقلب بسرعة فتحكى عن فظاظة ، فى حين أن وجوه صيادى الخليج لا تعبر عن غير السكون والانطواء . وقد دأبوا على إبداء سخطهم واعتراضهم الذى لا غناء فيه على الطقس وتأففهم من ندرة جراد البحر والرنجة وارتفاع تكاليف المعيشة. وكان واضحًا أنهم

ينطوون على قليل من صفات العقل الذى يمكن أن يحتج أو يسخط على الثمن الغالي الذى تفرضه الحياة ذاتها على الناس أو حتى أن يستبينوه.

وقل أن تجد بين نساء الساحل من تستطيع أن تنافس نساء الخليج في براعتهن في شئون التدبير المنزلى الذى كان يعتبر من مفاخرهن. فالستائر تنسدل في غير نظام فوق النوافذ، ممزقة وغير مستوية. أما مطابخهم العظيمة القديمة فكانت تستخدم إما كأماكن يخزنون فيها أدوات الصيد وإما للإقامة فيها، أو حتى للإعداد السريع لأى طعام يمكن أن يحصلوا عليه. وكانت ملابس شاباتهم مهلهلة ومن نوع رخيص ولو أنهن كن يحاولن مجاراة ذوق العصر على نحو يدعو للرثاء. وكانت لوسى ترى أن ما تدفعه ثمناً لإصبع أحمر الشفاه ربما أمكنها أن تشترى به " جوالاً " من البطاطس. أما جويل فكان يشترى علب الفاكهة المحفوظة والمربى من أسواق الجملة على كره منه، اعتقاداً منه أنه لو عنى بغيطانه ومراعيه في موسم التوت لاحتفظ به استعداداً للشتاء. وسواء أكانت نساؤهم فى سن الشباب أم الكهولة، فقد كن فيما يبدو مجرد أذيال لأزواجهن لا شريكات محترمات لهم. وكثيراً ما بدا عليهن الإرهاق وفتور الهمة كما بدا على أطفالهن النحول والإهمال وسوء التغذية.

وجميعهم يمتازون بالطيش والنزق رجالاً ونساء على حد سواء. وكثيراً ما عجبت لوسى مما يجرى فى أفئدتهم حقًا. لكن على الرغم من

أنها مثل كل جيرانها تتطلع إلى عدد منهم فى شىء من الحذر والريبة، إلا أنها كانت تفتقدهم إذا لم يترددوا على محلها لأسباب أبعد ما تكون عن النواحى المادية.

- ٥ -

ولقد عرفت سارة هولت منطقة الساحل فى أيام أشد اختلافًا عن تلك التى عرفتها فيها لوسى. وفى سنى شبابها كانت بيوتها الكبيرة أنيقة وبديعة، وكانت تؤوى ألوانًا من الرجال والنساء يختلفون عن شاغليها الحاليين. ومن أصلاب هؤلاء خرج ضباط ومتعهدو شحن البضائع؛ بل وربابنة سفن بنيت وأنزلت إلى الماء فى عشرات من موانئ المين الشرقى. وفيها عاشت نساء أبحرن مثلها إلى أقطار نائية وعرفن العالم جيداً إلى حد أنهن لم يخلطن بين مساقط رءوسهن وبين هذا العالم قط عندما يعدن إليها.

كانت تقول للوسى:

- ولكنك لن تصلى إلى أية نتيجة ما دمت تتطلعين دائمًا إلى صورة الأشياء كما كانت فى الماضى وعلينا أن نجارى الواقع والتطور. لقد منحك هذا الساحل الأرض فى ظل أوضاع ميسرة، أما اليوم فإنه يفرض ثمنًا فادحًا لقاء ما يعطيه. وهناك بعض الناس ليس فى وسعهم أن يدفعوا هذا الثمن.

ورأت لوسي أن هذا الكلام يصدق على أهل الساحل، حتى وهى تبيع لهم كثيراً من النعناع مع طعام أقل أهمية وإثارة ولم يكن فى وسع غالبيتهم أن يدفعوا الثمن الذى كان يتطلبه منهم وقتهم ومكانتهم. أما أسباب هذا العسر فلم تكن مما يمكن استكناهه، أو على الأقل هذا ما كان يبدو لها، فقد رسبت هذه الأسباب فى التاريخ الخامل الذكر لكل أسرة تعيش الآن فى البيوت القديمة القائمة على طول عشرات من الطرق الساحلية، شهدت هى الأخرى أياماً أفضل حالاً.

وحين ترامت أنباء وفاة سارة هولت إلى أهل الساحل، انتاب بعض الصيادين إحساس خفى بالارتياح المشوب بالقلق والشعور بالذنب. ولم تكن غالبيتهم تحسن معرفتها، ولكنهم كانوا دائماً يستشعرون وجودها، ويدركون مبادئها المتعلقة بالسلوك الإنسانى. وقد استبد الفضول بكل نساء الساحل حتى إنهن ذهبن إلى جيرانهن رغم بعد الشقة، أو حتى إلى المحل لكى يتسقطن أية تفاصيل جديدة عن جنازتها، التى كن يتطلعن إليها فى ترقب ملهوف .

الأطفـــــال

- ١ -

فى الساعة العاشرة تجمع أطفال الخليج أمام المحل استعداداً لجمع الأزهار وكانوا جميعًا ستة لا يتجاوز عمر أحدهم العاشرة. كانت هناك ماريلين البالغة من العمر عشر سنوات، وأخوها بنى البالغ من العمر سبع سنوات، وهما من أحفاد حنة ستيفنز. وقد درجا منذ مولدهما على قضاء جانب من إجازتهما الصيفية لدى جديهما، وأصبح مما يدخل المتعة على قلبيهما أن يزهوا على أقرانهما فى الريف بما لديهما من تجارب أوسع وأكثر تباينًا. وضم شمل الرفاق كذلك الطفلة مارى ذات الأعوام التسعة وأخاها دافى صوير ذا التسعة الأعوام. أما مارى، فكانت واعية يعتمد عليها، ذات شعر أحمر يتدلى فوق أذنيها على شكل ضفيرتين، وعينين زرقاوين كعينى أمها، شديدة الاهتمام بأخيها الضعيف البنية. وكان هناك أيضًا الطفل ستيفن ويست وعمره عشر سنوات. وكان أقرانه يشعرون بأسف مبهم نحوه لما يظهر عليه من جد حتى فى أثناء اللعب ولأنه كان بادى القلق دائمًا يتصرف على نحو أكبر

من سنه. وأخيراً ضم الشمل إيللى راندال التى قلما لعبوا معها لأسباب غير واضحة تماماً، ولو أن لوسى نورتون قد خلعت عليها اسم قائدة الحملة. وكانت إيللى قد احتلت مكان الصدارة والأهمية فى أعينهم لأنها كانت تعرف تماماً أين توجد أجمل الأزهار، ولأنها الوحيدة التى تقتنى فى تلك اللحظة عشرة سنتيمات لتنفقها فى شراء الحلوى لأقرانها جميعاً من المحل.

وعندما خرجت إيللى من المحل حاملة معها أعواد العرقسوس فى لفافة من الورق، شرعوا جميعاً يصعدون التل الطويل. وقالت لهم إيللى إنهم ذاهبون إلى مستنقع يبعد كثيراً عن بيت دانيل ثيرستون حيث سبق لها أن رأت بعض الزنابق الحمراء. وكم كانت بهجة الأطفال جميعاً حين عرفوا أنهم سوف يحصلون على أزهار غير مألوفة لأجل السيدة هولت العجوز، لا مجرد أزهار الأصطر، والأعواد الذهبية، التى كانت الآن مزهرة بكميات وافرة على جنبات الطرق، وقد مالت فوق أعوادها قليلاً تحت تأثير الضباب والمطر. أما وقد انقشعا أخيراً فقد التمعت تحت ضياء الشمس الدافئة.

قالت ماريلين:

– جدتى تقول إننا لن نجد زنابق فى هذا الوقت لأنها لا تزهر إلا فى شهرى يوليو وأغسطس.

وعندئذ جذبت إيللى حزمة معطفها الأزرق الكالح اضطراب . فقد كان ينتابها بعض الخوف من طفلى آل ستيفنز اللذين لم يسبق لها أن لعبت معهما قط . وحتى مع ما يفرضه عليها وضعها الجديد من شعور بالأهمية كقائدة وزعيمة لرفاقها ، فقد أحست بالقلق والخجل إزاء كلمات ماريلين ونظراتها التى تعبر عن مشاعر غير ودية .

وقالت مارسى بسرعة :

– أظن إيللى تعرف عن الزهور أكثر مما نعرف . ولن تمضى بنا إلى هذا المستنقع إذا لم تكن واثقة . أليس كذلك يا إيللى ؟

وأحست إيللى بأن عليها أن تتكلم؛ إذ يبدو أن العرقسوس لم يكن كافيًا ليزكيها فى هذه اللحظة . وحولت عينيها السمراوين الواسعتين إلى عينى ماريلين الرماديتين الحادتين . ثم قالت فى هدوء :

– لا أحد يستطيع أن يقطع بشىء عن الأزهار . إنها تفعل أشياء مخيفة وغريبة أحيانًا . فقد توقفت هذه الزنابق عن الازدهار فى شهر أغسطس ثم بدأت مجموعة كبيرة منها تزهر ثانية .

سوف ترين أننى لا أقول كذبًا .

وفجأة قال بنى :

– أبوك يكذب . هكذا يقول والدى .

وأمسكت مارسى ببنيقة قميصه وجذبته فى غضب بعيداً عن الجماعة الصغيرة إلى جانب الطريق وقالت وهى تهزه منذرة :

– إذا لم تكن تريد أن تضرب ضربًا مبرحًا، فما عليك إلا أن تكف عن الكلام الذى تقوله لإيللى .

لم يعد لك مكان بيننا ، بل ولن ألعب معك بعد الآن قط إذا تفوهت بمثل هذا الكلام البغيض .

ثم انضمت إلى بقية رفاقها وقد أحست بالارتياح عندما ألفت بنى ينشج متجهما .

وقالت لإيللى وهى تطوق خصرها بذراعيها :

– إن ما قلت عن الأزهار صحيح ؛ ذات مرة وقد اصطحبنى والدى فى نزهة إلى جزيرة هاردتاك ، عثرنا على زهرة إيريس زرقاء فى شهر سبتمبر . فأخذناها إلى المنزل ووضعناها فى زهرية، ولكنها ما لبثت أن تعفنت فى اليوم التالى وزالت عنها نضارتها التى كانت لها حين كانت تنمو هناك .

قالت إيللى ونبرات صوتها ترتجف قليلاً :

– هذه طبيعة أزهار الإيريس . إنها ليست للقطف، وجمالها يكمن فى مجرد النظر إليها وهى تنمو فى مستنقعاتها .

بل إنها أحست بمزيد من القلق والاضطراب حينما مروا بباب فناء بيتها قبل أن يسلكوا الممر الممتد فى الغابات أمام بيت دانيل ثيرستون وهم فى طريقهم إلى المستنقع . كان يعج بكل ما يخطر على البال : إطارات قديمة، بعض السلال المهشمة، وأشكال وألوان من العدد والآلات . لم يكن به حياض تمتلئ بالأزهار النضرة كغيره من أفنية الأطفال الآخرين، لا ولم يكن بيتها فى نظافة وحسن هندام بيوتهم . ولولا ديفى، لاقتادتهم جميعًا عبر الممر العالى الممتد فوق الرابية التى تحجب بيتها عن الرؤية . لكنه كان صغيراً جداً . ورغم ذلك فكان ثمة شىء واحد بعث الطمأنينة فى قلبها . فقد خرج أبواها فى الصباح الباكر إلى مكان ما . وعندما استيقظت من نومها، كانا قد غادرا المنزل .

وتساءلت ماريلين على نحو فيه ازدراء لعينى مارسى :

– ماذا ينوى أبوك أن يفعل بكل هذه المهملات ؟

ألقت بهذا السؤال وقد أمسكت بيد أخيها خشية أن تنهال عليه مارسى مرة أخرى .

قالت إيللى وهى تحاول أن تحفظ كبرياءها :

– إنه يستطيع أن يصنع شيئًا من أى شىء هناك . إنه يستطيع أن يعمل أى شىء مهما كان .

قالت مارسى :

– ويستطيع أن يثبت الأشياء فى موضعها كذلك . ذات مرة وقبل أن نشترى قاربنا الجديد، جاء أبوك فركب المحرك له . وقال أبى إنه لا يعرف أحداً يستطيع أن يثبت المحركات فى مثل براعة أبيك يا إيللى .

وهناك التمعت عينا إيللى الحمراوان ببريق السرور . وفجأة شعرت نحو مارسى بحب جديد غريب .

قال داقى :

– لقد تعبت للغاية . هلا توقفنا قليلاً للراحة ؟

قالت مارسى :

– نعم . يمكننا أن نستريح .

ثم استدارت لإيللى وقالت :

– هات يديك فى يدى ولنجلسه فوقها كما لو كان يجلس على مقعد، حتى لا يضطر للمسير فى هذا الطريق الوعر إلى منزل دان .

وشبكت كل منهما يديها فى معصمى الأخرى وصنعا من هذا التشابك مقعداً .

قال ستيفن :

– سأرفعه . وإذا شعرتما بالتعب ففى استطاعتى أن أحمله بدورى . إنه لا يزن شيئًا .

قالت إيللى :

– سنستريح بمجرد أن نبلغ بيت دان حيث توجد ربوة تطل على البحر . وهناك يمكننا أن نأكل ما لدينا من عرقسوس .

قال ستيفن :

– شكرًا على العرقسوس الذى اشتريته لنا .

قالت إيللى :

– ليس هذا بالشىء الذى يستحق الشكر .

– ٢ –

لم يكن ثم بادرة تدل على وجود حياة حول بيت دانيل ثيرستون الأحمر الذى مروا به فى طريقهم إلى الربوة . ورأى الأطفال أن قاربه قد غادر مرساته . وتطلعت إيللى إليه وقد استولى عليها الاضطراب .

قالت :

– لم يكن متوقعًا أن يخرج اليوم للصيد . هكذا قال الطبيب : إنه مريض .

قال ستيفن :

– أراهنكم على أنى أعرف المكان الذى ذهب إليه . شهدته يطوف بالساحل وأنتم ذاهبون لشراء العرقسوس فى حين كنا ننتظركم . وكان عنده جوال كبير من قماش القلاع يضعه فوق مقدم القارب . وربما يكون قد ذهب ليدفن كلبه فى البحر .

قالت إيللى فجأة قبل أن يهم أحد غيرها فيتحدث عما تخشاه :

– إنه رجل عجوز طيب شفوق . لست أدرى كيف سيتحمل فقد كلبه روفر .

قالت مارسى :

– ولا أنا . لقد صنع لداڤى زورقًا ذات مرة . أليس كذلك يا داڤى ؟

قال الصبى الصغير :

– نعم . وكان زورقًا بديعًا كذلك . تستطيعين الآن أن تنزلينى أرضًا يا مارسى .

تجمع الرفاق فوق الربوة العالية الناتئة فوق الحجر وقد علتهم جميعًا مسحة من الجد وهم يتخيلون منظر الكلب روفر وقد راح دانييل يسقطه فى مياه البحر . وأرادت إيللى أن تخفف من وطأة الموقف فأخذت تقسم أعواد العرقسوس عليهم . وهمست فى أذن مارسى وقد تورد وجهها بهجة لذلك الإحساس بالصداقة الجديدة التى ربطت بينها وبين مارسى :

– ما رأيك فى أن نوزع على كل منهم عودين على أن نكتفى أنا وأنت بعود لكل منا ؟

وردت مارسى همسًا كذلك :

– موافقة . هذه فكرة طيبة .

قالت ماريلين :

– لا داعى لأن تعطينى عودين ، فمعى مصروف جيبى ويمكننى أن أشترى كل ما أريد .

قال ستيفن :

– إنها حلوى إيللى، ولها أن تفعل بها ما تريد ، وأعتقد أنها ومارسى قد أظهرا كرمهما الزائد نحونا .

ثم تناول عوديه شاكراً وشرع يأكلهما على الفور وقال :

- شكراً لك يا إيللى .

كانت الشمس دافئة وساخنة فوق الربوة . وامتد البحر تحتهم وأمامهم، شاسعًا ساكنًا . وكانت مارسى تمسح فم ديقى بمنديلها بين الحين والحين وهو يمضغ العرقسوس . وكان فى وسعهم أن يروا عبر الخليج بيت هولت وسط حقله المرتفع .

وهناك كان يمكن أن يرى بوضوح من خلال الهواء الشفيف رجل يذرع الشاطئ جيئة وذهابًا . وهنا قالت ماريلين وقد بدأت تأكل عود العرقسوس الثانى :

– إنه ثاديوس .

ثم بدرت منها ملاحظة وضعتها فى صيغة سؤال .

– ألا يشرب شيئًا بشعًا ؟

– نعم إنه يشرب الخمر لكنه لا يشربه الآن، هذا ما يقوله أبى . ولكنه لا يستطيع أن يكف عن الشراب لا لأنه يريد ذلك . إنه يحاول أن يمتنع ولكنه لا يقدر على الامتناع . يقول والدى إننا جميعًا لابد أن نرثى لحاله

قال ستيفن :

- لقد صنع لنا كل هذه المقاعد الصغيرة وطلاها كذلك بمختلف الألوان . لست أستطيع أن أتصور ما سوف تؤول إليه هذه المقاعد .

واغرورقت عينا إيللى بالدموع سريعًا . إنها لم تجلس على هذه المقاعد الصغيرة كثيراً مثلما فعل الأطفال الآخرون . لكن السيدة هولت العجوز كانت قد دعتها مرتين أو ثلاثًا كذلك . بل إنها كتبت بضع كلمات ذات يوم وبعثت بها إلى أعلى التل مع ثاديوس تدعو فيها إيللى لحضور حفل أقامته للأطفال . وتطلعت إيللى نحو مارسى فى استسلام، وحين وجدت العبرات فى عينيها كذلك ارتاح قلبها .

قالت مارسى :

- لقد جلست أمى كذلك على هذه المقاعد عندما كانت طفلة صغيرة . وكانت السيدة هولت قد تقدم بها العمر . وتقول أمى إنها كانت تعطف على كثير من الأطفال .

وسأل بنى إيللى وهو يتطلع إلى قدميها السمراوين القذرتين أسفل معطفها :

– هل تمشين دائمًا حافية القدمين فوق كل هذه الصخور ؟

أما إيللى فقد صعد الدم إلى وجهها وأجابت فى شجاعة مباغتة :

– نعم، وما الذى يعينك من هذا ؟ أنا أحب المشى حافية فوق الصخور .

وألقت مارسى نظرة ملؤها الغيظ والتهديد فى وجه بنى الذى بدا مذعوراً .

ثم قالت :

– يحسن بنا أن نمضى إلى المستنقع يا إيللى لنقطف الكثير من الأزهار .

– ٣ –

ومرة أخرى حملوا ديڤى عندما غادروا الربوة وقد ساروا فى ممر ضيق يمتد وسط الغابات ميممين شطر المستنقع . وفى هذه المرة كان ستيفن وماريلين هما اللذين حملا ديڤى الصغير بناءًا على اقتراح من ماريلين . لقد خامرها إحساس ممض بالوحدة وتقدمت بهذا الاقتراح فى محاولة لإعادة الطمأنينة إلى قلبها . وكان الممر مبللاً ومظلمًا تحت الأشجار المخيمة فوقه .

قال ستيفن ، وهو يتعثر مع ماريلين تحت ثقل ديقى :

– لم آت إلى هنا من قبل فيما أظن يا إيللى . لابد أنك تعرفين أماكن كثيرة لا نعرفها نحن .

قالت إيللى وقد ملأها الإحساس بالنشوة زهواً : نعم .

وبعد عشر دقائق كان الجمع قد خلف الممر وراءه وأقبل نحو حافة مستنقع صغير تحفه أشجار الحور وأحراج نبات الدخان وقد حملت آخر بذورها الجافة . وعلى الرغم من أن الجو كان ساكنًا فقد تهاوت خصلات الشواشى من أكمامها الهشة تهفو فى ضياء الشمس .

قالت إيللى :

– هذا شعر الجن .

قالت ماريلين متلطفة :

– هذا اسم جميل . أين سمعته ؟

قالت إيللى :

– أبى هو الذى أطلق هذه التسمية . إنه يفعل ذلك بالنسبة لكثير من النباتات .

صاحت مارسى وهى تشير فى نشوة إلى بعض الزنابق الحمراء النامية عند الطرف البعيد من المستنقع وقد اعتدلت أزهارها فوق أوراقها المشرشرة .

– يبدو أن إيللى كانت على حق، والظاهر أنها تأخرت فى الإزهار حتى الآن من أجل السيدة هولت العجوز .

والآن انتظر الأطفال جميعًا فى احترام ما سوف تصدره إيللى من أوامر قالت :

– يحسن بديقى أن يبقى هنا فوق هذه الصخرة الكبيرة . فربما كان المستنقع عميقًا بالنسبة له، فضلاً عن أنه مكان شديد البلل . لقد اقتصدت لك نصف أعواد العرقسوس يا ديقى . أما أنت يا بنى فلتنتظر معه . هل ترى هذا التوت الأزرق ؟ يمكنك أن تأكله . لن نغيب عنك كثيرًا يا ديقى وسوف نكون دائمًا على مرأى منك . وعندما نأتى بالزنابق سوف نستريح معك جميعًا بعض الوقت .

قال ديقى وهو يتناول العرقسوس :

– حسنًا .

قالت إيللى :

– طريقة قطف الزنابق هى أن تنتزعوها كامل بجذورها . وسأريكم كيف تقطفونها . بهذه الطريقة يمكننا أن نحتفظ بها فى حال أفضل.

ثم نضعها فى مياه راكدة حتى نأتى بغيرها . ويوجد عبر المستنقع مكان رملى ينمو فيه كثير من النباتات البحرية العطرية . لقد رأيت بعضًا منها ذات مرة فى زهرية فى غرفة الجلوس بمنزل السيدة هولت العجوز .

قالت مارسى :

– لا تخش شيئًا يا ديقى، فلن نبعد عن هنا كثيراً .

قال فى ثبات وإصرار :

– لست خائفًا .

قال بنى :

– سأجعل بالى إليه .

وعندما انتهى الأطفال الأربعة الذين كانوا يعملون تحت إشراف إيللى من قطف كل الزنابق التى غمرتها بعناية فى بركة وسط روابى المستنقع الخضراء قطفوا كميات كبيرة من نباتات العطر البحرية وكانت أقل نضارة منها فى فصل الصيف، ولكنها كانت لا تزال بهية الرداء، بأزهارها الرقيقة الهفهافة:

قالت إيللى :

– أظن أن من الحماقة أن تقطف أزهار الأعواد الذهبية هنا . والأفضل أن نأخذها معنا ونحن فى طريق العودة .

– ٤ –

كانوا مكدودين مبللين عندما انتهوا من جمع زهورهم ثم قفلوا راجعين إلى الصخرة الكبيرة حيث ينتظرهم الصبية الصغار وقد اسودت أفواههم وازرق لونها من أكل العرقسوس والتوت .

قالت بنى :

– تحت أشجار الحور هناك توجد بعض الطيور المبرقشة .

قالت إيللى :

– إنها الطيور الرحل، تتأهب للطيران إلى الجنوب لتمضى الشتاء هناك وسوف تتجمع فى مكان واحد ثم تطير معًا . وسوف تكون رحلتها طويلة إلى الجنوب .

وسألتها ماريلين وهى لا تزال ممتعضة من تزعم إيللى للجماعة :

– وكيف تعرفين كل هذا ؟

قالت إيللى :

– والـدى يعـرف كـل شـىء عـن الطيـور ، ولكـنـه لا يحـتـاج قـط إلى مطالعة كتبه بحثًا عن المعلومات . إنه فقط يعرف بنفسه كل شىء .

ومرة أخرى مسحت مارسى فم أخيها الصغيرة واصطبغ منديلها بلون العرقسوس الأسود، فهبطت من فوق صخرة وغمرته فى ماء المستنقع ثم نشرته فوق شجيرة حور ليجف فى الشمس. وكان منديلاً كبيرًا رسم عليه دببة صغيرة حمراء لابسة قبعات مضحكة .

قالت إيللى :

– هـذا منديل جميل للغاية يا مارسى .

قالت مارسى :

– سأعطيه لك يا إيللى، سوف تغسله أمى وتكويه ثم أقدمه إليك لكى تتذكرى هذا اليوم الذى قطفنا فيه الأزهار للعجوز هولت .

قالت إيللى ولو أن قلبها يفيض بالدهشة والسعادة :

– لا تفعلى هذا . لن أشعر براحة بال لو أنى أخذته .

وتطلعت ماريلين فى ازدراء إلى المنديل وهو يجف فوق شجيرة الحور . وقالت :

- عندى ستة مناديل فى المنزل . وكل منها بلون مختلف، وجميعها اسم "ماريلين" مطرزًا عليها . لقد أخذتها جائزة فى المدرسة .

وكان لهذه الحقيقة الهائلة وقعها الساحق على بقية الأطفال، وعلى إيللى بصفة خاصة، التى لم تكن تملك أى منديل على الإطلاق . وتقدمت مارسى لإنقاذ إيللى وقالت لماريلين :

- لا تبالغى هكذا .

وانضم إليها بنى يعنفها وقال لأخته :

- أنت مقلوبة السحنة دائمًا .

وقد شعر ستيفن بتوتر الموقف وألقى سؤالاً جادًا ليخفف من حدته أو ليزيده توترًا . وراح يتساءل فى أدب :

- هل حضر أحدكم جنازة ؟

وكان الصمت الذى أعقب هذا السؤال دليلاً على أن أحدًا لم يحضر جنازة . .

وتساءل بنى :

– وماذا نفعل فى جنازة ؟

قالت مارسى :

– تجلس ساكنًا . سوف نجلس جميعًا فى المطبخ فوق الكراسى والمقاعد الصغيرة . ويجب علينا ألا نتحدث أو نبدى حركة على الإطلاق . وبعد ذلك سوف تأخذنا السيدة نورتون جميعًا معها إلى غرفة الجلوس لنرى السيدة العجوز هولت حتى تظل تذكر دائمًا كيف كانت طيبة معنا .

قال ديفى وهو يبكى قائلاً :

لا أريد أن أراها .

قالت مارسى :

– لن تراها يا عزيزى . لا تقلق بالك . سأعنى بك، وسوف تكون أمك هناك كذلك .

وأحاطت الصبى الصغير بذراعيها ، فارتمى فى أحضانها وعادت إليه ابتسامته .

وأحس ستيفن مرة أخرى أنه قد يكون من الأفضل لو أنه غير موضوع الحديث ما دام هو المسئول، وقال فى رصانة :

– عندما سافرت العجوز هولت بإحدى هذه السفن الشراعية منذ وقت بعيد، كثيراً ما شهدت حيتاناً أكبر من بيوتنا ينبجس الماء منها عاليًا فى الهواء، ورأت كثيراً من كتل الجليد الأخضر عائمة فى المحيط كالجبال . وأحيانًا كثيرة كانت ترى السمك الطائر وسمك القرش الضخم وسائر الكائنات التى تعيش فى أعماق البحر .

وسأله بنى :

– وهل رأت ثعبانًا من ثعابين البحر ؟

قالت له أخته :

– كفى حمقًا . ليس هناك شىء اسمه ثعابين البحر .

وأحس بنى أنه يتحول تحولاً عنيفًا عن أخته . وكان فى تلك اللحظة يؤثر أى طفل من رفاقه عليها .

وسألها غاضبًا :

– وكيف عرفت ؟ توجد ثعابين بحرية . أليس كذلك يا ستيفن ؟

قال لها !

صاحت ماريلين :

– قلت لا توجد ثعابين بحرية . قرأت عن هذا الموضوع فى كتاب الجغرافيا فى المدرسة . وهذا نص الكلمات التى حفظتها : "خلافًا للرأى الشائع، فإنه لا توجد ثعابين بحرية" .

وجاءت سعة اطلاعها غير المتوقعة، فأذهلتهم جميعًا . وكانت ماريلين سباقة إلى انتهاز الفرصة ومحاولة الظهور بمظهر المتفوق عليها وراحت تقول فى تعال :

– وإذا لم تكن تصدق ما يقوله الكُتَّاب، يمكنك أن تصدق مدرستى فى بورتلاند المين . إنها تتناول ما يشاع عن وجود ثعابين بحرية بالهزء والسخرية .

ولم يستطع أحد من الأطفال أن يتكلم . لقد كان مجرد ذكر مدينة نائية مثل مدينة بورتلاند كافيًا لعقد ألسنتهم . كانت بورتلاند بمفهومها فى أذهانهم تحمل معنى الشىء البعيد المحوط بالغموض . واستولت عليهم الرهبة وسادهم الصمت .

على أن إيللى كانت أول من أفاق من هذا الذهول؛ فقد تذكرت فجأة شيئًا أكثر إثارة من الثعابين البحرية ثم قالت فى بطء وهى تنتظر تأثير كلامها فيهم جميعًا :

– لقد ولد ثاديوس هولت في البحر عند كيب هورن في يوم زوبعة عاصفة . هكذا قالت السيدة هولت لأبي ذات مرة ، وكان قد ذهب إليها ليساعدها في عمل من الأعمال .

حملق الصبية الصغار في إيللي، وحتى مارسي بدا عليها الاضطراب والحيرة .

قال ديڤي :

– هذا ليس صحيحاً . هل تصدقين يا مارسي أن الناس يعثرون على الأطفال في البحر ؟

وغمزت ماريلين لستيفن بعينها غمزة العارف، ثم أطبقت يدها على فمها وأطلقت ضحكة مكتومة ، فاستدارت إليها مارسي في هياج وراحت تصيح :

– إياك أن تضحكي عليه . إنه مجرد طفل صغير . إنك أحقر فتاة أعرفها في العالم بأسره .

دعك منها يا ديڤي . سوف نسأل أمي عندما نعود إلى البيت .

قالت ماريلين متضاحكة :

– أما أنا فلست في حاجة لسؤال أمي .

وإذا جاشت نفس ستيفن بالتأثر حين أبصر ما فى عينى دافى الواسعتين من حيرة وما اعترى مارسى من غضب . فقد شعر فجأة بحزن غريب يثقل قلبه لأجلهما . وصوب إلى ماريلين نظرة هادئة باردة ملؤها الازدراء فأسكتها ثم استدار لإيللى وقال لها هامساً :

- كنا صغاراً مثله فى يوم من الأيام .

- ٥ -

لقد أسفت إيللى التى لم تخف عليها الحياة هى وستيفن شيئًا كثيراً فى الجو الخاص الذى ربيا فيه، أسفت لإعلانها المزعج الذى بدا أنه يفرقها عن مارسى . ومن ثم فقد أخذت الآن تحاول جمع شمل الرفاق عن طريق ممارسة نفوذها .

قالت :

يحسن أن نهم بالعودة، فالطريق إلى بيت السيدة هولت طويل . أما مارسى وأنا فسوف نحمل ديفى، وعلى ستيفن أن يمسك بالزنابق لأنه سيعنى بها . ويمكن لبنى وماريلين أن يأخذا معهما الزهور العطرية، وعندما نخرج إلى الطريق سنقطف زهور الأصطر والأعواد الذهبية، ثم يمكننا بعد ذلك أن نجمع المزيد من هذه الأزهار العادية من حقل السيدة هولت العجوزة .

وتبعوا الطريق عائدين فى صمت، مارين ببيت دانيل ثيرستون . وكم كان ارتياح ستيفن وإيللى حين وجدا قاربه وزورقه عائمين فوق المد القادم . وواصلوا المسير خلال الدرب الممتد فى الغابة حتى بلغوا التل الواقع فوق الخليج . وهناك، وعلى نحو يكاد يكون تلقائيًا، تفرقوا أزواجًا . فأمسكت مارسى بديقى من يده . وبدأت ماريلين وبنى يكسران الأعواد الطويلة الأزهار الأعواد الذهبية والأصطر البيضاء والأرجوانية .

أما ستيفن وإيللى اللذان كانا يتبادلان شعوراً غريبًا بالتجاذب فقد اقتسما الزنابق ومضيا يهبطان التل . وقال ستيفن فى لهفة :

– هذا المركب كبير جداً ويحتاج إلى أكوام من الأزهار حتى يمتلئ .

– دع عنك هذا القلق . السيدة نورتون تقول إنها هى وزوجها سوف يجران المركب ويدخلانه فى مرسى ثاديوس . ويمكننا أنا وأنت أن نمكث بعد أن يعود بقية الأطفال إلى بيوتهم لتناول عشائهم ، ثم نشرع فى وضع أزهارنا فى المركب . إن كميات كبيرة من هذه الأزهار تنمو على مقربة من هنا .

قال ستيفن :

– هذه خطة جميلة .

ثم توقف قليلاً وعاد يسألها :

– هل أنت ذاهبة إلى البيت لتناول العشاء يا إيللى ؟ هل سيذهب أهلك إلى الجنازة ؟

قالت إيللى :

– على أهل بيتنا أن يخرجوا مبكرين هذا الصباح .

وحاولت وهى تلقى بهذه الكلمات أن تجعلها تبدو مفعمة بالأسف والأهمية ، ثم سألته :

– وماذا عن والدتك ؟ هل هى ذاهبة ؟

قال ستيفن :

– لست أدرى . وربما لا تكون موجودة فى البيت مثلكم . وكانت إيللى سريعة فى إدراك ما يساوره من قلق . وفجأة تبين لها أنهما وحدهما بعيدان عن الآخرين . ثم قالت فى صوت خفيض :

– عندما ننتهى من إعداد المركب سنعود معًا على طول الشاطئ ثم نصعد الطريق عبر الربوة إلى بيتى، وهناك يمكننا أن نجد عشاء لكلينا .

قال ستيفن بعد انقضاء بضع لحظات :

– تبدو جزيرة شاج مكانًا منعزلاً .

قالت إيللى :

- لا غضاضة عندى من الأماكن المنعزلة . والحق أنى أحبها

- ٦ -

قررت مارسى أن تلحق بالرفاق . وكانت قد ملأت حضنها بأزهار الأصطر وأعطت بعضها لديقى لكى يحملها معه . وقررت كذلك أنها أحبت إيللى راندال ورغبت فى أن تجعل منها رفيقة لها فى اللعب بمجرد أن تقنع والدتها بلطف بما أبدته إيللى من مودة وحب لديقى . وأقبلت ماريلين ومعها بنى من الأحراج القائمة على جانب الطريق . وسار الجميع معًا يهبطون التل . قالت مارسى :

- إن جزيرة شاج لا تبدو مدهشة هكذا إذا ذهبت إليها فى نزهة . لقد ذهبنا إليها مرة . وبطبيعة الحال لست أعد بشىء، لكن ربما اصطحبنا والدى جميعًا فى يوم من الأيام فى قاربنا الجديد إذا ألحفت عليه فى الطلب .

وبدا قلب إيللى كما لو كان سيقفز من حلقها . إنها لم تخرج فى نزهة حقيقية منذ جاءت إلى الخليج . وكانت كلمات مارسى التى تفوهت بها دون اكتراث والتى شملتهم جميعًا قد بدت لها غير قابلة للتصديق . وفجأة بدا المرفأ والقوارب الراسية فيه والبيوت الأنيقة الرابضة وراء

التل وجزيرة شاج بأشجارها المغلفة بالسواد والجنازة التى سوف يجلسون فيها معًا على المقاعد الصغيرة . وبدت وكأنها تقدم لها هدايا جديدة لا تقدر بثمن . وفكرت فى أنها ربما أقامت فى هذا المكان دائمًا .

والآن كادت تكف عن الكلام خوفًا من سخرية مارسى القاسية . ثم تساءلت فى خوف ودهشة .

– هل تعنين ما تقولين يا مارسى ؟

قالت مارسى فى تودد وكبرياء :

– بالتأكيد .

وتساءلت ماريلين وقد أخذ بنى يحملق متشككًا فى وجه مارسى :

– وهل تقصديننا نحن كذلك ؟

ومرة أخرى قالت مارسى وقد جعلها انتصارها تبدو ذات نخوة وشهامة :

– بالتأكيد إذا لم تعودوا إلى التباهى ببورتلاند ، وإذا لم تكفوا عن ازدراء ديفى أو إيللى . قلت جميعًا، أليس كذلك ؟ حسنًا . أنا أقصدكم كلكم .

قال ديڤى :

– قارب أبى أحسن قارب على هذا الساحل كله . وسوف يدعنى أسيره حين أبلغ السابعة من عمرى .

ونقل ستيفن الزنابق من يد ليد حتى يستطيع أن يمسك بيد ديڤى ويقيه عثرات الطريق فوق التل الصخرى الشديد الانحدار . ثم قال لمارسى :

– يمكنك أن تقطفى مزيداً من أزهار الأصطر إذا شغلت برعايته . وعلى أية حال فلن نستطيع أن نملأ هذا المركب الكبير .

ثم تطلع إلى إيللى وقال :

– إذا كان علينا أن نمضى فى تلك النزهة إلى جزيرة شاج فيمكننا أن نجمع مزيداً من الأزهار من هناك مباشرة لكى نضعها على قبر العجوز هولت .

الجزء الثالث

الجنـــازة

- ١ -

رغم ما كانت تكنه لوسى نورتون لسارة هولت من عرفان وإعجاب على طول كل هذه السنين، فقد أدركت دائمًا أن عقل المرأة العجوز ينطوى على أفكار لم تفقه كنهها تمامًا، ولن يتاح لها أن تلجها إطلاقًا. وكانت ملاحظة عابرة مفاجئة تصدر من سارة هولت، أو ربما من مجرد مطالعة اختلاجة فى وجهها تشير إلى انطوائها وحدها على عالم فكرى مغلق لم يستكشف بعد، تكفى لأن تعجب لوسى من أمر انعزالها عن الآخرين، وكانت لوسى تقول لو أنها عاشت فى زمان آخر وعرفت من الناس والأماكن مثلما عرفت سارة، لربما كانت هى الأخرى شخصًا آخر كذلك، قادرة على التعمق فى التفكير، وعلى فهم الناس بطريقة أفضل، وأن تنجو من القلق والخوف. إنها بطبيعة الحال لم تكن لتجيب قط عن هذا السؤال، أو تلك الأسئلة الأعمق منه والناشئة عنه. ولم يكن جويل الذى كانت تطرح عليه مثل هذه الأسئلة أحيانًا خلال سنى حياتها الأولى فى المحل، لم يكن بالشخص المستنير الذى يمكن أن يكشف لها ما يواجهها من غموض وإبهام.

كان يقول لها:

- إذا عجزت عن فهم هذا الأمر وكشف حجبه، فلا تتوقعى أن أستطيع أنا بالتأكيد فهمه وأنت أذكى منى. والناس هم على ما جبلوا عليه وكل منهم يختلف عن الآخر فيما أظن.

ولم تكن هذه الإجابة تشفى غليلها لأن الفروق التى تسم سارة هولت لم تكن مجرد فروق أو خلافات فى القدرات والخصائص كالفرق بينها وبين جويل مثلاً، حيث كانت هى سريعة الحركة وجويل بطيئها، أو كالفرق بين سام باركر وبن ستيفنز حيث كان سام طيباً وعلى سجيته، فى حين كان بنى شكساً صموتاً. مثل هذه الفروق تعد سطحية وواضحة، يدركها المرء بمجرد تأمل جيرانه.

أما سارة هولت فكانت كما تعرف لوسى من طبيعة تختلف عن هؤلاء وأولئك على نحو آخر تماماً. وقد جهدت لوسى فى مجرد محاولة لاكتشاف هذا الفرق حتى تحققت فى نهاية المطاف وبطريقة حاذقة وإن لم تكن كاملة، إن سارة تختلف عن أى شخص عرفته أصلاً، بفضل أسلوبها الفريد فى تناول الأشياء. وبسبب القرارات التى كان فى وسعها أن تتخذها والمسائل التى يمكنها أن تنعم النظر فيها كما لو كانت لا تربطها بها صلة على الإطلاق. كانت على العكس من جيرانها لا يمكن أن تتدخل فى مسائل تافهة أو أن تتورط فيها أو تشغل بالها بها أو

تدعها تتحكم فى سلوكها. كانت دائماً تنأى بنفسها عن هذه السفاسف وترقبها بطريقة غريبة حتى لا يكون لها تأثير فى مضايقتها كما تضايق غيرها من الناس.

وبمقارنتها بكل الناس الذين يعيشون فى عالم لوسى، بدا عقلها طليقًا لا تكبله أية أغلال. وكانت هذه الخلة هى التى جعلت من المستحيل على أى شخص أن يشعر بالأسف لها، وهى تتقدم فى العمر، بينما ثاديوس يرقب فى إشفاق وفهم يأسه وفشله، مقصيًا زوجه وولده حتى لا يشقيهما قط بقنوطه وضياع أمله.

وكم أفزع لوسى وصدمها خلال السنوات التى عرفت فيها سارة، طريقتها هذه فى نظر الأشياء. وعلى سبيل المثال تلك الليلة التى كاد فيها ثاديوس يموت غرقًا.

وقعت هذه الحادثة بعد أن هجرت نان المنزل بقليل، وبعد انقضاء بضعة أشهر انقطع فيها عن معاقرة الخمر. لقد تغيرت أحواله تمامًا خلال تلك الأشهر وامتلأ بالطموح وراح يخطط للمستقبل، فخوراً بمكانته فى مجتمعه. وكان قد عاد إلى مجالسة غيره من الرجال فى المحل فى الأمسيات رغبة منه فى استعادة احترامهم له وثقتهم فيه. وكان جميع أقرانه يقولون إن ثاديوس هولت قد أصبح شخصيًا آخر بهذا الاعتزاز بالنفس الذى استجد عليه.

ولكأن الأقدار أرادت أن تمتد له فى آماله وتحقق أحلامه، فملأت شباكه ببعض من أسماك الرنجة. وبينما هو يجرها بالليل بمعاونة جيرانه، لأن المد لم يكن قد أصبح مواتيًا إلا آنذاك، اختل توازنه فى قاربه وسقط فى الماء ووقع فى أحابيل شباكه. وحينما أفلحوا فى تخليصه، كان قاب قوسين أو أدنى من الموت، وقد خفتت أنفاسه ولم تعد إليه الروح إلا بعد محاولات دامت ساعة كاملة. وقال الرجال إنهم لم يصادفوا ورطة كتلك رغم كثرة ما رأوا.

قالت أمه للوسى – بعد الحادث ببضعة أيام:

– كم وددت لو أنهم لم ينقذوه حتى يموت وهو مازال على إبائه واعتزازه بنفسه. أما الآن فلن تتاح له الفرصة فيما أظن. ما كان أروع أن يموت والناس من حواله يجلونه، والأمل يراوده. وعن نفسى لم أكن لأتمنى شيئًا أفضل من هذا له ولى. وليس من المحتمل أن يأتى الوقت المناسب الذى يوافيه أجله فيه للأسف الشديد.

أما لوسى التى كانت تصغى لهذه الكلمات الهادئة، فقد عقد الصمت لسانها من الدهشة. لكنها احتفظت بثباتها فى حين أن غيرها ربما أصيب بصدمة منها. وقد زادت دهشتها حين وجدت نفسها تؤمن بأن سارة هولت كانت على صواب فيما قالت. وظلت كلماتها ترن فى أذنيها طوال الأسابيع والشهور التالية حين شرع ثاديوس يعاقر الخمر مرة أخرى، كأنما ليحقق النبوءة الكئيبة التى تفوهت بها أمه.

وقد صدمت كذلك. ولو أن الصدمة كانت بطريقة مختلفة حين حكت لها سارة فى عيد ميلادها التسعين، وكان ذلك منذ شهر فقط، عن رغباتها ونواياها بشأن وفاتها. وكانت لوسى قد صنعت كعكة احتفاء بعيد ميلادها. وقد اقتصر الحفل عليهما وحدهما فى غرفة جلوس سارة.

قالت العجوز:

– تسعون عامًا! الحق أنه لم يدر بخلدى قط يا لوسى أننى سأعيش حتى التسعين. لست أمانع فى أن أعيش بضع سنوات أخرى وأنت معى هنا، أفكر فى عديد من الأشياء وأتملى بمرآها. كم ذرفت من الدمع على الحياة كما هى، ولكننى لم أبك كثيرًا على حياتى أنا. وليست بى أدنى رغبة لأجادل فى هذه الناحية وربما كان الأجدر بنا أن نواجه الحقائق.

لم أعد صغيرة فيما يبدو. وإذا ما أخذنا بواقع الأمر فإننى لا أستطيع دائمًا أن أعتمد على ثاديوس، ومن ثم أعتقد أننى قد أضايقك بمكاشفتك ببعض ما يجرى فى خاطرى.

وخلعت لوسى نظارتها مسحتها بعناية. لقد ارتبكت وشعرت بالزهو والذعر فى آن واحد. وسألتها العجوز:

– هل فكرت فى المكان الذى سوف تدفنين فيه؟

ترددت لوسى قليلاً وهى تعيد النظارة إلى عينيها ثم قالت:

- الحق أننى لا أعرف. لكن ربما كان ذلك فى أى مكان. بجوار جويل. وقد يأتى يوم تعود فيه إلى الجزيرة لنعيش هناك، وكثيراً ما تحدثنا فى هذا الأمر.

قالت سارة هولت:

- حسنًا. الحقيقة أننى لا زريد بأية حال أن أرقد بجوار زوجى فى مدفن هولت العجوز القائم هناك فى الحقل. وهو أينما وجد فهو غير موجود بالنسبة لى. ولولا توم لما كنت أعبأ بآل هولت. ومع ذلك فليس هذا هو السبب. واعتقادى أن الناس إذا أرادوا أن يدبروا هذا الأمر فما عليهم إلا أن يعودوا إلى المكان الذى نشأوا فيه. وبرما كانت فكرتى قائمة على أساس أن يستكمل المرء دائرة حياته. والدنيا لا تدع لنا فرصة إنهاء حياتنا حيث بدأناها، ولم يعد فى وسع الناس أن يؤصلوا جذورهم فى الأرض فى كثير من الثقة بحيث يطمئنون أنها سوف تصمد فى مكانها وترسخ. ربما اتضح أن هذا خير فى النهاية، لكنى لست واثقة من ذلك على أية حال.

ولقد ساءلت نفسى كثيراً فى الأيام الأخيرة: لم تستهوينى فكرة الدائرة هذه؟ واعتقادى أنها ربما جاءتنى من البحر. فأنت تشعرين دائمًا وأنت فى عرض البحر أنك تكملين دائرة. فإذا ذهبت إلى ساحل

الصين ففى وسعك أن تقتربى منها من ناحية الشرق أو من المسالك الغربية. ومهما كان الطريق الذى تبحرين فيه فإنك دائمًا تكملين الدائرة. وهذا هو نفس الشيء بالنسبة للمد الذى يروح ويجئ، أو الآفاق التى اعتدنا رؤيتها تحيط بنا من كل جانب فى عرض البحر. ربما حسبتنى أخرف أو أهذى يا لوسى حين أقول لك إننى أود أن يعيدونى إلى جزيرة شاج، وأن أرقد فى مثواى الأخير هناك حيث بدأت حياتى.

قالت لوسى فى تؤدة وهى تبحث عن كلمات تسعفها فى الرد:

– لن يخامرنى اعتقاد بأنك تهذين. لكن جزيرة شاج أضحت مكانًا موحشًا بشعًا.

وهنا ابتسمت المرأة العجوز وقالت:

– هذا لا يعنينى فى شيء. كل ما هناك أننى فيها ولدت، وفيها أريد أن أدفن، إذا لم يكن فى ذلك ما يزعج أحداً. ربما أمكنك أن تخبرى جويل وسام باركر برغبتى فى يوم من الأيام، وسوف أحيط ثاديوس علمًا بنفسى إذا جاء الوقت المناسب.

– ومرت أخرى ابتسمت ثم استطردت:

– لا أستطيع أن أقف عن التفكير فى كل ما قد أسببه من هرج ومرج لأولئك المحيطين بى. لن تكون الدنيا كليلة فى هذه القرية يوم جنازتى يا لوسى.

- ٢ -

فكرت لوسى فى هذه الكلمات حين استجمعت قواها واستطاعت أن تركز شتات ذهنها، ثم همت وأقبلها تدبر ما وراءها من شواغل منزلية. كانت تعرف أنه لم تكن فى المحل حركة بيع، لأن مراكب الصيد ستكون قد عادت إلى الخليج وقد أخذ الجميع يتهيأون لتشييع الجنازة، فيتناولون عشاء سريعًا، ويرتدون أحسن ما عندهم، ثم يخرجون من بيوتهم فى جلبة وقد تملكهم انفعال غير عادى. ومع كل ما كانت تكابده من حزن ووحدة، لم تكن لتستطيع القول فى صدوق وأمانة بأنها لم تكن منفعلة. ومنذا الذى لا ينفعل لهذا اليوم ذى الطقس الجميل وقد أتى الأطفال بالزنابق، وهو يعلم أن هذه الترتيبات غير العادية قد هيئت وأعدت فى كل تفاصيلها وقد ربط الجميع إحساس مشترك واهتمام طاغ.

وما إن انتهت من تنظيم الغرف الواقعة فى الطابع الثانى واطمأنت إلى أن حلة جويل الزرقاء على ما يرام وكوت قميصه الأبيض، حتى أقبل جويل بعربته فى فناء الدار محملاً بالمؤن والزاد. وأسرعت بالهبوط إلى الطابق الأرضى لكى تعاونه فى إنزالها. وكان بادى الإرهاق والاضطراب. وقد حرصت على ألا تسأله عن «السجق» وكم كان ارتياحها حين أحست ملمسها الإسفنجى فى لفائفها الكبيرة من الورق الأسمر. وما لبثا أن شغلا فى عملهما المعتاد: هو فى تفريغ الجوالات والأكياس والصناديق

وعلب الكرتون، وهي في ترتيب محتوياتها فوق الرفوف والمناضد. وفي أثناء انهماكهما في العمل زالت آثار التعب من وجهه، وعندما جلسا يتناولان العشاء، وقد استعاد سجيته، قال:

– أعتقد أن عدداً كبيراً من الناس سيقبلون لحضور الجنازة سيما وأن الطقس جميل والكل يحترمها ويجلها. وينوي أهل الساحل أن يحضروا كذلك. ومعظمهم كان يستوقفني وأنا قادم إلى هنا ليستوثق من موعد تشييعها.

قالت لوسي:

– لقد أخذت أهبتي لكل شيء. فغرفة الاستقبال وغرفة النوم جاهزتان. ولو أتى من الضيوف ما يزيد عن سعة المنزل، فعندنا الفناء والجلوس فيه ممتع مع كل هذه الشمس الساطعة.

وتطلع إليها جويل شاكراً وسألها:

– هل ثاديوس على ما يرام؟

– في أحسن حال، ولكنه حزين ومنطو على نفسه.

قال جويل:

– أنا أشعر بالأسى نحوه. لا ينبغي أن نقسو عليه مهما يفعل، وخصوصاً أنه الآن وحيد لا مؤنس له.

وفكرت لوسى لحظات ثم بعد أن استقر رأيها على الكلام قالت:

- هل فكرت يا جويل يومًا أنه ربما كان من الأفضل لثاديوس لو أنك وسام لم تجهدا نفسيكما فى محاولة انتشالة ليلة أن سقط فى شباك الصيد؟

حملق فيها جويل وبدا عليه الذعر كما كان يبدو عليه دائمًا حين يؤخذ على غرة. وبعد جهد قال:

- لا يمكن للناس أن يفعلوا أشياء كهذه لبعضهم يا لوسى. عليهم أن يفعلوا خير ما فى وسعهم إذا ما دعا الداعى وآن الأوان.

وتمنت لوسى لو أنها لم تتكلم. وبدا لها جويل فجأة حكيمًا بطريقته الخاصة، مثلما كانت سارة هولت حكيمة بطريقتها الخاصة.

وقالت فى عجلة:

- لا، بطبيعة الحال، ليس فى وسعهم. طبعًا لابد أن يفعلوا يا جويل. لقد عرفت الآن أن جويل كان على صواب مثلما كانت سارة على صواب. أليس من الأشياء الغريبة فى هذه الحياة أن أشخاصًا مختلفين يمكن أن يفروا، بطريقة مختلفة، ومع ذلك نجد أن كلاً منهم على صواب؟ هكذا كانت تفكر.

- ٣ -

وعندما توقفا ليأخذا معهما سام باركر وركب ثلاثتهم عربة النقل التى يمتلكها جويل وأقلتهم إلى بيت هولت، أحست الزهو والفخار برجال عشيرتها، كانت حلة جويل الزرقاء متقنة الكى لا يكاد ينعكس منها أى بريق أو لمعان، وكانت لحيته محلوقة حلاقة جيدة، وقميصه ورباط عنقه ملائمين، وحذاؤه الأسود لامعًا. وكان سام كذلك بادى العناية بمظهره ولو أن لوسى رأت أنه متعب مكدود. كانت تعرف أنه يعز سارة هولت ويجل من شأنها، وأنه سوف يفتقد الساعات الطويلة التى كان يقضيها معها. أما لوسى فقد ارتدت ملابس الحداد التى صمدت على الأيام رغم كثرة استعمالها فى مثل هذه المناسبات، ولكنها عمدت إلى تجميل قبعتها القديمة بشرط جديد من المخمل الأسود.

قال سام عندما اقتربوا من رأس الخليج:

- المد فى أنسب حالاته، ولست أدرى يا جويل ماذا كنا فاعلين لو أن المد لم يكن مواتيًا. وربما عجزنا عن ترتيب الأمور حسب مرادها، لو لم يأت المد هكذا.

قال جويل:

- يبدو أن كل شىء انتهى على خير ما يرام.

وبينما كانت لوسى جالسة بينهما فوق مقعد العربة العالى، أحست فجأة بأنها وحدها، تمامًا كما أحست منذ أقل من لحظة أنها فخور بأن تكون معهما، تحس بالقوة لوجودها بقربهما. ودار بخلدها أن أحدًا منهم لم يكن فى وسعه أن يدرك تمامًا كيف انتهى كل شىء على ما يرام. ومرة أخرى عادت تتسلط على فكرها تلك اللحظات الغريبة حين وقفت فى غرفة الجلوس تتطلع إلى سارة هولت وقد هدأت كل جلبة وتكشف، ليس فقط معنى حياة سارة هولت، وإنما معني الحياة ذاتها كما عاشها الناس فى تلك الرقعة الجرداء من الأرض بجوار هذا البحر القاسى، معنى جليل يرفع من أقدارهم. وحينما يقترب الخريف من نهايته ويقبل الشتاء زاحفًا ويتكسر الجليد تحت الأقدام كما تتكسر رقائق الحديد، تجتاح الخليج العواصف المحملة بالبرد والثلج، فسوف تنظر إلى الوراء وتتطلع إلى هذا اليوم كما تتطلع إلى برج فنار يذلل البحر والضباب لكل من يمضى فى فلك ضوئه.

والآن كانت لوسى ترى جيرانها فى الخليج والساحل مقبلين من بيوتهم، وكلهم قد ارتدوا خير ملابسهم، وكلهم صامت مترقب، لأن هذه الجنازة – كما تنبأت صاحبتها – ينتظر أن تكون مختلفة عن أية جنازة حضروها من قبل. وعلى الرغم من محاولاتهم اخفاء مشاعرهم وراء الملابس الأنيقة والوقار، فقد كان فضولهم أوقى من أن يحجبه الأسف والحزن. والآن لوسى نورتون كانت تقاسمهم شمائلهم وخصالهم فيما

عـدا ذلك الجـانب الفكرى والمتـصـوف الذى انفـردت به، رغم أنه كـان مكتبسًا أكثر منه أصيلاً فيها، فقد ألفت نفسها تهبط فجأة من عالم الرؤى والخيال إلى دنيا الواقع، وقد جلست بين سام وجويل، تتمنى ألا يكون "فستانها" الأسود قد تغضن كذلك فى تلك المسافة الضيقة بمقعد العربة الأمامى. وأنعشها ذلك الجو المشحون بالترقب والأسى.

وأوقف جويل العربة عند رأس الخليج لكى يأخذ ستيفن وبست وإيللى راندال معه، وكانا قد هبطا لتوهما من الشاطئ العالى إلى الطريق. وكان كلاهما مجلوا، نظيف الملبس، جاد الطلعة.

قالت لوسى وهى تستيدير للابتسام لهما محيية وهما واقفان وقد أمسكا بمؤخرة المقعد:

- رأى أنكما قد أحضرتما الزنابق.

قالت ستيفن:

- إيللى تعرف كل شىء عن الأماكن التى تنمو فيها هذه الأزهـار.

واتجهت إيللى ببصرها إلى الخليج وقد أمضها أن تجد نفسها راكبة للذهاب إلى جنازة سارة هولت، وكانت تفضل أن تقطع الطريق إلى هناك سيراً مع ستيفن. ومن ثم فقد لكزته وهمست فى أذنه:

- ها هو ذا دان قادم عبر الخليج فى قاربه.

لم يسير جويل العربة، فقد كانوا جميعًا يحملقون في دانيل ثيرستون الواقف في قاربه يدفعه إلى الأمام، عبر المد الكامل الساكن بضربات طويلة خلفية من مجدافيه. وكان هو الآخر في كامل ثيابه حتى قبعته السوداء. وبين ضربات المجاديف وقف دانيل بقامته المديدة، ثابتًا رغم انحناء ظهره. وكان هو وقاربه الشيئين الوحيدين المتحركين في الخليج الساكن حيث كانت قوارب الصيد مستقرة في مراسيها، وربضت الزوارق والمراكب الصغيرة بالقرب من الشاطئ.

وقد أحزن جويل أن يرى دانيل وحده هكذا بضرب في الماء مسافة نصف الميل التي تفصله عن مكان الجنازة وقال:

- كنت أرجو أن أمر عليه لو كنت أعرف أنه يعتزم الحضر، ولكني حسبت أن المرض سوف يعوقه.

قالت إيللي وهي تغالب تأثرها:

- دانيل لا يبقى مريضًا مدة طويلة.

وقال ستفين:

- إنه يبدو مبتئسًا بدون كلبه، وهو هكذا ينظر أمامه.

واغتمت لوسي كذلك وهي تشهده يتقدم نحوهم تدريجيًا وقد اكتسى وجهه بعلائم الحزن والوحدة وكانت قلقة كذلك على معقده في غرفة الجلوس.

وسألت ستيفن:

– هل ستأتى أمك إلى الجنازة.

قال ستيفن:

– لا، ولن تذهب إلى بيتنا أيضًا.

وعدت لوسى على أصابع يدها فى سرها: ثلاثة عشر ثم قالت لنفسها وقد أحست بالارتياح:

– هذا حسن تمامًا.

– ٤ –

كان الفناء المحيط بمنزل سارة هولت يغص بالناس. وهمست حنة ستيفنز فى أذن بنى أنها تعتقد أن أحدًا لم يبق فى الخليج فيما تذكر فقد حضروا جميعًا. وقالت إن عدد المعزين لا يقل عن ستين. أما الذين جاءوا من بعيد أو من منطقة الساحل والأخوار فقد تركوا سياراتهم أو عرباتهم فى المرعى. وكانت لوسى قد كلفت كارلتون صوير بأن يبقى هناك ليتولى مهمة إرشادهم إلى المنزل. وبعد أن تركوا سيارتهم، لحقوا بأهل الخليج فى الفناء الواقع أمام البيت.

ووقف الجميع فى صمت وقلق ينتظرون دعوتهم للدخول. وكان الصيادون يؤثرون لو أنهم دخنوا "غلايينهم" ولكنهم أحجموا عن ذلك. وكانوا يحسون بالاستغراب وهم بدون ملابس الصيد المألوفة. وراحوا يحملقون فى الشاطئ حيث كانت سفينة ثاديوس تجر قاربًا، كما أخذوا يحملقون فى قارب صيده الراسى وراءه تمامًا. وتأملوا المد الذى كان يوشك أن ينحسر قبل الساعة الثالثة والذى يحتمل فى ذلك اليوم الساكن أن يثير بعض المضايقات أو هو أسوأ بالنسبة لعملية جر قارب عند مصب نهر تيدال. ووقفت النساء بجوار أزواجهن، ولو أنهن كن يؤثرن الجلوس بعضهن مع بعض، ويتبادلن الملاحظات الهامسة. وكن يتطلعن حولهن فى فضول وقد استغرقن فى التفكير. ورحن يتفرسن فى جزير شاج بأشجارها السوداء، وفى أزهار الخريف التى ملأت جوانب القارب وقد خضبت بلون قرمزى هنا وهناك. وتركزت أنظار الرجال والنساء على حد سواء على ثاديوس هولت الواقف بجوار القارب يتحدث مع جويل نورتون وسام باركر.

وعندما أدرك دانيل ثيرستون الشاطئ فى قاربه وعاونه سام باركر فى النزول إلى الشاطئ وفى إرساء قاربه، انضم هو أيضًا إلى القوم الصامتين فى الفناء. ومشى وئيدا وهو يصعد المنحدر المعشب وقد أمسك بقبعته السوداء. وأحضر كارلتون صوير مقعداً له ولكنه لم يعر المقعد اهتمامًا، واكتفى بأن استند إلى جذع شجرة حتى انتهى من

مسح وجهه المبلل بالعرق بمنديله ثم أعاد قبعته فوق رأسه. وقد مضت سنوات عدة لم يلبس فيها حلته السوداء القديمة، أو ساعته الذهبية الثقيلة ذات السلسلة التى كانت تتدلى بين أزرار "صديريته" أو قميصه ذى البنيقة المنشأة. والحق كذلك أنه لم يكن قد زار بيت هولت منذ سنوات عدة فيما عدا تلك المرة التى أخذته فيها بغلظة لوما له على بعض مخاطراته فى المناطق المجاورة وعلى طول الساحل. أما وقد توقفت سارة هولت، أقدم مقيمة فى الخليج، فقد خامره إحساس قوى بالعرف وحتى باللياقة. فقد جاء للعزاء بدافع الواجب والاحترام، وتطلع الجميع إليه فى شىء من الاحترام المشوب بالاشمئزاز. وكانوا كلهم يعرفون أنه قد جاوز الثمانين، وأن نهايته لم تعد بعيدة.

أما الأطفال فقد جلسوا معًا فوق العشب على مقربة من الباب الأمامى، وقد لبسوا ملابسهم النظيفة وبدوا فى خير هندام، وبدا عليهم الحياء والجد. وأمسكت مارسى بيد أخيها، وكانت ما بين الحين والحين تومئ لأمها وأبيها مطمئنة إياهما بأن أخاها فى رعايتها. وكانت إيللى سعيدة بمشاركتها فى مسئوليتها وهمست لمارسى قائلة:

- وعندما ندخل المطبخ سوف نجلسه فوق الكرسى الأحمر الصغير بينك وبينى. ولهذا الكرسى مساند يمكن أن يتكئ عليها إذا ما بدا عليه التعب أو غلبه النعاس.

وردت عليها مارسى بقولها:

- حسنًا.

وحينما أقبلت سيارة صغيرة من الطريق وتقدمت في الفناء المعشب على نحو يدل على أن صاحبها يألف المكان وسبق له زيارته، سرت حركة بين الجالسين. ثم خرجت سيدة من السيارة ومشت نحوهم. كانت طويلة القامة، بيضاء الشعر، وذات وجه نحيل هادئ. وقد أخذت تحيي كل من مرت بجواره بإيماءة وابتسامة خفيفة. وكان معظم الذين حيتهم إما غاية فى الفزع وإما غاية فى الفضول، بحيث استعصى عليهم رد التحية حتى ولو نبهوا إلى ذلك. ثم دلفت السيدة إلى الباب الأمامي حيث كانت لوسى نورتون واقفة وحيتها، وكان واضحًا أنها سألتها سؤالاً. ثم وسط نظرات الجمع ودهشتهم مشت تجاه الرجال الثلاثة الواقفين عند الشاطئ الذين كانوا على وشك أن يستديروا لصعود المنحدر المؤدى إلى البيت.

وحينما وصلت إلى حيث وقف سام باركر وثاديوس رفع كل منهما قبعته محييًا، وحذا جويل حذوهما بعد أن تغلب على حيرته وارتباكه. وكانت كل امـــرأة تتطلع نحـــوها من الفنـــاء، ومعظم الرجال يتمنون لو عرفوا ما قالته لثاديوس، لأن الحياة فى لحظة الاضطراب هذه كانت قد أطاحت بفكرة الموت من عقولهم تمامًا. لكن لم يكن فى وسعهم أن يسمعوا شيئًا. وكانت حنة ستيفنز تعرف أن سام باركر وجويل نورتون

لا أمل فى أن يفصحا بشىء مما دار بينهما وبينها من حديث، لأنهما أكثر أهل الناحية صمتًا. وحينما بدأ القوم القادمون من عند الشاطئ يتجهون إلى المنزل وضعت فان هولت ذراعها فى ذراع ثاديوس وراحا يصعدان المنحدر معًا للقائهم.

ولم يبد على أحد من المعزين قلق أو ضيق لتأخر صلاة الجنازة حتى الساعة الثالثة، فيما عدا الرجال القائمين على أمر القارب والذين كان يشغل بالهم حال المد. أما الباقون فقد استبد بهم الفضول والترقب حدا لم يأسفوا معه على التأخير. وإذ طال الانتظار انفرط حبل الصمت والوقار وبدأت المحادثة الخفيضة تجرى بين المعزين الذين راحوا يتنقلون ما بين مجموعة وأخرى. أما نان وثاديوس هولت فقد وقفا بعيداً عن الناس، يتبادلان الحديث دون أن يشعرا بما كان يسببه حديثهما من اضطراب فى معظم العقول. وأحضرت مارى صوير كوبًا من الماء لدانيل ثيرستون، واستطاع كارلتون آخر الأمر أن يغريه بالجلوس. وأحضرت لوسى للأطفال بعض الكعك فأخذوا يأكلونه فى صمت. وبينما الجميع ينتظرون فى الفناء، ملأ المد الخليج. ومالت الشمس للمغيب وقد لامس شعاعها أجنحة طير النورس وهى تستقر فوق الماء أو تحلق فوق رأس الخليج. وامتلأ الجو بطنين صرصار الليل والجراد. وماجت جزيرة شاج بضياء الأصيل ولم تكن ثمة سحابة واحدة تعكر صفو السماء الصافية فى ذلك اليوم من أيام شهر سبتمبر.

قال دانيل ثيرستون لآل بلودجيت معقباً على الطقس:

– لم أر يوماً على هذا الساحل بديعاً كهذا اليوم.

قالت نورا بلودجيت:

– لقد كان أجمل حينما ذهبت أن وسيث إلى النهر هذا الصباح.

أما لوسى فقد شاركت نوتية القارب فى قلقهم. وظلت فكرة تسيطر على عقلها مؤداها أن المد لا ينتظر أحداً. ومع ذلك فلم تكن ترغب فى أن تبدأ صلاة الجنازة دون حضور الطبيب، كانت تعرف أنه قادم مهما يكن عدد المرضى الذين سيتركهم فى انتظاره بالعيادة. وفى الساعة الثالثة إلا ربعاً أقبلت سيارته تقرقع على الطريق الممتد فى المرعى ثم دخلت الفناء العشبى، وكان قد أحضر معه بعض الورد من حديقته. وقبل أن تتوجه لوسى إلى الباب الأمامى لتدعو كل من بداخل البيت، كانت هى وهو قد وضعا الورد عند طرف النعش.

– ٥ –

كانت لوسى وجويل نورتون متلهفين على حضور قس لكى يقوم بصلاة جنازة السيدة هولت. ولم تكن هذه بالمشكلة الهينة فى أماكن قفراء غير مطروقة كهذا الخليج، حيث يكفى بعد الشقة والشقاء الطويل وحدهما للحيلولة بين الناس وبين التردد على الكنائس، ومن ثم من

الانضمام لأى طائفة دينية بعينها. ولقد بذلت إرسالية الساحل كل ما فى وسعها فى المناطق النائية من الساحل وفى الجزر المتناثرة فى الخليج لكى يقدموا كل عون لأهلها، سواء فى أوقات المرض أو الصحة. ولكن مع مئات الأميال التى كان عليها أن تقطعها على طول الساحل بقاربها الوحيد، لم تكن خدماتها ميسورة دائمًا. ومن ثم كانت أوجه النشاط الدينى المعتادة، التى تحتاج إليها حتى المدينة الساحلية الصغيرة أو القرية، لم تكن معروفة بين أولئك الذين يعيشون عند الخليج، فيما عدا حنة وبنيامين ستيفنز. فكان المميز لعزائهم وتعبيرهم الروحى لا يحظى بالاحترام البين لجيرانهم، ففى مثل هذه المستعمرات النائية التى تعيش على صيد الأسماك قلما يبدو وجود القساوسة أمرًا جوهريًا فى الحياة، وإن كانوا لا يمكن الاستغناء عنهم بحال فى الممات، وفى خلال الأعوام الثلاثين التى قضتها لوسى فى الخليج كثيراً ما ذهبت مع جويل فى عربة النقل إلى خليج أو آخر، أو مع سام فى قاربه إلى إحدى الجزر حيث لا يوجد أحد يمكن أن يقول شيئًا لنفر قليل من الناس، اجتمعوا فى مدفن أسرة قديم أو جبانة صغيرة مشعثة ربما كانت يومًا مركزًا لمجتمع صغير يعج بالحياة، لكنه أصبح الآن مكانًا موحشًا مهجوراً.

ولم تكن تحتمل أن سارة هولت – التى عرفت معظم حياتها عالمًا يختلف كل الاختلاف عن عالم الخليج – سوف تكون عند مماتها تحت رحمة عزلته ولو أنها كانت على يقين أن قيام قس بمراسم الدفن لم يكن

يعنى سارة فى كثير أو قليل، سارة التى لم تكن رغباتها الصريحة تنحصر فى غير المكان الذى ستدفن فيه. وإن أحداً من الجيران لم يكن تواقًا على نحو ظاهر بأن يقوم القس الشاب سيمبسون بصلاة الجنازة اللهم إلا آل ستيفنز. وحتى حنة كان لديها وساوس وشكوك خفية. ولم يكن ثاديوس خلال الفترة القصيرة التى لازمت أمه فيها فراش المرض، فى حال تسمح له بإهداء النصح والمشورة، وبدا بعد وفاتها أقل اكتراثًا بأمر جنازتها. لكن كان القساوسة بعيدين وقليلين معًا وأظهر القس سيمبسون رغبته، بل وتحمسه للمجىء عندما طلب منه جويل مساعدته وهو ذاهب إلى المدينة، فقد وقف الآن مضطربًا بعض الشىء فى غرفة الجلوس وقد أمسك بإنجيله فى يده.

وكم كانت دهشة لوسى حين وجدت ثاديوس بمجرد أن علم بأمر القس سيمبسون يبدى رأيه فيما يجب على القس أن يقرأ من آيات على روح أمه. لقد وجدته بعد ظهر يوم الجنازة جالسًا إلى مائدة المطبخ يختار فى هدوء فقرات من الإنجيل رأى أنها تناسب المقام. ثم قال بعد أن فرغ من نسخ مختاراته بعناية على قطعة من الورق.

– قولى له أن يقرأ هذه الفقرات، ولو أنى واثق أن أمى ما كانت لتريد منه أن يقرأ شيئًا مما يقرأه القساوسة أحيانًا فى الجنازات.

والحق لقد أدى سيمبسون واجبه على نحو لا بأس به وهو جالس على أقرب مقعد من باب المطبخ حيث كانت لوسى تستطيع أن تدير

نظرها فى المطبخ. كان الحاضرون جميعًا هادئين وقد عقدوا أيديهم، ولو أنه كان باديًا عليهم أنهم مقهورون قلقون. وقد سر لوسى أنها وضعت لهم الكراسى والمقاعد القصيرة على شكل دائرة. وكانت تبتسم لهم ما بين لحظة وأخرى، وكانت إيللى ومارس تردان ابتسامتهما فى حياء، كما لو كانتا تريدان أن تقولا إنهما معنيتان بأمر هذه الغرفة التى كانتا ذات يوم تفيض بجو ود وألفة وأصبحت الآن تثير فيهما إحساسًا بالاغتراب والكآبة.

وألفت لوسى عقلها يشرد والقس يقرأ، تمامًا كما شرد فى وقت مبكر من هذا الصباح. لقد وقعت الأشياء الهامة حقًا فى تلك اللحظات القليلة القصار حينما كانت وحدها مع سارة. ومن ثم فقد بدت لها الكلمات التى كان القس يقرؤها كما لو كانت حاشية تافهة لخطاب بالغ الأهمية. كان يقول:

"إن الذين يخرجون إلى البحر فى السفن، ويكدون وسط الأمواج يعاينون أعمال الله وخوارق آياته فى أعماق البحر". وعند هذه الكلمات طاف بخيالها ما كانت تحكيه لها سارة عن مضايق صندا بشعابها ومياهها الضحة وتياراتها وجزر كيرجولين القائمة وسط بحر مترامى الأطراف، والأمواج الرمادية الخطرة المتلاطمة عند كيب هورن. وتذكرت ما روته لها عن ذلك الصبى الذى كان يبكى والقبطان يمسح دموعه، وعن ربابنة التى كان يوقع عليها وقد نشرت القلوع عاليًا لتحتوى الريح الوانية.

وحينما دقت الساعة ثلاث دقات خالت أنها قد رجعت بها فجأة سبعين عامًا وأنها أخذت تسمعها ثانية وهى تدق فى قعر سفينة القبطان هولت المعتم وقد علا صوتها على ضجيج العاصفة.

واستدارت لوسى لتبتسم لديفي صوير الجالس فى مقعده الأحمر الصغير خشية أن تكون دقات الساعة قد أزعجته.

وكان القس يقرأ ويقول:

- "إن أيام العمر ستون عامًا وعشرة، فإذا امتدت بدافع من القوة إلى الثمانين، فإن قوتها ليست إلا كدًا وأحزانًا، ومهما يكن من شيء فهى لا تلبث أن تنقطع ثم نولى مدبرين".

وفكرت لوسى أن الحياة ليست دائمًا كدًا وأحزانًا. وإنما هى فى بعض الأحيان بهجة وتحد وقوة للآخرين. ثم نظرت إلى صفى المقاعد فوجدت أن يدى دانيل ثيرستون المطويتين فوق صديريته السوداء تهتزان كثيرًا. كان لابد أن يأخذه أحد معه فى سيارته ويمضى به إلى التل ثم يجدف له قاربه عبر الخليج. وكان لابد لها من أن تعد له شيئًا لعشائه.

ومضى القس يقرأ:

"يخرج الرجل إلى عمله فى الصباح ويكب عليه حتى المساء، ثم يأتى الليل حيث لا يستطيع أى رجل أن يعمل".

وفى سرها كانت لوسى تقول: ولا النساء، ولو أنهن كن يعملن وكثيراً ما كان العمل يمتد بهن ساعات بعد انتصاف الليل. يبدو أن الإنجيل يحابى الرجال ويؤثرهم على النساء.

وتطلعت ناحية المقاعد حيث تجلس النساء وبدا لها أن عددهن قد تضاعفت فشمل كل النساء اللائى يقمن فى أماكن كهذه، وفى مناطق الساحل عند دروب غير مطروقة، وفى شواطئ وجزر أخرى وقد استيقظن قبل طلوع الفجر يودعن أزواجهن وقد خرجوا إلى قواربهم للصيد، ينفقون أيامهم فى أعمال عادية هزيلة، يعيشون فى قلق بسبب الريح والضباب. لقد امتلأ قلبها رأفة بحالهم جميعاً.

ويقرأ القس :

"إذا أخذت أجنحة الصباح وسكنت حتى فى أقصى أنحاء البحر، فإن يدك يا إلهى تقودنى وتهدينى سواء السبيل ، وبيدك اليمنى تحفظنى".

واستوقف لوسى قوله : "أجنحة الصباح" إنها تستملحها. ترى هل تغنى طيور البحر التى تطير عند الفجر مثل طيور النورس والصقور والبلشون وقد لامست أشعة الشمس الباكرة أجنحتها؟ أو هل تعنى السحب عند الشروق؟

وحيث جلست كانت تستطيع أن ترى ثاديوس محنى الأكتاف جالسًا فى وسط الصف الأمامى من القاعدة تمامًا. واغرورقت عيناها بالدموع حين أبصرت نان هولت التى كانت تجلس بجواره وقد وضعت ذراعها مرة أخرى فى ذراعه.

وراح القس يقرأ :

"ورأيت سماء جديدة، وأرضًا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد انقشعتا، ولم يعد هناك أى بحر".

وتساءلت لوسى فى نفسها : ماذا كانت تفعل سارة هولت إذا لم يعد ثمة بحر؟ وأيان تذهب، وإلى أين مضت؟ إن الرجل الذى كتب هذه

الكلمات لابد أنه لم يكن يحب البحر ما دام أنه لم يرغب في وجود شيء في سمائه الجديدة وفي أرضه الجديدة. لابد أنه لم يشهد يومًا كهذا اليوم الذي طلع على الخليج وأخرج البحر فيه كل ذخائره أضعافًا مضاعفة وقدمها لأولئك الذين يعيشون بجواره.

ورأت لوسي أن ديڤي قد بدأ يحس بالقلق ويبكي قليلاً. لقد حان الوقت لكي يخرج الأطفال. بل إنهم يستطيعون عند ذاك أن يقطفوا مزيداً من الأزهار من الحقل الممتد على طول الشاطيء، وعلى أية حال فالأفضل ألا يدخلوا لإلقاء نظرة على جثمان السيدة هولت.

وحين بدأ القس يتلو الصلاة دلفت لوسي إلى المطبخ وأغلقت الباب الذي يفصله عن حجرة الجلوس.

- ٦ -

وبعد أن حمل الصيادون نعش الراحلة وخرجوا به إلى الفناء ثم وضعوه في القارب وملأوه بالأزهار التي جمعها الأطفال حتى كاد النعش يختفي تحتها، تجمع المعزون في هذه الجنازة الغريبة عند رأس الشاطيء. واصطف الجميع بما يمليه عليهم واجب اللياقة والأسبقية. أما العدد القليل من الناس الذين جاءوا من المدن الصغيرة والقرى عبر الطريق الجبلي، توفيراً لحياة سارة هولت السديدة والذين صاروا خلال

هذه الساعة القصيرة وكأنهم جزء من أهل الخليج، فقد وقفوا فى المؤخرة عند الطرف المرتفع من الفناء. أما أهل الساحل من رجال ونساء فقد اتخذوا موقفهم عند رأس الشاطىء، مخلفين مكانًا للجيران الذين تجمعوا معًا عند حافة البحر.

وبينما أخذت لوسى تجمع الأطفال حولها وقد بدت عليهم الرهبة، وترقب فى اهتمام الرجال الذين كانوا يعدلون من وضع قارب ثاديوس ويثبتون حبالهم الطويلة فى الزورق، استولى عليها وهم بأنها سمعت فى مكان ما عن صنادل بحرية فى بلاد نائية وأزمان سحيقة، تحمل عليها الموتى إلى البحر بطريقة مماثلة، ولكنها كانت منزعجة الآن خشية أن تعوج الأمور فتعدل من هذه الأفكار الشاردة. والواقع أن المد والجزر لم يكونا يصلحان للجنازات ، أو لأى شىء آخر، وفيما عدا طبيعتهما التى لا ترحم وإن بدت فى الظاهر أنها رقيقة لطيفة، واستولى عليها إحساس بالرهبة كانت تعرف أن غيرها ممن ألفوا طبائع البحر يقاسمها إياه.

وتراءى لها أن حنة وبنيامين سيتفنز لا يستأهلان منها امتنانًا كبيرًا، وفى الوقت نفسه لا يجدر بها أن تقسوا عليهما، غير أنه ما إن أخذ ثاديوس يدير محرك قاربه، ودلف الصندل فى الماء، حتى شرعا يرتلان بعض التراتيم القديمة التى يعرفها الجميع، مثل ترنيمة: : هل سنجتمع عند النهر" . أو " فى الطرف الآخر من نهر الأردن" وما لبث

الباقون أن شاركوا فى الترتيل والإنشاد بما فيهم من الزوار وأهل الساحل حتى تمكن الرجال بسواعدهم الماهرة المدربة من أن يتغلبوا بشد الحبال على الدوامات وأن يتحكموا فى حركة القارب رغم شدة التيار، وانتظمت خفقات المحرك، وهزم المد، وسار كل شىء على ما يرام.

وبعد أن انقطع الغناء وقف الناس المجتمعون فى الفناء وعند رأس الشاطىء صامتين خاشعين، وقد أصروا على عدم الرحيل حتى يختفى هذا المشهد المثير عن أنظارهم. ولما بعد القارب ولم يعد يرى إلا كنقطة صغيرة ومن ورائه أشجار جزيرة شاج وصخورها وقد لفحتها شمس الأصيل بضيائها، تحركوا يصعدون المنحدر إلى سياراتهم المنتظرة عند بيت سارة هولت، ولم يبق عند الشاطىء غير جماعة صغيرة من الجيران .

وربما أراد هؤلاء أن يطيلوا المكث بضع دقائق وحدهم، لإحساسهم بيان هذه اللحظات القصار التى جمعتهم ووحدت بين قلوبهم لن تعود ثانية. لقد نسوا فى ظلها همومهم وشواغلهم التى تؤلف نسيج حياتهم البسيط. وبسبب هذه اللحظات القصار كانوا يشعرون شعوراً مبهمًا بأحاسيس لا يدركون لها كنهًا، ويقوى قلقة غامضة تسرع من خفقات قلوبهم وتقشع الاضطراب الكامن فى عقل كل منهم، ثم إن الغد قد يكون مختلفًا عن الحاضر وسوف يتفرق شملهم كل واحد فى طريق ،

وكل منهم مشغول بوجوده ممسوك فى حبائل شباكه المغزولة من الماضى، أو مشدود على الدوام إلى حاضره. فنورا بلودجيت ستتعلق بأملها الجديد الهزيل، ودانيل ثيرستون ينشغل بشيخوخته ووحدته، وحنة ستيفنز بخطابها الذى لم يكتب بعد، وسبتقى مارى صوير على حالها من الوجل وهى لا تدرى إلام سيستمر حبها الطويل. وسوف تكون الأسئلة التى تجرى على لسانهم فى الغد هى ذات الأسئلة التافهة المتعلقة بدنياهم الصغيرة بوقتهم ، لا تلك الأسئلة الغريبة التى لا تكشف لهم تمامًا عن دورة الحياة ونصيب الإنسان الضئيل فيها. ومرة أخرى سيعودون إلى الكلف بثاديوس هولت وبما آل إليه من ذبول ونحول ، وبسلوك زوجته غير المفهوم، والشكوك التى يثيرها أهل الناحية المتغيبون الذين أظهروا اليوم تباعدهم عنه بعدم حضورهم ومشاركتهم فى تشييع الجنازة، لأن ما شهدوه عصر هذا اليوم سوف يصبح على تواتر الأيام ورتابتها الملحة مجرد مشهد مثير. أما المرأة العجوز التى منحتهم كرام وجعلت لحياتهم قيمة - لم يكن ليتاح لهم أن يضفوها على أنفسهم - فلسوف تمضى كذكرى عابرة.

وقد رأتهم لوسى نورتون جميعًا وهى واقفة وسطهم كما علمتها سارة هولت أن تراهم. ولو سألها الطبيب عن السبب الذى حدا بهم إلى الحياة هنا طوال ثلاثين عامًا، ولماذا أدركت فى هذه اللحظة أنها سوف تبقى فى الخليج إلى آخر ما بقى لها من عمر؟ ربما استطاعت

أن تجيبه – ولو أنه لن يسأل قط لأنه مثلها هو الآخر له لحظاته من التمييز والإدراك. لقد رغبت الآن مثل غيرها من الناس، ولو أن هذه الرغبة ربما كانت أكثر وضوحًا منهم، أن يظلوا هكذا لايعكر صفو حياتهم شىء، لا يرهبون الشتاء ولا يكترثون به، وعلى صلة بحقيقة ما، افتدت حياتهم وجعلت لها قيمة لكن الأطفال بدا عليهم نفاد الصبر وامتلاء دكانها بجيرانها من أهل الساحل. ومالت الشمس للمغيب وراء الربوة. وهبط الظلام وأخذ يزحف على الخليج.

وكانت نان هولت أول المغادرين، فقد مضت فى هدوء عبر الفناء متجهة إلى عربتها، وما لبثت بعد بضع دقائق أن خرجت من المراعى إلى الطريق المؤدى إلى الطريق الجبلى البعيد.

– ٧ –

لم تنشط حركة التجارة فى المحل مثلما نشطت فى تلك اليوم فيما تذكر لوسى، فقد غص بأهل الخليج فضلاً عن جيرانها الذين جاءوا من الجنازة مباشرة، إما لكى يبتاعوا ما ينقص بيوتهم من مؤن، وإما لكى يحافظوا على روح التساند فيما بينهم وهو الأمر الذى كانت لوسى موقنة به . لقد امتلأ بهم المدخل وتجمع أهل الخليج مع أهل الساحل معًا عند سدة الباب. وبعد أن فرغوا من شراء حاجاتهم، تفرقوا إلى

جماعات صغيرة فى الفناء وهم يتجاذبون أطراف الحديث وقد شملتهم أضواء الخابية.

ولم يكن لدى لوسى وقت لكى تخلع ملابسها السوداء، أو حتى قبعتها، أو لتصعد إلى الطابق الأعلى من الدكان لتأتى بمئزر . فقد انهمكت فى إجابة طلبات الزبائن التى انهالت على "السجق" وفى وزن البطاطس والبصل وتقطيع الجبن وإعداد شرائح لحم الخنزير المملح ، وكانت تتمنى من كل قلبها ألا ينفد الخبز حتى تسد حاجتهم منه. وراحت تنتقل فى خفة ونشاط ما بين أرجاء الدكان تأتى ببكرة خيط من هذا، وزجاجة دهان من هناك، وتجمع أعمدة من الأرقام، لو كان جويل مكانها لأثبت فشله فى إحصائها، وفى تحمس جنونى تقدم للزبائن ما بقى لهم من نقود، بين الحين والحين كانت تقبل راضية وفى بشاشة تأجيل الدفع والقيد "على الحساب " وكانت تجد وسط هذا العمل وقتًا تتبادل فيه الحديث مع أهل الساحل لتشعرهم بأنهم حلوا أهلا ونزلوا سهلاً لاسيما وأنهم قلما اجتمعوا على هذا النحو الحاشد فتقول :

– شعرت بالارتياح كثيراً لرؤيتك هناك يا هنرى . وكنت أعلم أنه مهما يضطرب البحر ويسوء فسوف تحسن التصرف بما تمليه عليك رجاجة عقلك.

وتقول :

- لا أكاد أصدق يا إليس أنك أنت التى صنعت هذا الثوب الجميل. إن من ينظر إليه يظن أنه قد خرج لتوء من وسط كتالوج الأزياء .

وانتزعت من وقتها لحظة قدمت فيها للأطفال كيسًا من الفول ؛ فقد كانوا مثل الكبار لا يتصورون العودة. وأحست بأنها تعبت فى هذا اليوم تعبًا لم تشعر به فى حياتها من قبل. لكنها كانت كذلك أكثر إحساسًا بالسعادة والرضا .

وكانت حنة ستيفنز آخر من وصل إلى الدكان. وقد حملت معها للوسى نصف فطيرة الصباح لتقدم منها للرجال عندما يعودون من جزيرة شاج. وقالت إنها احتفظت ببقيتها للسيد سيمبسون الذى استبقته هى وبنى ليتناول معهما العشاء. وحينما شاهدت لوسى منهمكة فى عمل كثير تقدمت لمعاونتها عن طيب خاطر وشاركتها فى الترحيب بالجميع. بل إنها نسيت أحفادها الواقفين مع الجمع خارج الدكان.

قالت لوسى، وهى تعد فى عصبية الباقى من علب اللبن المحفوظة ، وتقطع بعضًا من لحم الخنزير المملح .

– كان الغناء بديعًا . ما كنت أفكر أنه سيكون كذلك . وقد جاء فى اللحظة المناسبة تمامًا . ولم يدر بخلدى أن بنى يمكن أن يغنى على هذا النحو الجميل .

قالت حنة:

– على أية حال فقد سرى الغناء عن الناس وجعلهم ينسون المد وما يسببه لهم من قلق. وكان السيد سيمبسون مسروراً من الغناء كذلك من رأيه أنه لابد من شيء من الترانيم الدينية يقطعون به الوقت حتى يصل بهم القارب إلى الشاطئ. دعينى أقطع لك هذه القطعة من لحم الخنزير المملح وأنقذك من هذه الورطة التى أنت فيها.

تخلت لوسى لها عن السكين وفى ارتياح ركزت كل انتباهها على اللبن المعلب الذى كان الإقبال عليه شديداً وقالت لها :

– يجب أن تديرى محلاً يا حنة. فأنت أبدع منى وأسرع يداً.

وفى خلال نصف ساعة كانت قد انتهت من إجابة جميع الطلبات وقد بدت للوسى وكأنها دهر. والسبب فى ذلك الواقع – فيما بدا للوسى – أن الناس قد فتحوا فجأة أبواب حياتهم بدلاً من أن يحكموا إغلاقها كما كان دأبهم عادة، ولقد خامرها حتى وهى تلف لهم فى الورق ما ابتاعوا من مؤن وتحصى مبيعاتها وتروح وتجيء فى الدكان فى أبهى ملابسها، خامرها ذلك الشعور الغريب المريح بأنها تلج هذه

الأبواب لتـــجلس بضـع لحظات وسط هـؤلاء الناس وتندمـج فى دائـرة حياتهم مع هنرى توفيلز الذى أجمع الكل على أنه خير ملاح فى الناحية إلى أن وقع فى قبضة رجال خفر السواحل بسبب بعض مواهبه الخبيثة فى التهريب، ومع إليس ستيلز التى قالت عنها الشائعات إنها ليست أكثر من عبء لأهل الساحل، هى وطفليها الذين لا يعرف أبوهما، وإن كـان وجـهـهـا يلمع كمـا يلمـع وجـه الطفـل إذا مـا امـتـدح أحـد ثوبهـا. وتسـاءلت لوسـى بينـهـا وبين نفـسـهـا وهـى تقـتطـع لحظـة من وقتـهـا وتخلع قبعتها من فوق رأسـها - أيستطيع الناس أن يخلقوا البيئة أم أن بعض البيـئـات يمكنـهـا أن تصنع الناس بغض النظر عـمـا يمكنهم أن يفعلوه.

ثم خرجت إلى الخلاء ونسائم الخريف تهب على الخليج وقد هبط المساء وأوشكت النجوم أن تبزغ فى السماء واستعد الجمع للعودة، إما إلى بيوتهم المتجاورة الواقعة أعلى البوغاز وإما إلى تلك البيوت المبعثرة خلف الطريق الساحلى الطويل. وقبل أن يتجه البعض لركوب سياراتهم أو ليمضـوا سيرًا على الأقدام، وقـفت سيارة عند صندوق بريد ترودى ويست ثم تركتـهـا واقفـة حيث كـانت واندفـعت تصـعد الطريق الجبلى الطويل ، وكـعـادة أهل السـاحل رفع بعض الواقـفين عند المحل أيديهم بالتحية للسيارة المارة.

لقد مضى وقت طويل لم يصادف فيه جيم راندال أحداً يرفع له يده محيياً. هكذا كان يفكر وهو يقود السيارة.

- ٨ -

وبعد أن غادر الجميع المحل، أغلقت لوسى نورتون صندوق النقود بعد أن ألقت على محتوياته الوفيرة نظرة ملؤها الرضا، ثم وضعت مفتاحه وراء علب الأطعمة المحفوظة المرصوصة فوق الرف الأعلى، وسجلت ملاحظة بشأن الطلب المتزايد على اللبن المكثف (المركز) ثم صعدت إلى الطابق العلوى. وهناك خلعت ملابسها السوداء وارتدت فستاناً نظيفاً من القطن وهيأت الموقد، ووضعت غلاية الماء فوقه، وفرشت المائدة ثم أضاءت كل الأنوار. وهكذا حينما يعود الرجال إلى القرية فلن يجدوا النجوم تتلألأ فوقهم وحسب، وإنما سوف يبصرون بمجرد مغادرتهم لجزيرة شاج بيوتهم وقد سطعت بالضياء. وكانت لوسى قبل مغادرتها لبيت هولت قد أوقدت هناك مصباحاً من قبيل الاحتياط حتى يعود ثاديوس. والآن أسرعت لتفعل نفس الشىء فى بيت سام باركر. ولم يبد لها أن إضاءة سبعة مصابيح ليست بالشىء الكبير بالتأكيد، غير أن أنوارها إذا ما انتشرت على الشاطىء وسفح الجبل الملثم وراءها فإنها تعطى إضاءة لا بأس بها.

وكانت بعد أن رجعت من بيت سام باركر قد ارتدت معطفها اتقاء لصقيع هذه الأمسية الخريفية، ثم جلست على درجات عتب الباب . كان كل شيء ساكنًا والمد بعيدًا . وفجأة لحظت الأضواء الكاشفة المنبعثة من الفنار الكبير. وكانت فى شغل عن ملاحظة أولى شعاعاته التى تنبعث منه عند الغسق كما دأبت أن تفعل، وبالنظر إلى اهتمامها بالأضواء الأقل قوة المنبثقة من البيوت فقد نسيتها فى تلك اللحظة . لكن ها هى ذى الآن أنوار الفنار تترامى عبر المحيط كما كانت دائمًا طوال الأعوام الثلاثين التى قضتها فى الخليج بل وطوال ما يقرب من مائة عام. وكان يرسل بشعاعاته مرة كل أربع ثوان نحو الجنوب فوق مساحات شاسعة من الماء وتجاه الغرب فوق الخلجان والأخوار وإلى الشرق فوق العديد من الجزر المتناثرة فى المحيط ثم إلى الشمال فوق الخليج وسفح الجبل. وحينما يترك الرجال جزيرة شاج فى طريقهم للعودة إلى بيوتهم، يضىء الفنار السبيل أمامهم مسافة تقرب من أربعة أميال .

وكانت لوسى لا تزال تحس بالإرهاق وقد امتد الألم من رقبتها لطول ظهرها حتى فخذيها وشدت عضلات ساقيها حتى صارتا فى صلابة سلاسل المرساة. لكنها كانت متعبة من قبل وحتى بدون ذلك الإحساس بالرضا الذى كان يطوقها الآن. وجال بخاطرها أنها لابد أن تمتلئ بالحزن على الخسارة التى منيت بها بوفاة سارة هولت، أو بالأسف على الأيام التى ولت ولن يعود مثلها، أو حتى بالخوف لأنها لن

تجد أحداً يقف بجوارها يشد من أزرها ويهدىء من وساوسها. ولكنها وهى جالسة الآن وقد أوشك الظلام أن يخيم على كل ما حولها، لم تستطع أن تسترجع واحداً من هذه الأحساسيس. كان كل شىء يبدو لها الآن حقاً وواضحاً. لقد أغلقت دائرة حياة سارة هولت العريضة فى جزيرة شاج تمامًا كما رغبت الراحلة. أما دائرة حياة لوسى وحياة جيرانها. الأقل اتساعًا والتى لم تزل مفتوحة، فقد صارت الليلة حقًا، بل ومرغوباً فيها.

واستغربت لوسى الآن من طبيعة أفكارها؛ لقد جلست ومن حولها السكون وفى نيتها أن تستعيد تفاصيل ذلك اليوم العجيب وما لابسه من غرائب فى الصباح وكل المشاعر عرفتها. لكن أحداثه أفلتت منها. إنها لم تستطع أن تمسك بتلابيبها، وإنما استولى عليها الحاضر واستغرقها، لا الماضى ولا المستقبل. وخلافًا لكل خططها وآمالها بل ورغباتها كان كل ما يعنيها الآن هو دورة الأيام المألوفة الرتيبة التى لا تتغير، الأيام التى تعرفها والتى قضتها فى هذه البقعة النائية من الأرض حيث عاشت ثلاثين عاماً وحيث ستستمر فى الحياة حتى تغلق دائرة حياتها هى الأخرى فى نهاية المطاف.

هنا كانت هى وجيرانها عبارة عن حفنة من الناس يكتنفهم الغموض ويعوز الترابط حياتهم، يعملون من طلوع الفجر حتى هبوط الليل، فى كد لا ينقطع ولا يهدأ، متيقظون دائمًا، وأحيانًا قلقون،

يستمدون رزقهم ووسائل عيشهم من البحر الذى كان فى بعض الأحيان خصمهم اللدود أكثر منه صديقهم وحليفهم. وقلما عرف الناس عنهم شيئًا. وهم وغيرهم ممن على شاكلتهم فى عشرات القرى المماثلة المنتشرة على طول الساحل وفى الجزر، قلما طرأت حياتهم على بال أحد ممن يعيشون فى المدن الكبيرة وفى الوديان الشاسعة كوادى جيف أو فى الجبال.

حتى أفواج المصيفين، الذين كانوا يمنحون الساحل أكبر مظاهر رواجه، لم يعرفوا عن ذلك الساحل غير النزر اليسير خلال إقامتهم مدة أشهر الصيف الثلاثة. فكانوا يطوفون بخلجاته وجزره طلبًا للراحة أو الاستجمام أو المتعة لا يفكرون إلا فى جماله. إنهم لا يعرفون شيئًا عنه عندما يحل الشتاء وتجتاحه العواصف وموجات البرد حيث لا تطلع الشمس أو يقبل دفء يحجب خطوطه المتعجرة ورءوسه الناتئة ومده وجزره القاسيين. وهم لا يعودون إليه إلا بعد أن تكون قد انجابت عنه عزلته المنفرة خلال الموسم الصغير الذى يرتادونه فيه. عند ذاك تملأ قواربهم بالبهجة خلجانه الآمنة التى تهيأت لسباقاتهم ونزهاتهم . قلة منهم هى التى يباح لها أن ترى مياهه السوداء المتلاطمة فى شهر نوفمبر حتى تخرج القوارب إلى عرض البحر، لا للمتعة ولكن بدافع الضرورة حتى يقبل الشتاء فتجتاحه الأمواج العالية والعواصف والأنواء الشمالية الشرقية فتحول بين أعتى الملاحين وأشدهم مراسًا عن الخروج.

وفجأة جاش فى خاطرها إحساس بالعزة وهى تفكر فى أن أهل الخليج أجل شأناً مما يحس هؤلاء الغرباء . فهم عندما يختلفون إلى موائد العشاء ويعجبون من روعة جراد البحر الذى يقدم إليها، فإن أهل الخليج هم الذين يمدونهم به. إنهم لا يستطيعون الاستغناء عنهم ولا عن عمل أيديهم . ففى غضون فصل الشتاء يهيئون قوائم فخاخ صيد الأسماك من أنواع الأخشاب الجافة، وفى الربيع يغمرونها فى مياه البحر بعيداً عن الصخور الوعرة وفى مئات الخلجان. وفى البكور يخرجون لنشر الشباك مهما كان الطقس. إن أولئك الذين يعيشون فى هذه الخلجان والجزر هم عماد حياة أولئك الغرباء من حيث لا يدركون. وبدونهم ماذا تفعل الفنادق الكبرى فى نيويورك وفيلادلفيا وبوسطن ؟ قد لا يخطر ببالهم قط شىء عن سام باركر أو نورا بلودجيت أو بن ستيفنز ومئات مثلهم. لكنه على أية حال يعتمدون فى مسراتهم على كدح هؤلاد وأولئك .

ثم عادت لوسى إلى البيت وصعدت إلى الطابق العلوى لتطفئ الموقد؛ لأن الرجال لن يلبثوا أن يعودوا وقد هرأ ال برد والجوع جسومهم وابتلت ملابسهم من كثرة ما خاضوا فى المياه الضحلة بعدأن انحسر المد. وفكرت في أن القوم الذين يعيشون فى المدن الكبرى قلما يحسون بالتكامل والتساند اللذين هما أس الحياة فى هذا المجتمع الصغير المنعزل. ومهما يكن من أمر ما يشتجر بينهم من منازعات

صغيرة ويعتمل فيهم من مخاوف وشكوك طفيفة، فإن كدهم المشترك ومخاوفهم المشتركة كانت تشد بعضهم إلى بعض فى وثائق لا انفصام له.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة وهى تعاير البن ثم تضعه فى الوعاء وتكسر فوق بيضة، عملاً بإرشادات أمها، واستعداداً لحفلات القهوة الشتوية التى تقام فى أكواخ صيد السمك؛ فقد كان من عادة الأهالى، إذا ما أطبق الشتاء عليهم فى شهرى ديسمبر ويناير ، أن يقيموا مثل هذه الحفلات التى تجمع رجالهم ونساءهم فى الأيام المكفهرة حيث تشتد الريح وينزل الثلج بغزارة. وكانت تنبعث من هذه الأكواخ رائحة أفرع شجر الحور والألواح الخشبية النفاذة، وقد رشت أرضيتها بنشارة الخشب، وصفت فخاخ الصيد الجديدة بجوار الحيطان استعداداً لتركيب "الغزل" الجديد فيها. عند ذاك يترك الرجال مناشيرهم ومطارقهم ويحركون النار فى الموقد ويشعلون غلايينهم ويرشفون القهوة الساخنة وهم يتناولون الفطائر الدسمة فى استمتاع زائد، وفى حين ترعد الأمواج المتلاطمة عند الشاطئ وتحول الصخور السمراء المكسوة بالثلج بين طيور النورس المنقضة وبين الاقتراب . كانت هذه الأكواخ تفيض بالدفء والبهجة، بل وتعج بالضحكات وقد نسى الجميع ما ألم بهم من ليال عاصفة وما طلع عليهم من بواكير مريرة ومكفهرة.

وعندما هبطت إلى المحل الموقد ومرت فيه متجهة إلى سدة الباب لتسمع صوت محرك العربة، نظرت إلى الرفوف الخاوية، وعاد شعور بالزهو يتملكها. لقد كانت هى وجويل يطعمان الناس القريبين منهما لكى يكد هؤلاء من أجل قوت الكثيرين المقيمين بعيداً . وقد بدا للوسى أنها وزوجها كذلك أهم مما تصورت من قبل، فقد كان المصدر الذى يلجأ أهل الخليج إليه من أجل قوت يومهم والموئل الذى ينشدون فيه الصداقة والمال إذا ما أقبلت أشهر الشتاء الضنينة ، كما ينشدون الأمل والثقة. ولو كان المقام قد استقر بهما فى الجزيرة لما استطاع جويل أن يحقق شيئاً من تلك المكانة التى بلغها فى الخليج حيث صار ملاذ الناس وسندهم المكين، ولما حصلا على ذلك الجزاء الذى يستأهلانه.

والحق أن هذا اللون من الحياة الذى لم يعرفا سواه كان يسخو عليهما بصنوف من الجزاء لا حصر لها . ولقد ولت الأيام التى عرفتها سارة هولت وطبعتها بطابعها، لكن الساحل بقى كما هو . أما السفن الكبيرة التى بنيت على شطآنه وأنزلت إلى البحر ثم راحت تجوب أركان المعمورة وآفاق المحيط؛ فقد زالت دولتها لتظهر مكانها قوارب الصيد القذرة، وولت أيام الربابنة الذين كان يرتدون القمصان الجميلة ويتناولون عشائهم فى قمرات رحبة وجاء الصيادون الذين لا يرتدون غير الأحذية الطويلة والسترات الجلدية. وكان نهج الحياة فى الخليج يبدو كليلاً فاتراً إذا ما قورن بما سلف من أيامه ، لكنها على أية حال كانت وفيرة

الهبات . وعندما كان الناس يقولون فيما بينهم بعد أشهر الشتاء والصقيع: " إن الطقس يكاد يبدو كالربيع". كانوا يقولون ذلك بشعور من الاستمتاع المتجدد وهم يبصرون استدارة الشاطئ وقد أذابت شمس الربيع ثلوجه بأشعتها وهى تعبث بأجنحة طير النورس والجزر الهادئة وهى تدخل الخليج. وفى الصباح الباكر من أيام شهر مارس الأخيرة، أو أوائل شهر أبريل، تعد قوارب الصيد للخروج إلى البحر فى جو بهيج من الهرج والمرج. ويرجع حيوان السمور إلى مأوى الطير، والعصافير إلى أسطح أكواخ الصيد. أما النساء اللائى كن قد أنفقن الأسابيع تقليبًا فى كتالوجات البذور فقد استقر رأيهن آخر الأمر وأرسلن فى طلب ما يريدن مع ساعى البريد. وفى الأيام الصافية حينما تصبح الشمس والبحر والهواء وكأنها ترتبط فيما بينها برباط خاص ، يظهر سراب تقترب فى أثنائه الجزر البعيدة وتدنو من الخليج حتى يفقد الساحل المتعرج عزلته ويبدو وكأنه اجتمع وتطابق فى مكان واحد.

وفكرت كذلك فى القرى الساحلية الأخرى التى تشبه قريتها الواقعة على شطآن أخرى بعيدة، وقد تجمعت هى الأخرى فى مكان واحد بسبب قوة البحر التى توحدها وطبيعة العمل المشترك الذى يوحد بين أهليها . إن فى النرويج، وفى أيسلنده وإنجلترا وإيرلنده، وفى تلك لجزر الأسكتلندية الغريبة التى أتى منها ذلك الصبى الذى كان يعرف رقصة الجيج - خلجانًا نائية مثل هذا الخليج . ولقد عرف سكان هذه

المناطق النائية كما عرفت هى وجيرانها تلك الموسيقى المنظومة التى تميز حركة المد والجزر والرعب الذى يتملك القلوب عند مجىء الضباب وروعة الشمس في بهائها. حتى الآن ربما كانوا نائمين، أو يهبون من نومهم لإنزال قواربهم إلى البحر، أو ينتظرون أسراب السمك التى ألفوا صيدها وربما كان يتحدثون بلغات غير لغتهم ، لكنهم جميعًا يعرفون لغة البحر الموحدة الغامضة.

والآن وقد أخذت تباشير الخريف تزحف على الخليج، فإن تلك الربوة السوداء، وهذا التل الواقع فى الشمال، وجزيرة شاج، سوف تغمرها شعاعات فى لون اللهب وقد تسللت إليها وسط أشجار الحور السوداء. ويطير الإوز البرى جنوبيًا محلقًا فى السماء دون أن يكون دائمًا نذيرًا بالشتاء وما يفرضه مقدمه من عزلة ورهبة. وحتى فى الشتاء ذاته تبدو البيوت القليلة الصغيرة عزلاء مكشوفة ويؤكد البحر سلطانه على الشاطىء بالأمواج العاتية والرياح العاصفة. كان أولئك الصامدون فى إصرار واصطبار، والذين يعملون فى شباكهم وفخاخهم والنساء المنهمكات فى مطابخهن يهيئن الطعام لأزواجهن وأولادهن، يبعثون على الإعجاب والدهشة من أمر أولئك الرجال والنسوة ، فرغم ضآلة شأنهم وخمول ذكرهم فقد كانوا أقوياء لا يقهرون فيما أسمته سارة هولت بدائرة الحياة، ولقد كان مما يدهش دائمًا كما يدهش فى تلك الساعة كذلك تلك العودة الغريبة للإيمان الذى يأتى بدون دعوة

ودون ســابق انتظار ، يأتى مــا بــين الحين والحين ليــغــمــر النفس الإنسانية ويطرد منها المخاوف ويفتدى مكان الإنسان وزمانه، ميسراً أمر مستقبله .

وسـمعت الخـفـقـات الأولى لمحـرك السـيـارة الآتـية من بعيـد . وبعد دقـائق قليلة سيعود كثيرون غير زوجها، ربما تعلو وجـوههم مسحة من الحزن ، لكنهم متهيئون بالتأكيد لتناول طعام عشائهم ، لابد أنهم الآن يرون وهج الأضواء التى تنبعث من البيوت. ولو فكر المرء فيما كان عليه الضباب ليلة الأمس ، لراعه الصفاء الذى يملأ الدنيا اليوم.

– ٩ –

كان كل من جويل وسام مستعدين تماماً لعشائهما. لكن ثاديوس كما قال جويل لم يشأ أن يأتى معهما رغم وجود مكان له على المائدة. ولم يشأ كذلك أين يذهب إلى البيت مع بنيامين سيتفنز ، كان قد خرج إلى الشاطىء ليدعوه لتناول العشاء، وقال إنه كان يرد أن ينفرد بنفسه، ولكنه طلب إليهما أن يشكرا لوسى على المصباح الذى تركته موقداً فى البيت لأجله.

وقد ظلت لوسى تملأ أقداحهما بالقهوة الساخنة المركزة ، ثم أسرعت بالنزول إلى الطابق الأرضي بحثًا عن مزيد من عسل النحل ليأكلاه مع البسكوت، وكانت قد وضعت بعض الأزهار على المائدة وكان المطبخ دفيئًا يبعث على البهجة. وبعد أن انتهيا من تناول عشائهما وعاوناها على تنظيف المائدة، ذهبوا جميعًا إلى غرفة الجلوس ، وفك كل من جويل وسام بنيقته البيضاء وخلع سترته وأشعل غليونه.

وبدا مظهرهما للوسى كما كان يبدو فى كثير من الأمسيات الأخرى ، وكما كان مظهرها يبدو وهى فى فستان البيت البالى وقد وضعت سلة الحياكة أمامها فوق المائدة، ربما كنت أمسية لا تفترق عن أية أمسية مرت بها خلال العام، على الرغم من كل ما حدث منذ طلع فجر ذلك اليوم صافيًا ، ساكنًا .

وعاودتها كلمات القصة التى خطرت ببالها صباح هذا اليوم . لقد وضع صدق هذه الكلمات . إن معانى الأشياء تهرب دائمًا . ومهما فكرت فى أنك كنت تملك ناصية هذه المعانى منذ ساعات قلائل وإلى الأبد، فإنها تشرد منك وتختفى كأجنحة الطير فى الضباب أو مثل اختفاء المد فى المد الذى يليه. لكن ضياعها لا يترك المرء يبحث عنها وحده وفى وحدة كما قال المتحدث فى القصة . ولم تكن قط أقل وحدة مما كانت فى هذه الساعة. لا بل إنها كانت تبحث عن شىء بالذات، فقالت وهى تضع كرة خيط الرفو فى واحد من جوارب جويل:

– لست أدرى لماذا لا أشعر بالحزن ؟ هل كانت جزيرة شاج تبدو موحشة؟

قال سام باركر :

– لا. لست أظن أن أحدنا قد شعر بأنها موحشة . لقد كانت كما ينبغى أن تكون ، وكما خلفتها الحياة. كنت أفكر يا لوسى فيما قلته يوم دخلت المحل فى الليلة قبل البارحة كيف أن موت السيدة هولت كان بمثابة نهاية حقبة على هذا الساحل . وما كان لأحد أن يعبر عن هذه الفكرة خيراً مما فعلت .

وقال جويل :

– إن لوسى دائمًا تفصح عما يجول بخاطرها فى أنسب كلام، وليس هناك من يدانيها فى هذا المضمار .

وثبتت لوسى كرة الرفو فى " كعب" جورب جويل، واستغربت كيف أن الوقت المناسب لقول كلام بذاته يبدو أنه لا يواتيها إطلاقًا ، وكيف أنك إذا قلت هذا الكلام فى الوقت غير المناسب، انفض سحره كما انفض سحر هذه الدقائق الهادئة وقد تقارب ثلاثتهم فى أفكارهم ومشاعرهم وأدركوا عن يقين أن كل شىء فى هذه اللحظة يبدو صامتًا ومناسبًا.

وقالت لوسى :

– كنت آمل دوامًا أن الشمس تمكث هناك مدة أطول مما تبقاها هنا فوق هذا الرأس الصخرى العالى .

قال سام :

– يبدو أن الجزر تستبقى الشمس مدة أطول. وربما كان هذا بسبب إحاطة البحر بها من كل جانب. وعلى أية حال لم تبد الجزيرة مظلمة حقًا. أليس كذلك يا جويل ؟

قال جويل :

– لا . أبدًا . لقد لاحظت دائمًا على هذا الساحل كيف أن السماء كثيرًا ما تستبقى وهجًا منتظمًا من الضوء فوق حافة الظلام .

المؤلفة فى سطور :

مارى إلين تشيس :

ولدت فى بلوهيل سنة ١٧٧٥ . تخرجت فى جامعة «مين » . حصلت على درجة الماجستير والدكتوراه فى الفلسفة من جامعة منيسوتا، والدكتوراه فى الأدب من جامعة « مين » . شغلت منصب أستاذة مساعدة للأدب الإنجليزى فى جامعة منيسوتا، ثم منصب أستاذة للأدب الإنجليزى فى كلية سميث. ألفت كتباً كثيرة للناشئة، كما كتبت مقالات كثيرة وقصصًا ناجحة لاقت إقبالاً شديداً من القراء. وهى إحدى المؤلفات المحبوبات لدى الشعب الأمريكى، فقد أحرزت نجاحًا منقطع النظير فى مجال تدريس الأدب والكتابة.

المترجم فى سطور :

مصطفى طه حبيب

تخرج المترجم الراحل فى كلية الآداب « قسم اللغة الإنجليزية » بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٤ ، وعمل فى التدريس والصحافة والترجمة. له عدة مؤلفات، منها كتابه عن « شاعر الكون ، وليام شكسبير » . ترجم خمس مسرحيات لشكسبير هى: « هنرى السادس » و « زوجات وندسور المرحات» و « هنرى الرابع » بقسميها و « هنرى الثامن » . وكان مشرفًا على مشروع ترجمة الألف كتاب بوزارة التربية والتعليم .

التصحيـــــــيح اللغـوى : **شـــيرين صــــلاح .**

الإشـــــراف الفـنـــى : **حــــسن كامـــــل .**

التصميم الأساسى للغلاف : **أســامة العبـــد .**



لا تجرى أحداث هذه القصة فى مكان محدد بعينه، وإنما قد يكون مكان هذه الأحداث أية قرية من قرى الصيد الصغيرة المنعزلة النائية عند ساحل مألوف منذ زمن طويل. أما الأسماء التى اختيرت لشخصياتها فهى أسماء شائعة لدى أهالى ساحل مين الذين درجوا على أن يجوبوا البحار طوال قرنين من الزمان. فإذا كان لأى منهم سمات الأشخاص الحقيقيين فمرد ذلك إلى المصادفة لا إلى العمد أو القصد، كما تقول المؤلفة.

تصميم الغلاف: نسرين كشك